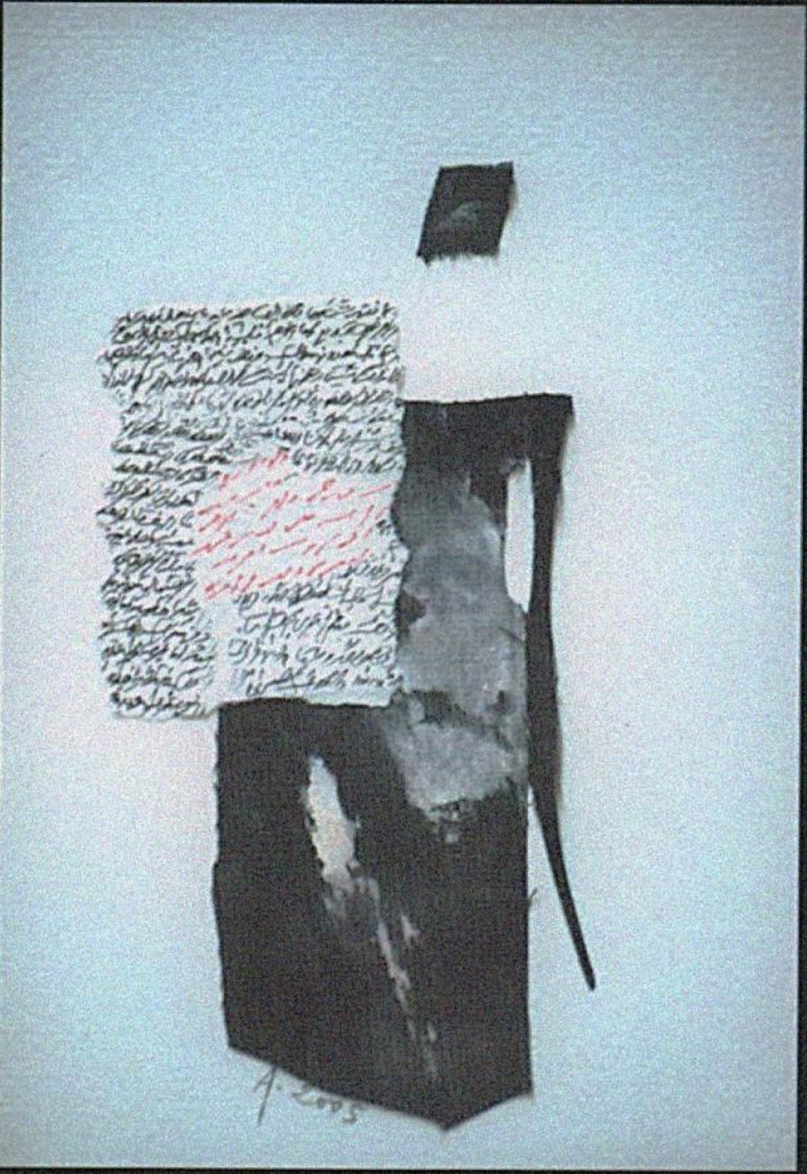
أدونيس

ديوان النثر العربي

الجزء الثاني



بدايات

أدونيس

ديوان النثر العربي

(الجزء الثاني)

الطبعة الأولى: 2012

دار بدايات للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ جبلة ـ مجمّع الروضة التجاري

هاتف: 807826 -41- 00963

دمشق، ص . ب: 30833

بريد إلكتروني: bidayat2007@yahoo.es

أدونيس

ديوان النثر العربي

(الجزء الثاني)

بدايات 2012

الجاحظ*

كم بين أن تسمعَ الغناء من فَم تشتهي أن تُقبّلهُ، وبين أن تسمعه من فَمٍ تشتهي أن تصرفَ بصركَ عنه!

وأيهما أملح: أن يغنيّك فحلٌ ملتفُّ اللحية، وشيخٌ منخلع الأسنان، متغضن الوجه، أو تغنيك جارية كطاقةِ نَرجسٍ أو آس؟

*

(....) والقسمة الأخرى:** ما أودع*** في صدور صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف، وفَطرها عليه من غريب الهدايات، وسخَّر حناجرها له، من ضروب النغم الموزونة، والأصوات الملحنة والمخارج الشجية، والأغاني المطربة.

فقد يقال: إن جميع أصواتها معدلة، وموزونة موقعة. ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة، مما ذلّله لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة، على قدر ما هيأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيراً من الحس اللطيف، والصنعة البديعة، من غير تأديب، وتثقيف ومن غير تقويم وتلفيق، ومن غير تدريج وتمرين،

---

* أبو عثمان بن بحر الكناني الليثي. توفي سنة 255 هـ. معتزلي وتلميذ لإبراهيم النظام. أتقن فنون القول في عصره.

** الكلام عما عجز عنه الإنسان وقدر عليه الحيوان.

*** الضمير في أودع، لله، دل عليه كلام سابق.

فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرأي، وفلاسفة علماء البشر، بيدٍ ولا آلة،

بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالاً، وأتمهم جلالاً، من جهة الاقتضاب والارتجال، ولا من جهة التقشف والاقتدار، ولا من جهة التقدم فيه، والتأني فيه، والتأني له، والترتيب لمقدماته وتمكين الأسباب المعينة عليه،

فصار الإنسان، الثاقب الحس، الجامع القوى، المتصرِّف في الوجوه، المقدم في الأمور، يعجز عن فعل كثيرٍ منها،

وهو ينظر إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوت، وكما أعطيت السرفة، وكما علِّم النحل.

ولا شيء من الحيوان اختار ذلك. فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلم، ما يمتنع على الإنسان وإن تعلّم.

*

(...) فمن ذلك حظها وقسطها* من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم العلم، ثم حظها في التصوير، ثم حظها في القناعات، ثم حظها في العقد، ثم حظها في الدفع عن النفس، ثم حظها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضؤ والامتساح، ثم انتقاد الدراهم والدنانير ولبس الثياب، وأصناف الرمي، ثم النقر بالعود، وتحريك الوتر، ولولا ذلك، لبطل كل هذا أو عامته.

*

* الكلام على فضل اليد.

(...) فقد زعم أناس:

أن كلَّ إنسانٍ فيه آلة لمرفق من المرافق، وأداةٌ لمنفعةٍ من المنافع،

ولابد لتلك الطبيعة من حركةٍ، وإن أبطأت،

ولابد لذلك الكامن من ظهور، فإن أمكنه ذلك بعثه، وإلا سرى إليه، كما يسري السم في البدن. ونما كما ينمو العَرَق.

كما أن البزور البرية، والحبة الوحشية الكامنة في أرحام الأرضين، لابد لها من حركةٍ، عند زمان الحركة، ومن التفتق والانتشار، في إبان الانتشار،

وإذا صارت الأمطار لتلك الأرحام كالنطفة، وكان بعض الأرض كالأم الغاذية، فلا بد لكل ثدي قوي أن يُظهر قوته.

ولذلك صار طلب الحساب على بعضهم أخف، وطلب الطبّ أحب إلى بعضهم وكذلك النزاع إلى الهندسة، وشغف أهل النجوم بالنجوم.

وكذلك أيضاً ربما تحرك له بعد الكبرة، وصرف رغبته إليه، بعد الكهولة على قدر قوة العِرْق في بدنه، وما يعترض عليه. فتجد واحداً ينهج بطلب الغناء واللحون، وآخر ينهج بشهوة القتال، وآخر يختار أن يكون وراقاً، وآخر يختار طلب الملك، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم.

*

اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا* إلى انقضاء مدتها، امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة.

---

* الكلام على «مصلحة الكون».

ولو كان الشر صرفاً هلك الحق، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة، يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير، ذهب التمييز.

ولم يكن للعالم، تثبت، وتوقف، وتعلم، ولم يكن علم، ولا يُعرف باب التبيين، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة،

وبطلت فرحة الظفر، وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محق، يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل وموقن يجد برد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم،

ولم تكن للنفوس آمال. ولم تتشعبها الأطماع،

ومن لم يعرف كيف الطمع، لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس، جهل الأمن، ولعادت الحال من صفوة الخلق إلى حال السبع والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة وإلى حال النجوم في السخرة، فإنها أنقص من حال البهائم في الرتعة.

ومن هذا الذي يسره، أن يكون الشمس والقمر، والنار والثلج أو برجاً من البروج، أو قطعةً من الغيم، أو يكون المجرة بأسرها، أو مكيالاً من الماء، أو مقداراً من الهواء؟

وكل شيء في العالم، إنما هو للإنسان، ولكل مختبرٍ ومختار ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبين والروية.

*

(...) وأي شيء أعجب من طائرين،* يراهما الناس من أدنى حدود البحر من شق البصرة، إلى غاية البحر، من شق السند، أحدهما كبير

* يتكلم عن طائرين عجيبين.

الجثة يرتفع في الهواء، صعداً، والآخر صغير، يتقلب عليه، ويعبث به فلا يزال مرةً يرفرف حوله، ويرتقي على رأسه، ومرةً يطير عند ذناباه، ويدخل تحت جناحيه، ويخرج من بين رجليه، فلا يزال يغته ويكربه، حتى يتقيه بذرقه،

فإذا أوعى ذلك الذرق، واستوفى ذلك الرزق، رجع شبعان ريّان بقوت يومه، ومضى الطائر الكبير لطيته.

*

قال صاحب الديك، لصاحب الكلب:* وسنضرب لك المثل الذي ضربه المورياني،** للديك والبازي: وذلك أن خلاد بن يزيد الأرقط،*** قال: بينما أبو أيوب المورياني، جالس في أمره ونهيه إذ، أتاه رسول أبي جعفر، فامتقع لونه، وطارت عصافير رأسه،**** وأذن بيوم بأسه، وذُعِر ذعراً، نقض حبوته واستطار فؤاده، ثم عاد طَلْقَ الوجه، فتعجبنا من حاله وقلنا له: إنك لطيف الخاصة، قريب المنزلة، فلم ذهب بك الذعر، واستفرغك الوجل، فقال:

سأضرب لكم مثلاً من أمثال الناس:

زعموا، أن البازي، قال للديك: ما في الأرض شيء، أقل وفاءً منك! قال: وكيف؟ قال: أخذك أهلك بيضةً فحضنوك، ثم خرجت على أيديهم،

---

* الكلام: مثلٌ على الديك والبازي.

** نسبة إلى موريان، قرية من قرى الأهواز: اسمه سليمان بن مخلد. ويكنى أبا أيوب. صار وزيراً للمنصور العباسي بعد خالد بن برمك.

*** الأرقط: أحد رواة الأخبار، والأشعار.

**** يضرب مثلاً للمذعور.

فأطعموك على أكفهم، ونشأت بينهم، حتى إذا كبرت، صرت لا يدنو منك أحد، إلا طرت ها هنا وها هنا، وضججت وصحْت. وأُخذت من الجبال، مسناً، فعلموني وألفوني، ثم يُخلى عني، فآخذ صيدي في الهواء، فأجيء به إلى صاحبي، فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم، مثل ما رأيت من الديوك، لكنت أنفر مني.

*

(...) العاقل، ما لم يكن بالمتتبِّع، فكثيراً ما يعتريه، ما يعتريه من ولده. أن يحسن في عينه منه، المقبَّح في عينِ غيره. فليَعلم أن لفظه، أقرب نسباً منه، من ابنه، وحركته أمس به رحماً من ولده، لأن حركته شيء، أحدثه في نفسه وبذاته، ومن عين جوهره، فصلت، ومن نفسه كانت وإنما الولد، كالمخطة يتمخطها، والنخامة يقذفها. ولا سواءٌ إخراجك من جزئك شيئاً، لم يكن منك، وإظهارك حركةً، لم تكن حتى كانت منك. ولذلك تجد فتنة الرجل بشِعْرِه، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته.*

*

الكتب** أولى من بنيان الحجارة، وحيطان المدَد،

لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار مَن قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم.

فقد هدموا بذلك السبب، أكثر المدن، وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم، وأيام الجاهلية،

وعلى ذلك هم في أيام الإسلام. كما هدم عثمان صومعة غمدان.

---

* موازنة بين إبداع الرجل، وبين ولده.

** يريد أن يقول: الحضارة هي الكتاب

وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد* كل قصرٍ ومصنعٍ كان لابن عامر**، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان.***

*

(...) والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمورٍ، منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد في كل زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار. وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب،

ومناقلة اللسان، وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته،

وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره.

ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، أو دوّنت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلقٍ كان، علينا،**** لما فُتحت أبواب المعرفة لنا.

*

(...) الحمام وحشي، وأهليّ، وبيوتي، وطوراني،*****

---

* زياد بن أبيه.

** عبد الله بن عامر... من ربيعة. أمير فاتح، ولد في مكة، وولي البصرة في أيام عثمان.

*** مدن الشامات خمس: فلسطين، والأردن، والغوطة، وحمص، وقنسرين.

**** موازنة بين الكتاب وصاحب الكتاب.

***** صاحب الحمام يتكلم عن الحمام. والطوراني: نسبة إلى طورسينا، أو إلى جبل يقال له: طرآن. نسبة شاذة.

وكل طائرٍ يُعرف بالزواج، وبحسن الصوت والهديل، والدعاء، والترجيع، فهو حمام، وإن خالف بعضه بعضاً في حُسن الصوت واللون، وفي بعض القد ولحن الهديل.

وكذلك تختلف أجناس الدجاج، ولا يخرجها ذلك من أن تكون دجاجاً، وكالديك الهندي، والخلاسي والنبطي، وكالدجاج السندي، والزنجي وغير ذلك.

(...) يُتَّخذ الحمام لضروب: منها ما يتخذ للأنس، والنساء والبيوت ومنها ما يتخذ للزجال والسباق.

من مناقبه، حُبه للناس، وأنس الناس به، وأنك لم تر حيواناً قط، أعدل موضعاً، ولا أقصد مرتبةً من الحمام. وأسفل الناس لا يكون دون أن يتخذها، وأرفع الناس لا يكون فوق أن يتخذها.

والحمام من الطير الميامين، وليس من الحيوان الذي تظهر له عورة وحجم قضيب، فيكون ذلك مما يكون يجب على الرجال، ألا يدخلوه دورهم.

والحمام أكثر معانيه الذرء، وطلب الولد.

فإذا علم الذكر أنه قد أودع رحم الأنثى ما يكون من الولد، تقدّما في إعداد العش، ونقل القش، وشقق الخوص، وأشباه ذلك من العيدان الخوارة الدقاق، حتى يعملا أفحوصةً وينسجاها نسجاً متداخلاً وفي الموضع الذي قد رضياه، واتخذاه، واصطنعاه، بقدر جثمان الحمامة، ثم أشخصا لتلك الأفحوصة، حروفاً غير مرتفعة لتحفظ البيض وتمنعه من التدحرج.

ثم يتعاوران ذلك المكان، ويتعاقبان تلك الأفحوصة يسخنانها، ويطيبانها، وينفيان عنها طباعها الأول ويُحدثان لها طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما، ومستخرجة من رائحة أبدانهما، وقواهما الفاصلة منهما، لكي تقع البيضة، إذا وقعت، في موضع أشبه المواضع طباعاً، بأرحام الحمام مع الحضانة والوثارة، لكي لا تتكسر البيضة، بيبس الموضع ولئلا ينكر

طباعها طباع المكان، وليكون على مقدارٍ، من البرد والسخانة والرخاوة والصلابة. فإن ضربها المخاض، بدرت إلى الموضع الذي قد أعدته وتحاملت إلى المكان الذي اتخذته واصطنعته إلا أن يقرِّعها راعد قاصف، أو ريح عاصف، فإنها ربما رمت بها دون كنّها، وظل عشها، وبغير موضعها الذي اختارته. والرعد ربما مرق عنده البيض وفسد، كالمرأة التي تسقط من الفزع، ويموت جنينها من الروع.

وإذا وضعت البيض في ذلك المكان، فلا يزالان يتعاقبان الحضن ويتعاورانه، حتى إذا بلغ ذلك البيض مداه، وانتهت أيامه وتم ميقاته الذي وظفه خالقه، ودبره صاحبه، انصدع القيض عن الفرخ فخرج عاري الجلد، صغير الجناح، قليل الحيلة منسد الحلقوم، فيعينانه على خلاصه من قيضه، وترويحه من ضيق هوته.

وهما يعلمان أن الفرخين، لا تتسع حلوقهما، وحواصلهما للغذاء فلا يكون لهما عند ذلك وَهْمٌ، إلا أن ينفخا في حلوقهما الريح، فتتسع الحوصلة، بعد التحامها، وتنفتق بعد ارتتاقها. ثم يعلمان أن الفرخ، وإن اتسعت حوصلته شيئاً، أنه لا يحتمل في أول اغتذائه، أن يُزَق بالطعم، فيزق عند ذلك باللعاب المختلط بقواهما وقوى الطعم، وهم يسمون ذلك اللعاب اللباء.*

ثم يعلمان أن طبع حوصلته يرق عن استمراء الغذاء، وهضم الطعم وأن الحوصلة تحتاج إلى دبغٍ وتقوية، وتحتاج إلى أن يكون لها بعض المتانة والصلابة، فيأكلان من شورج أصول الحيطان وهو شيء بين الملح الخالص، وبين التُّراب الملح، فيزقانه به حتى إذا علما أنّه قد اندبغ واشتد، زقاه بالحب الذي هو أقوى وأطرى. فلا يزالان يزقانه بالحب والماء، على مقدار قوته، ومبلغ طاقته، وهو يطلب ذلك منهما، ويبض نحوهما. حتى إذا

* اللباء، ويعرف باللبأ: أول غذاء يقدم للمولود.

علما أنه قد أطاق اللقط، منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط، فيتعوده. حتى إذا علما أن أداته قد تمت، وأن أسبابه، قد اجتمعت، وأنهما إن فطماه فطماً مقطوعاً مجذوذاً قوي على اللقط، وبلغ لنفسه منتهى حاجته، ضرباه إذا سألهما الكفاية، ونفياه متى رجع إليهما. ثم تنزع عنهما تلك الرحمة العجيبة منهما له، وينسيان ذلك العطف، ويذهلان عن تلك الأثرة، والكد المضني، من الغدو عليه، والرواح إليه، ثم يبتديان العمل ابتداءً ثانياً، على ذلك النظام وتلك المقدمات.

(...) ثم بعد أن استغنى ولده عنه، وبعد أن نزعت الرحمة منه وذلك أنه يبتدئ الذكر، الدعاء والطرد، وتبتدئ الأنثى بالتأني والاستدعاء. ثم تزيف وتتشكل، ثم تُمكّن وتَمنَع، وتجيب وتصدِف بوجهها. ثم يتعاشقان ويتطاوعان، ويحدث لهما من التغزل والتفتل، ومن الشوْفِ والقُبل، ومن المصّ والرشف، ومن التنفخ والتنفّج، ومن الخيلاء والكبرياء، من إعطاء التقبيل حقه، ومن إدخال الفم في جوف الفم، وذلك من التطاعم.

(...) هذا مع إرسالها جناحيها، وكفيها على الأرض، ومع تدرُّعها وتبعُّلِها، ومع تصاوله وتطاوله، مع ما يعتريه من الحكة والتفلي، والتنفش.

ثم ترى الذي من كسحه بذنبه، وارتفاعه بصدره، ومن ضربه بجناحه، ومن فرحه ومرحه، بعد قمطه، والفراغ من شهوته ثم يفتر بعد ذلك، في الوقت الذي يفْترُ فيه أنكح الناس.

(...) وخصلة التناسل عنده، يفوق بها جميع الحيوان،

لأن الإنسان الذي هو أكثر الخلق قوةً في الشهوة، وفي دوامها في جميع السنة،

وأرغب الحيوان في التصنع والتغزل، والتشكل والتفتل، أفتر ما يكون إذا فرغ. وعندها يركبه الفتور ويحب فراق الزوج، إلى أن يعود إلى نشاطه، وترجع إليه قوته.

والحمام، أنشط ما يكون وأفرح، وأقوى ما يكون وأمرح، مع الزهو والشكل، واللهو والجذل، أبرد ما يكون الإنسان وأفتره وأقطع ما يكون وأقصره.

هذا وفي الإنسان ضروب من القوى، أحدهما فضل الشهوة والأخرى دوام الشهوة في جميع الدهر، والأخرى قوة التصنع والتكلف.

وأنت إذا جمعت خصاله كلها، كانت دون قوة الحمام، عند فراغه من حاجته، وهذه مزية لا يجحدها أحد.

ومن عجيب أمر الحمام، أنه يقلب بيضه، حتى يصير الذي كان منه يلي الأرض، يلي بدن الحمام، من باطن جناحه، حتى يُغطي جميع البيضة، نصيبها من الحضن، ومن مسِّ الأرض، لعلمه أن خلاف ذلك العمل يفسده.

وخصلة أخرى محمودة في الحمام، فالراغبي* المتولد، في ما بين الحمام والورشان، يكثر نسله، ويطول عمر ولده، والبخت والفوالج** إن ضرب بعضها بعضاً، خرج الولد منقوص الخلق لا خير فيه،

والحمام كيفما أدرته، وكيفما زاوجت بين متفقها ومختلفها، يكون الولد تام الخلق، مأمول الخير.

(...) وما رأيت*** شيئاً قط في رجل وامرأة، إلا وقد رأيت مثله في الذكر والأنثى من الحمام.

رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها، كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها،

---

* الراغبي: اسم مشتق من الترغيب، وهو شدة الصوت، وقيل منسوب إلى أرض تسمى راغب، فيكون: الراغبي.

** البخت والفوالج: نوعان من الطيور، يقارن الجاحظ بينهما وبين الحمام من جهة التناسل.

*** الكلام برواية الجاحظ للمثنى بن زهير، إمام الناس في البصرة في معرفة الحمام.

ورأيت حمامةً لا تمنع شيئاً من الذكورة،

ورأيت امرأة لا تمنع يدَ لامس،

ورأيت الحمامة لا تزيف، إلا بعد طردٍ شديد، وشدة طلب. ورأيتها تزيف لأول ذكر يريدها، ساعة يقصد إليها، ورأيت من النساء كذلك.

ورأيت حمامةً لها زوج، وهي تمكن ذكراً آخر لا تعدوه. ورأيت مثل ذلك من النساء، ورأيتها تزيف لغير ذكرها، وذكرها يراها ورأيتها لا تفعل ذلك، إلا وذكرها يطير أو يحضن.

ورأيت الحمامة تقمط الحمام الذكور، ورأيت الحمامة تقمط الحمامة.

ورأيت أنثى كانت لي لا تقمط إلا الإناث، ورأيت أخرى تقمط الإناث فقط، ولا تدع أنثى تقمطها.

ورأيت هذه الأصناف كلها في السحَّاقات، من المذكرات والمؤنثات وفي الرجال الحلقيين واللوطيين* وفي الرجال من لا يريد النساء وفي النساء من لا يريد الرجال.

وامتنعت علي خصلة، فلقد رأيت من النساء، من تزني أبداً وتساحق أبداً، ولا تتزوج أبداً،

ومن الرجال من يلوط أبداً ويزني أبداً، ولا يتزوج أبداً،

ورأيت حماماً ذكراً، يقمط ما لقي و يزاوج،

ورأيت حمامةً تمكّن كل حمامٍ أرادها من ذكرٍ وأنثى، وتقمط الذكورة والإناث، ولا تزاوج، ورأيتها تزاوج ولا تبيض، وتبيض فيفسد بيضها كالمرأة تتزوج وهي عاقر وكالمرأة تلد وتكون ورهاء خرقاء، ويعرض لها الغلظة والعقوق للأولاد، كما يعتري ذلك العقاب.

*

---

* الحلقي، الذي فسد عضوه الجنسي، فانعكس ميل شهوته.

ورأيت* ذكراً له أنثيان، وقد باضتا منه، وهو يحضن مع هذه، ومع تلك، ورأيت أنثى تبيض بيضةً، ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها، ثلاث بيضات.

ورأيت أنا** حمامةً في المنزل، لم يعرِض لها ذكر، إلا اشتدت نحوه بحدة، وزنقٍ، وتسرّعٍ، حتى تنظر أين صادفت منه، حتى يصد عنها كالهارب منها، وكان زوجها جميلاً في العين رائعاً، وكان لها في المنزل بنون وبنو بنين، وبنات وبنات بنات.

وكان في العين كأنه أشب من جميعهن، وقد بلغ من حظوته أني، قلما رأيته أراد واحدةً، من عرض تلك الإناث، فامتنعت عليه، وقد كن يمتنعن من غيره.

فبينا أنا ذات يوم جالس، بحيث أراهن، إذ رأيت تلك الأنثى قد زافت لبعض بنيها، فقلت لخادمي: ما الذي غيرها عن ذلك الخلق الكريم؟

فقال: إني رحّلت زوجها، وذهب، ومضى شهر، فقلت: هذا عذر.

والحمام إذا قمط، يتنفش ويتكبر، وينفض ذنبه، ويضرب بجناحه.

(...) والتقبيل*** ليس إلا، للحمام والإنسان، ولا يدع ذلك ذكر الحمام إلا بعد الهرم.

وكان في أكثر الظن أنه، أحوج ما يكون، إلى ذلك التهييج به، عند الكبر والضعف.

وإناث الحمام، إذا تسافدت، أيضاً، قبل بعضهن بعضاً، ويقال إنها تبيض عن ذلك، ولكن لا يكون عن ذلك البيض فراخ.

---

* الكلام مازال للمثنى بن زهير.

** الكلام للجاحظ.

*** الكلام للمثنى بن زهير.

والحمام لئيم، ولؤمه من طريق الغيرة. فإنه يرى بعينه الذكر الذي هو أضعف منه، وهو يطرد أنثاه، ويكسح بذنبه حولها، ويتطوس لها، ويستميلها، وهو يرى ذلك بعينه. ثم لم نر قط، ذكراً واثب ذكراً، عند مثل ذلك.

ومن لؤمه أن الذكر، ربما كانت له مع الأنثى السنين، ثم تنقل عنه، وتوارى شهراً واحداً، ثم تظهر له مع زوجٍ أضعف منه، فيراها طول دهره، وهي إلى جنب بيته، فكأنه لا يعرفها بعد معرفتها الدهر الطويل، وإنما غابت عنه الأيام اليسيرة.

ومن لؤمه أيضاً، القسوة، وهي ألأم اللؤم، وذلك أن الذكر، ربما كان في البيت طائر ذكر، قد اشتد ضعفه، فينقر رأسه، والآخر مستخذٍ له، قد أمكنه من رأسه خاضعاً له، شديد الاستسلام لأمره، فلا هو يرحمه لضعفه وعجزه عنه، ولا هو يرحمه لخضوعه، ولا هو يمل وليس عنده وتر، ثم ينقر يافوخه، حتى ينقب عنه ثم لا يزال ينقر ذلك المكان بعد النقب، حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه.

*

كان لنا بالبصرة، قاضٍ*، يقال له: عبد الله بن سوار، لم ير الناس حاكماً قط، ولا زميتاً، ولا ركيناً، ولا وقوراً حليماً، ضبط من نفسه وملك من حركته، مثل الذي ضبط وملك.

كان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب من مسجده، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو، ولا يلتفت ولا يحلّ حبوته، ولا يحوّل رجلاً عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبني، أو صخرة منصوبة،

---

* قاضي البصرة والذباب. واسم القاضي: عبد الله بن قداحة العنبري البصري.

فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر، ثم يرجع مجلسه،

فلا يزال كذلك، حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى محله، بل كثيراً ما يكون ذلك، إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط، والوثائق، ثم يصلي العشاء، وينصرف.

فالحق يقال: لم يقم في طول تلك المدة والولاية، مرةً واحدةً إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماءً، ولا غيره من الشراب.

وكان مع ذلك لا يحرك يده، ولا يشير برأسه وليس إلا أن يتكلم، ثم يوجز، ويبلغ بالكلام اليسير، المعاني الكثيرة.

فبينا هو كذلك، ذات يوم، وأصحابه حواليه في السماطين بين يديه، إذ سقط على أنفه ذباب، فأطال المكث، ثم تحول إلى مؤق عينه، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه، ونفاذ خرطومه، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه، من غير أن يحرك أرنبته أو يغضن وجهه، أو يذب بإصبعه.

فلما طال ذلك عليه من الذباب، وشغله وأوجعه، وأحرقه وقصد إلى مكانٍ لا يحتمل التغافل، أطبق جفنه الأعلى، على جفنه الأسفل، فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق، والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى مؤقه، بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك. فكان احتماله أضعف، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى، فحرّك أجفانه وزاد في شدة الحركة، وفي فتح العين، وفي تتابع الفتح والإطباق. فتنحّى عنه بقدر ما سكنتْ حركته، ثم عاد إلى موضعه، فمازال يلحُّ عليه، حتى استفرغ صبره، وبلغ مجهوده، فلم يجد بداً من أن يذبَّ عن عينيه بيديه، ففعل، وعيون القوم إليه ترمقه، وكأنهم لا يرونه، فتنحّى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنتْ حركته، ثم عاد إلى موضعه.

ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كمّه، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك، وعلمَ أنَّ فعله كله، كان بعين من حضره من أمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال:

أشهد أن الذباب ألحّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب. وأستغفر الله، فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله عز وجل، أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً،

وقد علمت أني عند الناس، من أدمث الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه.

*

لم يقض زمام التأميل،* ولم يقم بحرمة الرجاء، إلا من أعطاها حقها،** ووفّاها حظها، وعرف قدرها، وكيف يستبقي النعمة فيها، وكيف الشكر على أداء حقها، بالبشر عند المسألة وقلة التضجر عند المعاودة، وتوكيد الضمان عند العدة وانتهاز الفرصة عند القدرة، ويكون النجح المعجل، أحب إليه من عذر المصدق، وحتى يرى أن حقك عليه، في بذل وجهك إليه، أكثر من حقه عليك، في تحقيق أمله فيك، ثم إيجاب سترها، فإن سترها، هو المخبر عنها، والدال عليها، والزائد في قدرها، والمتولي لنشرها.

*

كنت متى شئت*** أن أجد صفة مَن يعِد وينجز، وجدته.

فقد أعياني من يعد ولا ينجز. كانوا يفعلون ولا يقولون.

وقد صاروا يقولون ويفعلون، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا، لا يقولون ولا يفعلون.

*

---

* هذا الكلام رواه الجاحظ عن أبي عقيل بن دَرَسْت. وأبو عقيل من الذين كان يأخذ عنهم الجاحظ. والكلام في مسألة المحتاج وبذل الوجه.

** الضمير في حقها: لحرمة الرجاء.

*** الكلام لعمرو بن الحارث برواية الجاحظ.

لم أر* قط أعجب من قتال الفئران، كنت في الحبس وحدي وكان في البيت الذي أنا فيه جحر فأر، يقابله جحر آخر، فكان الجرذ يخرج من أحد الجحرين، فيرقص ويتوعد، ويضرب بذنبه، ثم يرفع صدره، ويهز رأسه، فلا يزال كذلك حتى يخرج الجرذ الذي يقابله، فيصنع كصنيعه.

فبينا هما، إذ عدا أحدهما فدخل جحره، ثم صنع الآخر مثل ذلك، فلم يزل ذلك دأبهما، في الوعيد، وفي الفرار وفي التحاجز، وفي ترك التلاقي، إلا أني في كل مرة، أظن الذي يظهر لي من جدهما، واجتهادهما، وشدة توعدهما أنهما سيلتقيان بشيء، أهونه العض والخمش، ولا والله، إن التقيا قط.

فعجبت من وعيد دائم، لا إيقاع معه، ومن فرار دائم، لا ثبات معه، ومن هرب لا يمنع من العودة، ومن إقدام، لا يوجب الالتقاء. وكيف يتوعد صاحبه ويتوعده الآخر؟ وبأي شيء يتوعده، وهما يعلمان أنهما لا يلتقيان أبداً؟

فإن كان قتالهما ليس هو إلا الصخب، والتنييب، فلم يفر كل واحدٍ منهما، حتى يدخل جحره؟ وإن كان غير ذلك، فأي شيء يمنعهما من الصدمة؟ وهذا أعجب.

*

كان أحمد بن عبد الوهاب، مفرط القِصَر، ويدعي أنه مفرط الطول. وكان مربعاً، وتحسبه لِسعة جفرته، واستفاضة خاصرته، مدوراً. وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعي السباطة، والرشاقة، وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن، معتدل القامة، تام العظم.

---

* الكلام لثمامة بن الأشرس، وهو من العلماء المتكلمين. وقد أثبت الكلام هنا، لأنه من عرْضِ الجاحظ، كالذي تقدمه من كلام. والكلام هنا عن عراك الفئران.

وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه، يدعي أنه رفيع العماد، عادي القامة عظيم الهامة. وقد أعطي البسطة في الجسم، والسعة في العلم، وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب، حديث الميلاد.

وكان ادعاؤه لأصناف العلم، على قدر جهله بها، وتكلفه للإبانة عنها. على قدر غباوته عنها، وكان كثير الاعتراض لهجاً بالمراء شديد الخلاف، كلفاً بالمجادلة، مؤثراً للمغالبة، مع اختلال الحجة بموضع الشبهة، والعجز عند التوقف والمحاكمة، مع الجهل بثمرة المراء، ومغبة فساد القلوب، ونكد الخلاف، وما في الخوض من اللغو الداعي إلى السهو، وما في المعاندة من الإثم الداعي إلى النار، وما في المجاذبة من النكد، وما في التغالب، من فقدان الصواب.

وكان قليل السماع غمراً، وصحفياً غفلاً، لا ينطق عن فكر. ولا يثق بأول خاطر، ولا يفصل بين اعتزام الغمر، واستبصار المحق.

يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب. وليس في يده من جميع الآداب، إلا الانتحال لاسم الأدب.

فلما طال اصطبارنا، حتى بلغ المجهود منا، وكدنا نعتاد مذهبه، ونألف سبيله، رأيت أن أكشف قناعه وأبدي للبادي والحاضر، وسكان كل ثغر، وكل مصر، بأن أسأله عن مئة مسألة، أهزأ فيها، وأعرّف الناس مقدار جهله. وليسأله عنها كل من كان في مكة، ليكفّوا عنا من غربه وليردوه بذلك إلى ما هو به.

(...) لا تحسد على شيء، حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة، وعلى حور العين، وجودة القدّ. وعلى طيب الأحدوثة، والصنيعة المشكورة. وأن هذه الأمور، هي خصائصك التي بها تكلف، ومعانيك التي بها تلهج. وإنما يحسد المرء شقيقه في النسب، وشبيهه في الصناعة، ونظيره في

الجوار، على طارف قدره، أو تالد حظه، أو على كرمٍ في أصل تركيبه، ومجاري أعراقه.

وأنت تزعم أن هذه المعاني، خالصة لك، مقصورة عليك. وأنها لا تليق إلا بك، ولا تحسن إلا فيك. وأن لك الكل، وللناس البعض. وأن لك الصافي ولهم المشوب. هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه، والبديع الذي لا نبلغه.

فما هذا الغيظ الذي أنضجك؟ وما هذا الحسد الذي أكمدك؟ وما هذا الإطراق الذي قد اعتراك؟ وما هذا الهمّ الذي قد أضناك؟

وهل رأيت أخسر صفقة، ولا أوهن قوةً ممن يُجري العتاق مع الكوادن، والروائع مع الحواسر، وممن حاكم من يسالمه، وجاذب من يقلده؟

وهل رأيت مكيناً يقلق، ومصنوعاً له يسخط؟

وهل زدت أن أطمعت في نفسك، ومكّنت الشبهة في أمرك، وأنشأت للخامل ذكراً، وللوضيع قدراً؟

إنك لا تعرف الأمور، ما لم تعرف أشباهها، ولا عواقبها ما لم تعرف أقدارها. ولن يعرف الحق من يجهل الباطل ولا يعرف الخطأ من يجهل الصواب، ولا يعرف الموارد من يجهل المصادر.

فانظر: لم تَسالمت النفوس مع تفاوت منازلها؟ ولم تجاذبت عند تقارب مراتبها؟ ولم اختلف الكثير، واتفق القليل؟ ولم كانت الكثرة علة التخاذل، والقلة سبباً للتناصر؟ وما فرق ما بين المجاراة والتحاسد؟ وبين المنافسة والتغالب؟

فإنك متى عرفت ذلك، استرحت منا، ورجونا أن نستريح منك.

وكيف يعرف السبب، من يجهل المسبّب؟ وكيف يعرف الوصل، من يجهل الفصل؟

وكيف يعرف الحجة من الشبهة، والغدر من الحيلة، والواجب من الممكن، والغفل من المرسوم، والمعقول من الموهوم والمحال من الصحيح،

والأسرار المجهولة، من ذوات الدلائل الخفية، وما يُعلم مما لا يُعلم، وما يُعلم باللفظ، دون الإشارة، مما لا يُعلم إلا بالإشارة دون اللفظ، وما يُعلم مُعتقداً، ولا يُعلم يقيناً، مما يُعلم يقيناً ولا يُعلم معتقداً، وما المستغلق الذي لا يجوز أن يفارقه استغلاقه والمستبهم الذي لا يفارقه استبهامه؟

ومن هو طائر مع العوام حيث طارت، وساقط معها حيث سقطت، مع الزراية عليها، والرغبة عنها؟

قد ظلمها بفضل ظلمه لنفسه، وجرى معها، بقدر مناسبتها لقدره. فاعرف الجنس، تعرف الصنف، والقسم من النَّصْف، وفُرِّقَ ما بين الذم واللوم، وفصِّل ما بين الحمد والشكر، وَحُدَّ الاختيار من الإمكان، والاضطرار من الإيجاب. وسنعرفك من جملة ما ذكرنا باباً، أنت إليه أحوج، وهو علينا أرد.

اعلم أن الحسد، اسم لما فضل من المنافسة، كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقي. والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد، والسرف مما جاوز الجود.

وأنت لا تعرف هذا، ولو أدخلتك الكور ونفخت عليك إلى يوم ينفخ في الصور.

وهل في الأرض إقرار أثبت، ودليل أوضح، وشاهد أصدق، من شاهدي على ما ادعيت لنفسك، من الرفعة، مع ما ظهر من حسدك لأهل الصنعة؟ وهل تكون بعد ذلك إلا فاسد الحس، ظاهر العنود أو جاهلاً بالمحال؟

وبعد، فأنت في يدك قياس لا ينكسر وجواب لا ينقطع. ولك حدّ لا يفل، وغرب لا ينثني. وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب. أن تقول: وما عليَّ أن يراني الناس عريضاً، وأكون في حكمهم غليظاً، وأنا عند الله طويل جميل وفي الحقيقة، مقدود رشيق.

ومن غريب ما أوتيت، وبديع ما أعطيت، أنّا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك.

فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب! فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول.

بل ما يهمّك من أقاويلهم، ويتعاظمك من اختلافهم، والراسخون في العلم، والناطقون بالفهم، يعلمون أن استفاضة عرضك، قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وأن ما ذهب منك عرضاً، قد استغرق ما ذهب منك طولاً!

ولئن اختلفوا في طولك، لقد اتفقوا في عرضك. وإذ قد سلموا لك بالرغم شطراً، ومنعوك بالظلم شطراً، فقد حصلت ما سلموا، وأنت على دعواك في ما لم يسلكوا. ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن. وما الإستبانة الصحيحة إلا للعقل، إذ كان زماماً على الأعضاء، وعياراً على الحواس.

(...) وقد سمعنا من يذم الطوال، كما سمعنا من يزري على القصار. ولم نسمع أحداً، ذم المربوع، ولا أزرى عليه، ولا وقف عنده، ولا شك فيه.

ومَن يذمّه إلا من ذم الاعتدال، ومن يزري عليه، إلا من أزرى على الاقتصاد؟

ومن ينصِب للصواب الظاهر، إلا المعاند؟ ومن يماري في العيان إلا الجاهل؟

وبعد، فأي قدٍّ أردى، وأي نظامٍ أفسد، من عرضٍ مجاوزٍ للقدر، وطولٍ مجاوزٍ للقصد؟ ومتى لم يضرب العرض بسهمه، على قدر حقه، ويأخذ الطول من نصيبه على مثل وزنه، خرج الجسد من التقدير، وجاوز التعديل. وإذا خرج من التقدير، تفاسد. وإذا جاوز التعديل تباين. ولئن جاز هذا الوصف، وحسن هذا النعت، كان لقاسم التمار* من الفضيلة، ما ليس

---

* قاسم التمار: من رموز الجاحظ. كان الجاحظ، يسمي شخصيات كثيرة، من عصره. وقد يسمي من لا وجود له في الواقع.

لأحمد بن عبد الوهاب. وهذا كله، بعد أن يصدقوك، على ما ادعيت لطولك في الحقيقة واحتججت به لعرضك في الحكومة. على أنك، باعتلالك لما ينفيه العيان، واستشهادك لما تتكره الأذهان، متعرّض للصدق من المتكرم، ومتحكك بالحكم من المتغافل.

وأي صامتٍ لا ينطقه هذا المذهب، وأي ناطق لا يغريه هذا القول؟

وإذا كان هذا ناقضاً لعزم المتسلم، فما ظنك بعداوة المتكلف؟ فأنشدك الله، أن تغري بك السفهاء، أو تنقض عزائم العلماء.

وما أدري في أي الأمرين أنت أعظم إثماً وفي أيهما أنت أفحش ظلماً: أبتعرضك للعوام، أم بإفسادك حِلمَ الخواص؟

وبعد، فما يحوجك إلى هذا، وما يدعوك إليه؟ وأشباهك من القصار، كثير، ومن ينصرك منهم غير قليل؟

ورأيتك تقول: إن كان الفضل في النكاية، وفي الشدة والصلابة، فقصار كل شيء، أشدّ ضرراً، وأدق مدخلاً، وأظهر قوةً، وجلداً. كالحجارة: أصلبها، الحصى، وكالحيّات، أقتلها الأفعى.

واحتججت بأن الحسن، والفضل لصغار ما في الإنسان، كالناظرين والأنثيين وحبة القلب، وأم الدماغ. وزعمت أن الإنسان، إذا طال جسمه، وامتد شخصه، أسرع الانهدام إلى بدنه، والانحناء إلى ظهره، وأن القصير لا يتقوس ظهره ولا يميل عنقه، ولا يضطرب شخصه، ولا تعوجّ عظامه. ويسعه كل باب، ويقطعه كل ثوب، ولا تخرج رجلاه من النعش، ولا يفضل على الفراش.

وهو بعد أخف على القلوب، وأخلط بالنفوس، وأبعد عن السماجة وأدخل في كلٍّ باب ملاحة.

وقلت، وتقول الناس: ما هو، إلا فلفلة، وما هو إلا زنبقة، وما هو إلا شرارة، وما لسانه، إلا لسان حية. ولم أزل أراك تقدم العرض على الطول،

وتزعم أن الأرض، لم توصف بالعرض إلا لفضيلة العرض على الطول، (...) فهذه براهينك الواضحة، ودلائلك الظاهرة. ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم، ومن القناعة والإخلاص، إلا أنّك ترى أنَّ ما عند الله، خيرٌ لك مما عند الناس، وأن الطول الخفي، أحب إليك من الطول الظاهر، لكان في ذلك، ما يشهد لك بالإنصاف، ويحكم لك بالتوفيق.

وأنا، أتعشّق إنصافك، كما أتعشّق المرأة الحسناء. وأتعلّم خضوعك للحقّ، كما أتعلم التفقّه في الدين. ولربما ظننت أن جورك، إنصاف قومٍ آخرين، وأن تفقدك، سماح رجالٍ منصفين.

وما أظنك، صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة، ومقابلة الاستطراد بالاختيار، واليقين بالشك، واليقظة بالحلم، إلا الذي خصصت به من إيثار الحق، وألهمته من فضيلة الإنصاف حتى صرت أحوج ما تكون إلى الإنكار، وأذعن ما تكون بالإقرار، وأشد ما تكون إلى الحيلة فقراً، أشد ما تكون للحجة طلباً.

(...) إن انقطع خصمك تغافلت، وإن خرف ترفقت. غير منخوب ولا متشغب ولا مدخولٍ، ولا مشترك، ولا ناقص النفس، ولا واهن العزم، ولا حسودٍ ولا منافس ولا مغالبٍ ولا معاقب. تقلُّ الحزَّ، وتصيبُ المفصل. تقرّب البعيد، وتظهر الخفي. وتميز الملتبس، وتخلّص المشكل، وتعطي المعنى حقه من اللفظ، كما تعطي اللفظ حقه من المعنى.

وتحب المعنى إذا كان حياً يلوح، وظاهراً يصيح. وتبغضه إذا كان مستهلكاً، بالتعقيد، ومستوراً بالتغريد. وتزعم أن شرَّ الألفاظ، ما غرّق المعاني وأخفاها، وسترها وعمّاها.

أعجب الألفاظ عندك، ما رقّ وعذب، وخف وسهل، وكان موقوفاً على معناه، ومقصوراً عليه، دون ما سواه. لا فاضل ولا مقصِّر، ولا مشترك ولا مستغلق. قد جمع خصال البلاغة واستوفى خلال المعرفة. فإذا كان الكلام

على هذه الصفة، وأُلف على هذه الشريطة، لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع، من المعنى إلى القلب. وصار السامع كالقائل، والمتعلِّم كالمعلِّم. وخفت المؤونة، واستُغني عن الفكرة، وماتت الشبهة وظهرت الحجة. واستبدلوا بالخلاف وفاقاً، وبالمجاذبة موادعةً. وتهنأوا بالعلم، وتشفّوا ببرد اليقين. واطمأنوا بثلج الصدور، وبان المنصف من المعاند، وتميز الناقص من الوافر، وذل المخطل، وعزَّ المحصِّل. وبدت عورة المبطل وظهرت براءة المحق.

وقلت، وإن الناس، وإن قالوا في الحسن: كأنه طاقة ريحان وكأنه خوط بان، وكأنه قضيب خيزران، وكأنه رمح رديني وكأنه صفيحة يمانية (...) فقد قالوا: كأنه المشتري، وكأن وجهه دينار هرقلي، وما هو إلا البحر، وما هو إلا الغيث. وكأنه الشمس، وكأنها دارة القمر، وكأنها الزهرة، وكأنها درة، وكأنها غمامة، وكأنها مهاة.

وقلت: وجدنا الأفلاك وما فيها، والأرض وما عليها، على التدوير، دون التطويل. كذلك الورق والثمر، والحب والثمر والشجر.

وقلت: الرمح وإن طال، فإن التدوير عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه، موصولاً ومنفصلاً. والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً، وكذلك الإنسان وجميع الحيوان.

وقلت: لا يوجد التربيع، إلا في المصنوع، دون المخلوق، وفي ما أكره على تركيبه، دون ما خُلّي وسوِّم طبيعته، وعلى أن كل مربع، ففي جَوْفه مدور، فقد بَانَ المدور بفضله، وشارك الطول في حصته.

ومن العجب أنّك تزعم، أنّك طويل في الحقيقة، ثم تحتج للاستدارة والعرض. فقد ضربت، عما عند الله صفحاً، ولهجتَ بما عند الناس.

(...) فأما سواد الناظر، وحسن المحاجر، وهدب الأشفار، ورقة حواشي الأجفان، فعلى أصل عنصرك، ومجاري أعراقك.

وأما إدراكك الشخص البعيد، وقراءتك الكتاب الدقيق، ونقش الخاتم قبل الطبع، وفهم المُشكل قبل التأمل، مع وهن الكبر وتقادم الميلاد، ومع تخوّن الأيام، وتنقص الأزمان، فمن توتياء الهند، ومن الحمية الشديدة، ومن طول استقبال الخضرة.

(...) كيف أطمع في تقويمك بعد اللجاج، وقد منعتنيه، قبله؟ وكيف أرجو إقرارك جهراً، وقد أبيت سراً؟ وكيف تجود به صحيحاً مطمعاً، وقد بخلت به مريضاً مؤنساً؟ وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول أبا جعفر* وتخاشنه وتنافره وتراهنه، لا تفعل ذلك إلا في المحافل العظام وبحضرة كبار الحكام، ثم نستغرب ضحكاً من طمعه فيك وتعجب الناس من مجاراته لك.

وأشهد بعد، أنّك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله، ثم تطارفه وتطاوله. وتستبرد الأصمعي وتستخف الأحنف بن قيس، وتبارز أبا الحسن**، ثم تخرج من حدِّ الغلبة، إلى حدِّ المراء، ومن حدِّ الأحياء إلى حد الموتى.

هذا وليس لك مساعد، ولا معك شاهد واحد. ولا رأيت أحداً يقف في الحكم عليك، أو ينتظر تحقيق دعواك. ولا رأيت مبصراً يخليك من التأنيب، ولا مؤنباً يخليك من الوعيد ولا متواعداً يخليك من الإيقاع، ولا موقعاً يرثي لك ولا شافعاً يشفع فيك.

يا عمّ لم تحملنا على الصدق؟ ولم تُجَرِّعنا مرارة الحق؟ ولم تعرِّضنا لأداء الواجب؟ ولم تستكثر من الشهود عليك؟ ولم تحمل الإخوان على خلاف محبتهم لك؟ اجعل بدل ما تجني على نفسك، أن تجني على

---

* أبو جعفر: الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، كان كاتباً وشاعراً، توزّر للمعتصم والواثق. قُتل في عهد المتوكل 233 هـ.

** علي بن أبي طالب.

عدوك، وبدل ما تضطر الناس إلى أن يصدقوا فيك، أن تضطرهم إلى أن يمسكوا عنك. ولمن فاته الطول، من أن يُلقي بيده إلى التهلكة، أو من أن يقول بخلاف ما يجد في نفسه؟

فوالله، إنك لجيد الهامة، وفي ذلك خلف من حسن القامة. وإنك لحسن الحظ، وفي ذلك عوض عن حسن اللفظ. وإنك لقليل الشيب، قليل البول، وإنك لتجِدُّ مقالاً، وإنك لتَعُدُّ خصالاً.

فقل معروفاً، فأنا من أعوانك، واقتصد فأنا من أنصارك. وهات، فإنك لو أسرفت، لقلنا: قد اقتصدت. ولو جرْت، لقلنا: قد اهتديت.

ولو غششنا لساعدناك. ولو نافقناك لأغريناك. ولربما عذرتك ولان جانبي لك فأقول: خَرِف الشيخ إذا كان جاداً، وعبث إذا كان هازلاً. وقد يُعجل الخرف، إلى أحدث منك سناً، ويبطئ عن أطول منك عمراً.

*

(...) وكل حبلٍ، [*] وكل حجرٍ، إذا كان أسود، كان أصلب صلابةً، وأشد يبوسةً. والأسد الأسود، لا يقوم له شيء.

وليس من التمر شيء، أحلى حلاوةً، من الأسود، ولا أتم منفعةً ولا أبقى على الدهر.

والنخيل أقوى ما تكون، إذا كانت سود الجذوع.

(...) وأحسن الخضرة، ما ضارع السواد.

وليس في الأرض عود أحسن حسناً، وأغلى ثمناً، ولا أثقل وزناً، ولا أسلم من القوادح، ولا أجدر أن ينشب فيه الخطّ من الآبنوس. ولقد بلغ من اكتنازه، والتئامه، وملوسته وشدة تداخله، أنه يرسب في الماء، دون جميع العيدان والخشب. وقد غلب بذلك بعض الحجارة، إذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب.

---

[*] الكلام على السواد.

والإنسان أحسن ما يكون في العين، ما دام أسود الشعر. وكذلك، أكرم ما في الإنسان حدقتاه، وهما سوداوان وأكرم الأكحال، الإثمد، وهو أسود.

وأنفع ما في الإنسان له، كبده، التي بها تصلح معدته وينهضم طعامه، وبصلاح ذلك قام بدنه، والكبد سوداء.

وأنفس ما في الإنسان، وأعزه، سويداء قلبه، وهي علقة سوداء. تكون في جوف فؤاده، تقوم في القلب، مقام الدماغ من الرأس.

ومن أطيب ما في المرأة، وأشهاه، شفتاها للتقبيل. وأحسن ما يكونان، إذا ضارعتا السواد.

*

ماء بئرنا* كما علمتم، مالح أجاج، لا يقربه الحمار، ولا تسيغه الإبل، وتموت عليه النخل.

والنهر منا بعيد، وفي تكلّف العذب علينا مؤونة، فكنا نمزج منه للحمار، فاعتلَّ منه وانتقض علينا من أجله، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفاً.

وكنت أنا والنعجة، كثيراً ما نغتسل بالعذب، مخافة أن يعتري جلودنا منه، مثل ما اعترى جوف الحمار، فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلاً.

ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح، فعمدت إلى ذلك المتوضّأ فجعلت في ناحيةٍ منه حفرةً وصهرجتها، وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوبت إليها السبيل،

---

* شيخ من المسجديين، يتكلم، وهم قوم من البصرة، اتخذوا المسجد منتدى لهم، وكانوا خليطاً من الناس، يجتمعون إلى بعضهم، ويتناقلون أطراف الأحاديث. وردت أخبارهم كثيراً في كتب الأدب والاجتماع، نظراً للآثار التي تركوها. انظر: «كتاب البخلاء» للجاحظ.

فنحن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافياً، لم يخالطه شيء.

والحمار أيضاً لا تقزز له منه، وليس علينا حرج في سقيه منه.

وما علمنا أن كتاباً حرّمه، ولا سنة نهت عنه. فربحنا هذه، منذ أيام، وأسقطنا مؤونةً عن النفس والمال.

*

هل شعرتم بموت مريم الصناع؟* فإنها كانت من ذوات الاقتصاد وصاحبة إصلاح.

قالوا: فحدثنا عنها.

قال: نوادرها كثيرة، وحديثها طويل، ولكني أخبركم عن واحدةٍ فيها كفاية.

قالوا: وما هي؟

قال: زوجت ابنتها، وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلتها الذهب والفضة، وكستها المروي، والوشي والقز، والخز، وعلقت المعصفر، ودقت الطيب، وعظمت أمرها في عين الختن، ورفعت من قدرها، عند الإحماء. فقال لها زوجها: أنى لك هذا يا مريم؟

– هو من عند الله.

– دعي عنك الجملة وهاتي التفسير. والله، ما كنت ذات مال قديماً، ولا ورثته حديثاً، وما أنت بخائنة في نفسك، ولا في مال بعلك، إلا أن تكوني قد وقعت على كنز. وكيف دار الأمر فقد أسقطت عني مؤونةً، وكفيتني هذه النائبة.

– اعلم أني منذ يوم ولدتها، إلى أن زوجتها، كنت أرفع من دقيق كل عجنةٍ، حفنة. وكنا، كما قد علمت، نخبز في كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك، بعته.

---

* شيخ آخر يتكلم.

– ثبَّت الله رأيك وأرشدك. ولقد أسعد الله من كنت له سكناً، وبارك لمن جُعلت له إلفاً.

*

البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن.

وإن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة، كحاجته إلى الجلالة والفخامة.

وإن ذلك من أكبر ما تُسْتمال به القلوب، وتنثني إليه الأعناق، وتزيّن به المعاني.

*

المعاني القائمة في صدور العباد، المتصورة في أذهانهم، والمخالجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة.

لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره.

وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها.

وهذه الخصال هي التي تُقرّبها من الفهم، وتُجَلِّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً.

وهي التي تخلّص الملتبس موسوماً، والموسوم معلوماً.

وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى.

*

(...) حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية،
وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة.

*

قالوا: البيان بصر، والعيّ عمى،
كما أن العلم بصر، والجهل عمى،
والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل.

*

ليس لمنقوص البيان بهاء، ولو حَكّ بيافوخه أعنان السماء.

*

شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله.

*

البيان عماد العلم.

*

أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه.
فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة.

*

قالوا: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب،
وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

*

(...) اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد، والدنيء الساقط، يعشش في القلب ثم يبيض، ثم يفرخ.

فإذا ضرب بجرانه، ومكّن لعروقه، استفحل الفساد.

فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه.

لأن الفساد أسرع إلى الناس، وأشد التحاماً بالطبائع. والإنسان يجود لفظه، ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير.

*

إذا كان الحب يعمي عن المساوئ، فالبغض يعمي عن الحقائق والمحاسن.

وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ومحصول حدود لطائف الأمور، إلا عالم حكيم، أو معتدل الأخلاط عليم، وإلا القوي المنة، الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكثر.

*

حق المعنى أن يكون الإسم له طبقاً، وتكون الحال له وفقاً.

ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ولا مقصراً ولا مشتركاً، ولا مضمناً،

ولا يكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أوَّلَ كلامِه،

ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده،

ويكون لفظه مؤنقاً، ولهول تلك المقامات معاوداً.

ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وإن تواتيه آلته وتتصرف معه أداته،

ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بها مقتصداً.

فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين.

وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها أمنها، فأودعها تهاون الآمنين.

ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوَهن ولكل وهَن مقدار من الجهل.

*

قد يكون للرجل طبيعة في الحساب، وليس له طبيعة في الكلام.

ويكون له طبيعة في التجارة، وليس له طبيعة في الفلاحة.

ويكون له طبيعة في الحداء، أو في التعبير أو في القراءة بالألحان، وليس له طبيعة في الغناء.

*

من تمنى رجلاً حَسَن العقل، وحسن اللسان، وحسن القلم، تمنى شيئاً عسيراً.

*

(...) فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم قولاً متعشقاً، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملأ.

والمعاني إذا كُسيت الألفاظ الكريمة، وأُلبست الأوصاف الرفيعة، تحوّلت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وعلى حسب ما زخرفت.

فقد صارت الألفاظ في معنى المعارض*، وصارت المعاني في معنى الجواري،

---

* المعارض: الملابس الحسنة.

والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي.

*

أحق الناس بالرحمة: عالم يجري عليه حكم جاهل.

*

الحاجة إلى القول والعمل، أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكون.

*

إذا ترك الإنسان القول، ماتت خواطره، وتبلّدت نفسه، وفسد حسه.

*

علِّم علمك، وتعلّم علم غيرك، فإذا أنت قد علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت.

*

اجعل تعليمك دراسة لعلمك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيهاً لك على ما ليس عندك.

*

(...) ولم تر العيون، ولا سمعت الآذان، ولا توهمت العقول عملاً اجتباه ذو عقل، أو اختاره ذو علم بأوبأ ولا أفسد لعِرض، ولا أوجب لسخط الله، ولا أدعى إلى مقت الناس، ولا أبعد من الفلاح، ولا أظهر نفوراً عن التوبة، ولا أقل إدراكاً عن الحقيقة، ولا أنقص للطبيعة، ولا أمنع من العلم، ولا أشد خلافاً على الحلم، من التكبر في غير موضعه، والتنبل في غير كنهه،

وما ظنك بشيءٍ العجب شقيقه، والبذخ صديقه، والتنفّج أليفه، والصلف قعيده؟

والبذّاخ متزيد، والنفّاج كذاب، والمتكبر ظالم، والمعجب صغير النفس،

وإذا اجتمعت هذه الخِلال، وانتظمت هذه الخصال في قلبٍ، طال خرابه، واستغلق بابه. وشر العيوب ما كان مضمناً بعيوب، وشر الذنوب ما كان علة الذنوب.

*

(...) من فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال،

وأن الجِّد لا يكون إلا من فضل حاجة، والمزح لا يكون إلا من فضل غِنى،

وأن الجد غضب، والمزح جمام،

والجد مبغضة، والمزح محبة.

وصاحب الجد في بلاءٍ ما كان فيه، وصاحب المزح في رخاء إلى أن يخرج منه.

والجد مؤلم وربما عرّضك لأشد منه، والمزح ملذ وربما عرّضك لألذ منه. فقد شاركه في التعريض للخير والشر، وباينه بتعجيل الخير دون الشر.

وإنما تشاغل الناس ليفرغوا، وجدوا ليهزلوا. كما تذللوا ليعزوا، وكدوا ليستريحوا وإن كان المزح إنما صار معيباً، والهزل إنما صار مذموماً، لأن صاحبه لا يكون إلا معرضاً لمجاوزة القدر، ومخاطراً بمودة الصديق.

فالجد داعية إلى الإفراط، كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر.

وتجاوز الحدِّ قاطع بين القرينين في جميع النوعين فقد ساواه المزاح فيما هو له، وباينه فيما ليس له.

وإن كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد، فأقبح من المزح ما صيّر المزح قبيحاً.

وإذا صار المزح قبيحاً، لأن الذي يكون بعده الجد، ولم يصيِّر الجد قبيحاً، لأن الذي بعده المزح، كان الجد في هذا الوزن أقبح من المزح، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد، لأن ما جعل الشيء قبيحاً أقبح من الشيء، كما أن ما جعل الشيء حسناً أحسن من الشيء.

*

سماع الألفاظ ضارٌّ نافع. فالوجه النافع أن يدور في مسامعه، ويغيب في قلبه، ويُختم في صدره. فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت، فكانت

نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة، ولا مختلسة ولا مغتصبة، ولا دالة على فقر، إذ لِمَ القصد إلى شيءٍ بعينه، والاعتماد عليه دون غيره،

وبين الشيء إذا عشش في الصدور ثم باض، ثم فرّخ، ثم نهض، وبين أن يكون الخاطر مختاراً، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً،

فرق بيِّن.

*

(...) إذا تمشّى* في عظامك والتبس بأجزائك، ودبَّ في جنانك،

منحك صدق الحس وفراغ النفس، وجعلك رخيَّ البال، خليَّ الذراع، قليل الشواغل، قرير العين واسع الصدر، فسيح الهم، حسن الظن.

ثم سدَّ عليك أبواب التهم، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم، وكفاك مؤونَة الحراسة، وألمَ الشفقة، وخوفَ الحدثان، وذُلَّ الطمع، وكدَّ الطلب، وكلَّ ما اعترض السرور وأفسد اللذة، وقاسم الشهوة وأخلَّ بالنعمة.

وهو الذي يرد الشيوخ في طبائع الشبان، ويرد الشبان في نشاط الصبيان.

وليس يخاف شاربه إلا مجاوزة السرور إلى الأشَر، ومجاوزة الأشر إلى البطَر.

ولو لم يكن من أياديه ومننه، ومن جميل آلائه ونعمه، إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك، وتزاوج بينه وبين دمك، فقد أعفاك من الجد ونصبه، وحبَّب إليك المزاح والفكاهة، وبغّض إليك الاستقصاء والمحاولة، وأزال عنك تعقد الحشمة، وكدَّ المروءة، وصار يومه جماماً لأيام الفكرة وتسهيلاً لمعاودة الروية،

---

* الكلام على النبيذ. كلام يحبب الخمرة حتى لمن حرمها على نفسه.

لكان في ذلك ما يوجب الشكر ويُطنب الذكر.

*

الضّفدع

(...) الضّفدع لا يصيح ولا يمكنه الصّياحُ حتى يُدخلَ حنكه الأسفل في الماء. فإذا صار في فمه بعض الماء، صاح.

والضّفادع تنقّ، فإذا أبْصرتِ النّار أمْسَكت.

والضّفادع من الحيوان الذي يُخلق في أرحام الحيوان، وفي أرحام الأرْضِين، إذا ألْقَحَتْها المياه.

وفيها أعجوبة أخرى: وذلك أنّا نَجِدُ من كِبارها وصِغارِها الذي لا يُحْصَى في غِبّ المطر، إذا كان المطر ديمةً. ثم نجدها في المواضع التي ليس بقربها بَحْرٌ ولا نَهر، ولا حوضٌ ولا غدير، ولا وادٍ ولا بئر. ونجدها في الصّحاصح الأماليسِ، وفوق ظهور مساجد الجماعة، حتى زعَم كثيرٌ من المتكلفين، ومن أهل الخسارة مِمّن لا يحتفل بسوءِ الحال عند العلماء، ولا يكترث لِلشَكّ، أنّها كانت في السّحاب ...

*

وتزعم الأعرابُ أنّ الضّفدعَ كان ذا ذنَبٍ، وأنّ الضَّبَّ سَلبَه إيّاه. ويقول آخرون إنّ الضّفدع إذا كان صغيراً كان ذا ذنَبٍ، فإذا خَرجت له يدانِ أو رِجْلانِ، سقط.

*

ولا أدري ما هَيّجَ مسيلمة على ذكرها، وَلِمَ سَاءَ رأيهُ فيها، حيث جعل بِزَعْمهِ في ما نَزلَ عليه من قرآنه: يا ضفدعُ نِقّي، كم تَنقّينَ، نِصفُكِ في الماء، ونصفكِ في الطين، لا الماءَ تكدّرين، ولا الشّاربَ تمنعين.

*

(...) وأما القول في الهدهد فإن العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التي على رأسه ثوابٌ من الله، على ما كان من برّه لأمه، لأن أمه لمّا ماتت جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوضٌ عن تلك الوهدة.

والهدهد طائرٌ مُنتِن الريح والبدن من جوهره وذاته. فربَّ شيء يكون مُنتناً من نفسه من غير عرض يعرض له كالتيوس والحيات ... فأما الأعراب فيجعلون ذلك النَّتن شيئاً خامَره بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونة في رأسه.

ويزعمون أن الهدهد هو الذي كان يدلّ سليمان على مواضع المياه في قعور الأرضين، إذا أراد استنباط شيء منها ... فالهدهد إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء.

*

عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة. وجاهي أرق من الزجاج، ووجهي عند الناس أشد سواداً من الحبر بالزّاج. وحظي أخفى من شق القلم، وجسمي أضعف من قصبة. وطعامي أمضّ من الحبر، وشرابي أمرّ من العفص. وسوء الحال ألزم بي من الصَمْغ*.

*

- ما لك لا تنُفقٍ، فإنّ مالكَ عَريض؟
- الدّهر أعرض منه.
- كأنك تأملُ أن تعيش الدّهرَ كله؟
- ولا أخاف أن أموتَ في أوله.**

*

* أحد الورّاقين برواية الجاحظ.

** حوار بين خالد بن صفوان ورجل بخيل.

– قد رضيتَ بقول الناس: عبد الله بخيل.*

– لا أعْدَمني الله هذا الاسم.

– كيف؟

– لأنه لا يقال فلانٌ بخيلٌ إلا وهو ذو مال. فَسلم لي المال، وادْعُني بأيّ اسم شئت.

– ولا يقال سخيّ إلا وهو ذو مال، فقد جمعَ هذا الإسمُ المالَ والحمدَ وجمع هذا الإسم المالَ والذمّ.

– بينهما فرق.

– هاته.

– في قَولهم بَخيلٌ، تثبيتٌ لإقامة المال في ملكه. وفي قولهم سخيٌّ إخبارٌ عن خروج المال عن ملكه. وإسم البخل إسمٌ فيه حزمٌ وذمّ. وإسمُ السّخاء اسمٌ فيه تضييعٌ وحمد. والمالُ راهنٌ نافعٌ ومكرمٌ لأهله مُعزٍ.

*

وقال إبراهيم بن السنديّ مرة**: ودِدْتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبرِ الأسودِ المشرِقِ البرَّاق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ،

فإنِّي لم أرَ كورَق كتبِهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطاً.

وإذا غرِمتُ مالاً عظيماً، مع حبِّي للمال وبُغْضِ الْغُرْم، كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيمِ العلمِ، وتعظيمُ العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامَة من سُكْر الآفات.

قلت لإبراهيم***: إنّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البِيَع،

---

* الجاحظ في حوار مع بخيل.

** الجاحظ يروي نقلاً عن إبراهيم بن السندي.

*** يعني أن الجاحظ قال لإبراهيم النظّام.

ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حكمٍ وكتبَ فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ وتبيُّنٍ وتبيين،

أو لو كانت كتُبهم كتباً تُعرِّف الناسَ أبوابَ الصِّناعات، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات، أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضاتٍ، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن والآداب.

وإنْ كان ذلك لا يقرِّب من غِنىً ولا يُبْعِد من مأثَم، لكانوا ممَّن قد يجوز أن يُظَنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في التبيُّن، ولكنَّهم ذهبوا فيها مذهبَ الدِّيانة، على طريق تعظيم المِلّة،

فإنّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاقِ النصارَى على صُلْبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سدَنِة البِدَدَة.

ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرضاً، وكتبُ الحكمة لهم مبذولةً، والطرقُ إليها سهلةً معروفة. فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتُب دياناتهم، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم؟

ولو كان هذا المعنى مستحسَناً عند المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعية إلى العبادة، وباعثة على الخُشوع، لبلَغُوا في ذلك بعَفْوهم، ما لا تبلَغُه النصارى بغاية الجهْد.

*

وأقول: لولا الخطوطُ لبَطلت العهودُ والشروطُ والسِّجِلاَّتُ والصِّكاك، وكلُّ إقطاعٍ، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلُّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ جوار وحِلف. ولِتعظيم ذلك، والثقةِ به والاستنادِ إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهليَّةِ مَنْ يكتب لهم ذكر الحِلْف والهُدْنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان.

*

وأما الشِّعرُ فحديثُ الميلاد، صغيرُ السنِّ، أوّلُ من نَهَجَ سبيلَه، وسهَّل الطريقَ إليه: امرؤ القيس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بنُ ربيعة. وكُتُبُ

أرِسطاطاليسَ، ومعلِّمِه أفلاطون، ثم بَطْلَيموس، وديمقراطس، وفلان وفلان، قبلَ بدء الشعر بالدهور قبلَ الدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب.

وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب، وعلى من تكلَّم بلسان العرب، والشعر لا يُستطاع أن يترجَم، ولا يجوز عليه النقل،

ومتى حوّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه، وذهب حسنُه وسقطَ موضعُ التعجب، لا كالكلامِ المنثور.

والكلامُ المنثور المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر.

*

وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كلِّ ما أقام لهم المعاشَ وبوَّب لهم أبوابَ الفِطَن، وعرَّفهم وجوهَ المرَافق؛

حديثُهم كقديمهِم، وأسودُهم كأحمرِهم، وبعيدُهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملةٌ لهم.

*

وقد نُقلَتْ كتبُ الهند، وتُرجمت حكمُ اليونانيّة، وحُوِّلت آدابُ الفرس؛ فبعضُها ازدادَ حُسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً،

ولو حُوِّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن؛

مع أنَّهم لو حوَّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكرْه العجم في كتبهم، التي وُضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكَمهم.

وقد نُقِلَتْ هذه الكتبُ من أمَّةٍ إلى أُمَّةٍ، ومن قَرن إلى قرن، ومِن لسانٍ إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنَّا آخرَ مَنْ ورِثها ونظرَ فيها.

فقد صحَّ أنَّ الكتبَ أبلغَ في تقييدِ المآثِر، من البُنيان والشعر.

*

اعلمْ* أنَّ المصلحةَ في أمرِ ابتداء الدنيا إلى انقضاء مُدَّتها امتزاجُ الخيرِ بالشرِّ، والضارِّ بالنافع، والمكروهِ بالسارِّ، والضَّعَةِ بالرِّفعة، والكَثرة بالقِلَّة. ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلَكَ الخلقُ، أو كان الخيرُ مَحْضاً سقَطت المِحْنة وتقطَّعَتْ أسبابُ الفِكرة، ومع عَدَم الفِكرةِ يكون عَدَمُ الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالِمِ تثبُّتٌ وتوقُّف وتعلُّم، ولم يكن علم، ولا يُعرف بابُ التبيُّن، ولا دفعُ مضرةٍ، ولا اجتلابُ منفعة. ولا صَبْر على مكروهٍ ولا شكْرٌ على محبوب. ولا تفاضُلٌ في بيانٍ. ولا تَنَافس في درجةٍ. وبطلَت فَرحةُ الظَّفَر وعزُّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزَّ الحق، ومُبْطِلٌ يجد ذِلَّة الباطل، وموقنٌ يجد بَرْدَ اليقين، وشاكٌّ يجد نقصَ الَحيرةِ وكَرْبَ الوُجوم،

ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تتشعَّبْهَا الأطماع.

ومَن لم يعرف كيف الطَّمعُ لم يعرِفِ اليأس،

ومن جَهِل اليأسَ جهِلَ الأمن،

وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياءُ والأولياءُ، إلى حال السبُعِ والبهيمة، وإلى الغباوةِ والبلادة، وإلى حال النجوم في السُّخْرة؛

فإنها أنقص من حالِ البهائم في الرَّتْعَةِ.

ومَنْ هذا الذي يسرُّه أن يكون الشمسَ والقمرَ والنَّارَ والثلج، أو برجاً من البروج أو قطعةً من الغيم؛ أو يكونَ المجرَّةَ بأسْرها، أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء؟

وكلُّ شيء في العالم فإنما هو للإنسان ولكلِّ مختبَر ومُختَار، ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبيُّن والرويَّة.

* من كلام له على أنّ مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشرّ.

وأين تقَعُ لَذَّة البهيمة بالعُلُوفة، ولذَّة السبع بلَطع الدَّمِ وأكل اللحم، مِن سرورِ الظَّفر بالأعداء؛ ومِن انفتاحِ بابِ العلم بعد إدْمان القَرْع؟

وأين ذلك من سرورِ السُّؤدَد ومن عزِّ الرياسة؟ وأين ذلك من حال النُّبوّةِ والخِلافة، ومِن عزّهِما وساطعِ نورهما؟

وأينَ تقعُ لذَّةُ دَرْك الحواسِّ الذي هو ملاقاةُ المطعَم والمشرب، وملاقاةُ الصوتِ المُطرِبِ واللونِ المونق، والملمسة الليِّنة، مِن السرور بنَفاذ الأمرِ والنَّهي، وبجواز التوقيع وبما يُوجب الخاتَمُ من الطاعة ويُلزِم من الحجَّة؟

ولو استوَت الأمور بطلَ التمييزُ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مَثوبة، ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرةُ التوكُّلِ على الله تعالى، واليقينِ بأنَّه الوَزَرُ والحافظ، والكالئ والدافع، وأنَّ الذي يحاسِبُك أجْوَدُ الأجْوَدِين، وأرحَمُ الراحمين، وأنه يقبلُ اليسيرَ ويَهَبُ الكثير، ولا يهلِك عليه إلا هالك.

ولو كان الأمرُ على ما يشتهيه الغَرير والجاهلُ بعواقبِ الأمور، لبطلَ النَّظَرُ وما يشحذ عليه، وما يدعو إليه، ولتعطَّلت الأرواحُ من معانيها، والعقولُ من ثِمارها، ولعَدِمت الأشياء حظوظَها وحقوقَها.

فسبْحَان من جعل منافعَها نعمةً، ومضارَّها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسّمها بين مُلِذٍّ ومُؤلم، وبين مؤنِسٍ ومُوحش، وبين صَغيرٍ حقير وجليل كبير، وبين عدوٍّ يرصُدُك وبين عقلٍ يحرسك، وبين مُسَالمٍ يَمْنَعُكَ، وبين مُعينٍ يعضُدك، وجعَل في الجميع تمامَ المصلحة، وباجتماعها تتمُّ النعمة، وفي بطلانِ واحدٍ منها بُطلانَ الجميع، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً.

فإنّ الجميع إنَّما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضُمَّ إليهما، ولأنّ الكلَّ أبعاضٌ، ولأنّ كلَّ جثّةٍ فمن أجزاء، فإذا جوَّزتَ رفْعَ واحدٍ والآخرُ مثلُه في الوزن وله مثلُ علَّتِه وحظِّه ونصيبِه، فقد جوَّزْتَ رفعَ الجميع؛ لأنّه ليس الأوّلُ بأحقَّ من الثاني في الوقت الذي رجوتَ فيه إبطالَ الأوَّل، والثاني

كذلك والثالث والرابع، حتَّى تأتي على الكلِّ وتستفرغ الجميع. كذلك الأمورُ المضمَّنة والأسباب المقيَّدة؛

ألا ترى أنَّ الجبلَ ليس بأدلَّ على الله تعالى مِنْ الحصاة،

وليس الطاووسُ المستحسنُ بأدَلَّ على الله تعالى مِنْ الخِنزير المستقبح. والنارُ والثلج، وإنْ اختلفا في جِهَة البرودة والسُّخونة، فإنَّهما لم يختلفا في جهة البرهان والدَّلالة.

وأظنُّك مِمَّن يرى أنَّ الطاووسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب، وأن التُّدْرُجَ أعزُّ على الله تعالى من الحِدَأةِ، وأنّ الغزالَ أحبُّ إلى الله تعالى من الذئب.

فإنَّما هذه أمور فرّقها الله تعالى في عيون الناس، وميزَّها في طبائع العباد، فجعَلَ بعضها بهم أقربَ شبهاً، وجعل بعضها إنسيَّاً، وجعل بعضَها وحشيًّا، وبعضها غاذِياً، وبعضها قاتلاً،

وكذلك الدُّرَّة والخرَزة والثمرة والجَمرة.

فلا تَذْهَبْ إلى ما تريك العينُ، واذهَبْ إلى ما يريك العقل.

*

وللأمور حكمان: حكم ظاهرٌ للحواس، وحكم باطنٌ للعقول،

والعقل هو الحجَّة.

وقد علمْنا أنَّ خَزَنَة النارِ من الملائكة، ليسوا بدون خزَنَةِ الجنَّة؛

وأنَّ ملك الموت ليس بُدونِ ملَكِ السَّحاب، وإن أتانا بالغَيث وجلب الحيَاء؛

وجبريلُ الذي يَنْزِل بالعذاب، ليسَ بدونِ مِيكائيل الذي ينزِل بالرحمة؛ وإنَّما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقاتِ ذلك ومواضعه. والاختلاف بين أصحابنا أنّهم إذا استووا في المعاصي استَوَوا في العقاب،

وإذا استَووا فـي الطاعـة استووا فـي الثـواب، وإذا اسـتووا فـي عـدم الطاعـة والمعصية استووا في التفضل.

هذا هو أصل المقالة، والقُطْب الذي تدورُ عليه الرحى.

*

ولو وقفْتَ على جَناحِ بَعوضةٍ وُقوفَ معتبرٍ، وتأمَّلتَه تأمُّلَ متفكر بعد أن تكـون ثاقـبَ النظـرِ سـليمَ الآلـة، غوَّاصـاً علـى المعـاني، لا يعتريـك مـن الخـواطر إلا علـى حسـب صـحَّةِ عقلـك، ولا مـن الشـواغل إلا مـا زادَ فـي نشاطِك،

لملأت ممَّا تُوجِدك العِبرةُ من غرائـب، الطوامير الطِّوال، والجلود الواسـعة الكِبار،

ولرَأيتَ أنَّ لـه من كثرة التصرُّف في الأعاجيب، ومن تقلُّبـه في طبقات الحكمة،

ولرأيتَ له من الغُزْر والرَّيع، ومن الحلَب والدَّرِّ.

*

فأمَّا الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيَّار النظام، فإنّا خرجنا ليلة في بعض طرقات الأبُلَّة، وتقدَّمتُه شيئاً، وألـح عليه كلبٌ من شكل كـلاب الرِّعـاء، وكـره أن يعـدوَ فيغريَـه ويُضَـرِّيه، وأنـف أيضـاً مـن ذلـك، وكـانَ أنِفـاً شديدَ الشَّكيمةِ أبَّاء للهَضيمة، وكرِه أن يجلسَ مخافةَ أن يشـغَر عليه أو لعلَّـه أن يعضَّه فيَهْرِتَ ثوبَه، وألحَّ عليه فلم ينله بسوءٍ.

فلمَّا جُزْنـا حدَّه وتخلّصـنا منـه، قـال إبـراهيم فـي كـلامٍ لـه كثيـر، يعدِّد خصالَه المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال:

إن كنـت سَبُعْ فاذهبْ مـع السِّبـاع، وعليك بـالبرارِي والغيـاض، وإن كنـت بَهيمة فاسكتْ عنَّا سكوت البهائم!

ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقولٍ ملحون. من قولي: «إن كنت سَبْع» ولم أقل «إن كنت سبعاً»!

*

وكان يقال: يُستَدَلُّ على نباهة الرَّجلِ من الماضين بتَبَايُنِ الناس فيه.

وقال: ألا ترى أنَّ علياً، رضي الله تعالى عنه، قال: يَهلك فيَّ فئتان: محبٌّ مُفْرِط، ومبغض مُفرط.

وهذه صفة أنبَهِ الناس، وأبعدِهم غايةً في مراتب الدِّين وشرَفِ الدنيا.

وإذا كان الرجلُ أبرعَ الناس بَراعةً، وأظهَرهم فضلاً، وأجمعهم لخصال الشرف،

ثمَّ كانت كلُّ خَصلةٍ مساويةً لأختها في التَّمامِ، ولم تغلِب عليه خَصلة واحدة،

فإنَّ هذا الرَّجلَ لا يكادُ يوصف إلاَّ بالسيادة والرياسة خاصّة إذا لم يكن له مسندٌ عما يكون هو الغالب عليه.

*

وقد قال مثلَ الذي وصَفنا جعفرٌ الضبّيُّ في الفضل بن سهل*:

أيُّها الأمير أسْكَتِني عن وَصفك تَساوِي أفعالك في السُّؤدَد.

وحيَّرني فيها كثرَةُ عددها، فليسَ إلى ذكر جميعها سبيل.

وإن أردتُ وَصفَ وَاحدةٍ اعترضَتْ أختها، إذْ لم تكن الأولى أحقَّ بالذكر.

ولست أصفُها إلا بإظهار العَجْز عن وَصفها.

*

* الفضل بن سهل السرخسي. كان وزيراً للمأمون.

خبث الثعلب

وحدَّثني صديقٌ لي قال: تعجَّبَ أخٌ لنَا من خُبث الثَّعلب، وكان صاحبَ قَنص، وقالَ لي: ما أعجب أمر الثعلب! يفصل بين الكلب والكلَّاب، فيحتالُ للكَلَّاب بما يعلم أنّه يَجوز عليهِ، ولا يحتال مثل تلك الحيلة للكلب؛ لأنّ الكلب لا يَخفى عليه الميِّت من المغشيِّ عليه. ولا ينفع عنْدَه التَّماوُت. ولذلك لا يُحمل مَن مات من المجوس إلى النَّار حتى يُدْنَى منه كلبٌ؛ لأنّه لا يَخفى عليه مغْمُور الحِسِّ أحَيٌّ هُوَ أو ميت. وللكلب عند ذلك عملٌ يستَدِلُّ بِهِ المجوس.

قال: وذلك أنِّي هَجَمْتُ على ثعلبٍ في مَضيق، ومعي بُنَيٌّ لي، فإذا هو ميِّتٌ منتفِخٌ، فصدَدْت عنه، فلم ألبَثْ أن لحِقتني الكلاب،

فلمَّا أحسَّ بها وثَب كالبرق، بعد أن تحايَدَ عن السَّنن،

فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فِعلِه معروفٌ، هو أنْ يستلقيَ وينفخَ خواصرَه، ويرفعَ قوائمه، فلا يشكُّ مَن رآه من الناس أنَّه ميِّت منذُ دهر،

وقَدْ تَركَّزَ بالانتفاخِ بدنُه، فكنتُ أتعجَّب مِنْ ذلك، إذْ مررْتُ في الزُّقاق الذي في أصل دار العبّاسيّة ومنفَذه إلى مازن، فإذا جرو كلبٍ مهزولُ سَيْئُ الغذاء، قد ضربه الصِّبيان وعقروه ففرَّ منهم ودخل الزُّقاق، فرمى بنفسه في أصل أُسطُوانة وتبِعوه حتَّى هَجَمُوا عليه،

فإذا هو قد تَماوَتَ فضربوه بأرجلهم فلم يتحرَّكْ فانصرفوا عنه.

فلمَّا جاوَزُوا تأمَّلت عينَه فإذا هو يفتَحُها ويُغمِضها.

فلمَّا بعدوا عنه وأمِنَهم عدَا، وأخذَ في غير طريقهم فأذهَبَ الذي كان في نفسي للثَّعلب؛ إذ كان الثَّعلب ليس فيه إلاَّ الرَّوَغان والمكر، وقد ساواه الكلبُ في أجودِ حِيلِهِ.

*

ولكلِّ ضربٍ من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ،

ولكلِّ نوعٍ من المعاني نوعٌ من الأسماء: فالسَّخيفُ للسخيف، والَخفِيفُ للخفيف، والَجزلُ للجَزل، والإفصاحُ في مَوضع الإفصاح، والكِنايةُ في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال.

وإذا كان مَوْضِعُ الحديثِ على أنَّهُ مُضْحِكٌ ومُلْهٍ، وداخِلٌ في باب المزَاح والطِّيب، فاستعْمَلتَ فيه الإعراب، انقَلَبَ عَن جهَتِه،

وإن كان في لفظه سُخْف وأبْدَلْتَ السَّخافَة بالَجزالة، صارَ الحديثُ الذي وَضِع على أنْ يسُرَّ النُّفوسَ يُكْربُها، ويَأْخْذ بِأكظامها.

*

والأُسْدُ إذا أكثَرتْ مِن حَسْوِ الدِّماء، والدِّماءُ حلوةٌ، وأكلِ اللحْم واللحمُ حلو، طلبت المِلْحَ لتتملّحَ به، وتجعلَه كالحمْض بعدَ الخُلّة.

ولولا حُسنُ موقعِ المِلْح لم يُدخْله الناسُ في أكثرِ طعامهم.

والأسَدُ يخرج للتملُّح، فَلاَ يزالُ يسيرُ حتّى يجِدَ مَلاَّحة.

وربَّما اعتادَ الأسَدُ مكاناً فيجده ممنوعاً، فلا يَزَالُ يقطَعُ الفراسِخَ الكثيرَةَ بَعدَ ذلك فإذا تملَّح رجع إلى موضعِهِ وغَيْضَتِه وعَرينِه، وغابه وعِرِّيسته، وإن كان الذي قَطَع خمسين فرسخاً.

*

والتخبيل ضروب:

تخبيلٌ من المِرَار، وتخبيل من الشّيطان، وتخبيل آخر كالرجل يعمِد إلى قَلبٍ رَطْبٍ لم يتوقّح، وذهن لم يستمِرَّ فَيَحْمِله على الدقيق وهُو بَعْدُ لا يفي بالجليل، ويتخطّى المقدِّمات متسكِّعاً بلا أمَارة، فرجَع حَسيراً بلا يقين، وغَبرَ زَمَاناً لا يعرف إلا الشكوك والخواطرَ الفاسدة، التي متى لاقت القلبَ على هذه الهيئة، كانت ثمرتها الحيرة، والقلبُ الذي يفسُد في يومٍ لا يداوَى في سنة، والبناءُ الذي يُنقَضُ في ساعةٍ لا يبنى مثله في شهر.

*

عذاب الحيوان والأطفال

وقد اختلف النَّاس في تأويل قوله*: «والذباب في النار».

وقال قوم: الذباب خلقٌ خُلق للنار، كما خلق الله تعالى نَاساً كثيراً للنَّار، وخلق أطفالاً للنَّار. فهؤلاء قومٌ خلعوا عُذَرَهم فصارَ أحدهم إذا قال: ذلك عَدْلٌ من الله عزَّ وجل، فقد بلغ أقصى العذر،

ورأى أنَّه إذا أضاف إليه عذابَ الأطفال فقد مجَّده.

ولو وجد سبيلاً إلى أن يقول إنَّ ذلك ظلمٌ لقالَهُ.

ولو وجد سبيلاً إلى أن يزعم أنَّ الله تعالى يخبرُ عن شيءٍ أنّه يكون وهو لا يكون، ثم يقول إلاَّ أنّ ذلك صدق لقالَهُ.

إلاّ أنّه يخاف السَّيف عند هذه، ولا يخاف السَّيف عند تلك. وإن كانت تلكَ أعظمَ في الفِريةِ من هذه.

وبعضهم يزعُم أنَّ الله عزَّ وجلَّ إنَّمَا عذّبَ أطفالَ المشركين ليغمَّ بهم آباءهم.

ثمَّ قال المتعاقِلون منهم: بل عذّبهم لأنّه هكذا شاء، ولأنَّ هذا له.

فليت شعري أَيُحتسب بهذا القول في باب التمجيد لله تعالى، لأنّ كل من فعل ما يقدر عليه فهو محمود، وكل من لم يخف سوطَ أمير فَأتى قبيحاً فالذي يحسن ذلك القبيحَ أن صاحبَه كان في موضع آمن، أو لأنّه آمن يمتنع عن مطالبة السلطان. فكيف وكون الكذب والظُّلم والعبث واللهو والبُخْل كلِّه محال ممّن لا يحتاج إليه، ولا تدعوه إليه الدواعي؟

وزعم أبو إسحاقَ* أنّ الطّاعات إذا استوَتْ استوى أهلها في الثَّواب، وأنّ المعاصيَ إذا استوتْ استوى أهلُها في العقاب. وإذا لم يكن منهم طاعةٌ ولا معصية استَوَوْا في التفضُّل.

---

* يعني رسول الله محمد (ص)، حيث قال: «عمر الذباب أربعون يوماً. والذباب في النّار».

وزعم أنَّ أجناس الحيوان وكلَّ شيء يحسُّ ويألم، في التفضُّل سواء.

وزعم أنّ أطفالَ المشركين والمسلمينَ كلَّهم في الجنّة. وزعم أنّه ليس بينَ الأطفالِ ولا بينَ البهائم والمجانين فرق، ولا بين السِّباع في ذلك وبين البهائم فرق.

وكان يقول: إنّ هذه الأبدان السبُعيّة والبهيمية لا تدخل الجنّة، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ ينقُل تلك الأرواحَ خالصةً من تلك الآفات، فيركِّبها في أيِّ الصُّور أحَبَّ.

*

وكان أبو كلدة، ومَعْمَر، وأبو الهذَيل، وصحصح**، يكرهون هذا الجواب، ويقولون: سواءٌ عند خواصّنا، وعوامّنا، أقلنا: إنَّ أرواحَ كلابنا تصير إلى الجنّة، أم قلنا: إنَ كلابنا تدخل الجنّة.

ومتى ما اتَّصل كلامُنا بذكر الكلب على أيِّ وجهٍ كان؛ فكأنّا عِنْدَهم قد زعمنا أنّ الجنّة فيها كلاب. ولكنّا نزعم أنّ جميع ما خلَقَ الله تَعالى مِنَ السِّباع والبهائم والحشَرات والهمج فهو قبيح المنظرة مؤلم، أو حسن المنظرةِ مُلِذّ؛

فما كان كالخيل والظباء، والطواويس، والتُدَارِج فإنَّ تلك في الجَنّة، ويَلَذُّ أولِياءُ الله عَزَّ وجلَّ بَمناظرها.

وما كان منها قَبِيحاً فِي الدُّنيا مؤلِمَ النظَر جعله الله عذاباً إلى عذاب أعدائه في النَّار.

فإذا جاء في الأثر: أنَّ الذّباب في النار، وغير ذلك من الخلق، فإنَّما يراد به هذا المعنى.

---

* يعني أبا إسحاق النظّام.

** كان هؤلاء جميعاً من المتكلّمين.

وذهب بعضهم إلى أنها تكون في النَّار، وتلَذُّ لذلك، كما أنَّ خَزَنَةَ جهنّمَ والذين يتولَّون من الملائكة التَّعذيبَ، يلذُّون موضعَهم من النار.

وذهب بعضهم إلى أنَّ الله تعالى يطبَعهُم على استلذاذ النَّار والعيشِ فيها، كما طبع ديدان الثَّلج والخلِّ على العيش في أماكنها.

وذهب آخرون إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ يحدث لأبدانهما علَّةً لا تصل النّار إليها، وتنعم قلوبهما وأبدانهما من وجه آخر كيف شاء.

وقالوا وقد وجدْنا النّاسَ يحتالون لأنفسهم في الدُّنيا حِيلاً، حتى يدخُل أحدُهم بَعضَ الأتاتين بذلك الطلاء، ولا تضرُّه النار، وهو في معظمها، وموضع الجاحم منها. ففضْلُ ما بينَ قدرةِ الله وقدرة عباده أكثر من فضل ما بينَ حَرِّ نار الدُّنيا والآخرة.

وذَهب بعضهم إلى أنَّ سبيلها فيها كسبيل نار إبراهيم؛ فإنّه لما قُذِف فيها بَعَثَ الله عزَّ وجلَّ مَلكاً يقال له ملك الظلِّ، فكان يحدِّثه ويُؤْنسه، فلم تصل النار إلى أذاه، مع قرْبِه من طباع ذلك الملَك.

وكيفَمَا دار الأمر في هذه الجَوابات؛ فإن أخسَّها وأشْنَعها أحسَنُ مِن قَولِ مَنْ زَعمَ أنّ الله تَعالى يُعَذِّب بنار جهنَّمَ من لم يسخطه ولا يَعْقِلُ كيف يكون السخط.

ومن العَجَب أنَّ بَعضُهمْ يزعمُ أن الله تعالى إنما عذبه ليغمَّ أباهُ.

وإنما يفعل ذلك من لا يقدر على أن يُوصِلَ إليهم ضعف الاغتمام، وضعف الألم الذي ينالهم بسبب أبنائهم.

فأمّا مَن يقدِرُ على إيصال ذلك المقدارِ إلى من يستحقّه، فكيف يوصله ويصرفه إلى من لا يستحقّه؟ وكيف يصرفه عمّن أسخطه إلى من لم يُسْخطه؟

*

وكيف حال النَّار في حسنها، فإنه ليس في الأرض جسم لم يصبغ أحسن منه.

ولَولاَ معرفتُهمْ بقتْلها وإحْراقِها وإتلافها، ولولا الألم والحُرْقةِ المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحُسْن عِنْدَهُمْ. وإنَّهم ليَرَوْنَها في الشِّتاء بغير العُيونِ التي يرونَها بها في الصَّيف. ليس ذلك إلاَّ بقدر ما حدَثَ من الاستغناء عنها.

وكذلك جِلاءُ السَّيف؛ فإنَّ الإنسانَ يستحسِنُ قَدَّ السَّيفِ وخَرْطَه، وَطبْعَهُ وبرِيقَه. وإذا ذكر صنيعَه والذي هُيئ له، بَدَا لهُ في أكثرِ ذلك، وتبدَّل في عينه، وشغَلَه ذلك عن تأمُّل محاسنه.

ولولا علم النَّاس بعداوة الحيَّاتِ لهم، وأنَّها وحشيَّة لا تَأنَس ولا تقبل أدَباً، ولا تَرْعَى حقَّ تربية، ثمَّ رأوا شيئاً من هذه الحيَّاتِ، البيض، المنقَّشَةِ الظُّهور، لَمَا بَيَّنُوها ونوّمُوها إلاَّ في المهد، مع صِبيانهم.

*

وأنا أزعُمُ أن الناس يحتاجون بَدِيّاً إلى طبيعةٍ ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف.

وأوَّل ما ينبغي أن يبتدي به صاحبُ الإنصافِ أمرَه ألاَّ يعطيَ نفسَه فوقَ حقها، وألاَّ يضعها دونَ مكانها، وأن يتحفّظَ من شيئين؛ فإن نجاتَه لا تتمّ إلا بالتحفظ منهما: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تُهمة السَّابِقِ إلى القلب.

*

ابن التوأم*

(...) فقد بلغني، ما كان من ذكر أبي العاص لنا (....)

واحذر أن تخرج من مالك درهماً حتى ترى مكانه خيراً منه.

ولا تنظر إلى كثرته، فإنَّ رمْلَ عالج، لو أخذ منه، ولم يُرد عليه، لذهب عن آخره.

إن القوم، قد أكثروا في ذكر الجود وتفضيله، وفي ذكر الكرم وتشريفه، وسموا السرف جوداً، وجعلوه كرماً.

وكيف يكون ذلك، وهو نتاج ما بين الضعف والنفج؟ وكيف والعطاء لا يكون سرفاً، إلا بعد مجاوزة الحق، وليس وراء الحق إلى الباطل كرم.

وإذا كان الكرم باطلاً، كان الحق لؤماً، والشرف معصية. وإذا كانت معصية الله كرماً كانت طاعته لؤماً، ولو جمعهما اسم واحد، وشملهما حكم واحد.

وقد وجدنا الله عاب السرف وعاب الحمية، وعاب المعصية. ووجدناه قد خص السرف، بما لم يخص به الحمية.

لأنه ليس حبُّ المرء لرهطه، ولا أنفته من الضيم، من حمية الجاهلية.

---

* ذكره الجاحظ في كتاب «البخلاء» وفي «البيان والتبيين». لم تُعرف له ترجمة واضحة. الرسالة أعلاه، هي رد على أبي العاص الذي عاب البخل في رسالة سابقة من هذا الكتاب. ابن التوأم وجه رسالته إلى الثقفي، تجنباً للمناقشة والمباينة وخوفاً من الأمر أكثر من ذلك. والثقفي هذا ورد ذكره في رسالة أبي العاص. ورسالة ابن التوأم، «دفاع عن البخل»، انظر: جمهرة رسائل العرب، وانظر: كتاب البخلاء.

وإنما المعصية ما جاوز الحق، والحمية المعيبة ما تعدى القصد.

ووجدنا اسم الأنفة، قد يقع محموداً وقد يقع مذموماً. وما وجدنا إسم المعصية، ولا إسم السرف يقع أبداً، إلا مذموماً. وإنما يُسرُّ باسم السرف، جاهل لا علم له، أو رجل إنما يُسر به، لأن أحداً، لا يسميه مسرفاً، حتى يكون عنده قد جاوز حد الجود، وحكمٍ له بالحق، ثم أردفه بالباطل. فإن سُرَّ من غير هذا الوجه، فقد شارك المادح في الخطأ، وشاكله في وضع الشيء في غير موضعه.

وقد أكثرنا في ذكر الكرم، وما الكرم إلا كبعض الخصال المحمودة التي لم يعدمها بعض الذم، وليس شيء يخلو من بعض النقص والوهن.

وقد زعم الأقلّون أن الكرم يسبب الغباء وأن الغباء يسبب البله وأنه ليس وراء البله، إلا العته.

وقد حكوا عن كسرى أنه قال: احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

وسواء جاع فظلم وأحفظ فعسف، أم جاع وكذب، وضرع وأسف. وسواء جاع فظلم غيره، أم جاع فظلم نفسه.

والظلم لؤم. وإن كان الظلم، ليس بلؤمٍ، فالإنصاف ليس بكرمٍ،

وإن كان الجود على من لا يستحق الجود، كرماً.

فالجود لمن وجب له ذلك، ليس بكرم. فالجود إذا كان لله، كان شكراً له. والشكر كرم.

ولن يكون الجود، إذا كان معصية، كرماً.

وكيف يتكرم من يتوسل بأياديك إلى معصيتك، وبنعمك إلى سخطك؟

فليس الكرم إلا الطاعة، وليس اللؤم إلا المعصية.

وليس بجود ما جاوز الحق، وليس بكرمٍ ما خالف الشكر.

ولئن كان مجاوز الحق كريماً، ليكونن المقصر دونه كريماً. فإن قضيتم بقول العامة، فالعامة ليست بقدوة، وكيف يكون قدوة من لا ينظر ولا يُحصّل، ولا يفكر، ولا يمثِّل؟

وإن قضيتم بأقاويل الشعراء، وما كان عليه أهل الجاهلية الجهلاء، فمما قبحوه، مما لا يشك في حسنه، أكثر من أن نقف عليه، أو نتشاغل باستقصائه.

على أنه ليس بجودٍ، إلا ما أوجب الشكر، كما أنه ليس ببخل، إلا ما أوجب اللؤم.

ولن تكون العطية نعمةً على المعطى، حتى تراود بها نفس ذلك المعطي، ولن يجب عليه الشكر إلا مع شريطة القصد.

وكل من كان جوده يرجع إليه . لولا رجوعه إليه، لما جاد عليك. ولو تهيأ له ذلك المعنى في سواك، لما قصد إليك . فإنما جعلك معبراً لدرك حاجته، ومركباً لبلوغ محبته. ولولا بعض القول،* لوجب لك عليه حق يجب به الشكر.

فليس يجب، لمن كان كذلك، شكر، وإن انتفعت بذلك منه، إذ كان لنفسه عمل، لأنه لو تهيأ له ذلك النفع في غيرك، لما تخطاه إليك.

وإنما يوصف بالجود، في الحقيقة، ويشكر على النفع، في حجة العقل، الذي إن جاد عليك، فلكَ جاد، ونفعَك أراد، من غير أن يرجع إليه بجوده شيء من المنافع، على جهةٍ من الجهات وهو الله عز وجل.

---

* أي: ولولا الخوف من بعض القول، وهو أن نتهم بالمغالاة، لقلنا: بوجوب شكر الجواد، للمجود عليه.

إن شكرنا للناس، على بعض ما جرى لنا على أيديهم، فإنما هو لأمرين: أحدهما التعبد. وقد نعبد الله بتعظيم الوالدين وإن كانا شيطانين. وتعظيم من هم أسنّ منا، وإن كنا أفضل منهم.

والآخر، لأن النفس، ما لم تحصِّل الأمور، وتميز المعاني، فالسابق إليها، حب من جرى لها على يده خير، وإن كان لم يردها ولم يقصد إليها.

ووجدنا عطية الرجل لصاحبه، لا تخلو أن تكون لله، أو لغير الله. فإن كانت لله، فثوابه على الله. فكيف يجب عليَّ في حجة العقل شكره، وهو لو صادف ابن سبيلٍ غيري لما حملني، ولا أعطاني.

وأما أن يكون إعطاؤه إياي للذكر، فإذا كان الأمر كذلك فإنما جعلني سلماً إلى تجارته، وسبباً إلى بغيته. أو يكون إعطاؤه إياي من طريق الرحمة والرقة، ولما يجد في فؤاده، من الغصة والألم. فإن كان لذلك أعطى، فإنما داوَى نفسه من دائه. وكان كالذي رفَّه من خناقه وإن كان أعطاني، على طلب المجازاة، وحب المكافأة فأمر هذا معروف. وإن كان إنما أعطاني، من خوف يدي ولساني، أو اجترار معونتي ونصرتي، فسبيله، سبيل جميع ما وصفنا وفصلنا.

فلإسم الجود، موضعان: أحدهما حقيقة، والآخر مجاز. فالحقيقة ما كان من الله، والمجاز، المشتق من هذا الاسم. وما كان لله، كان ممدوحاً، وكان لله طاعة. فإذا لم تكن العطية من الله، ولا لله، فليس يجوز هذا في ما سموه جوداً فما ظنك بما سموه سرَفاً؟

فافهم ما أنا مورده عليك، وواصفه لك. إن التربح والتكسب والاستتكال بالخديعة، والطعم الخبيثة، فاشية غالبة، ومستفيضة ظاهرة.

على أن كثيراً ممن يضاف اليوم، إلى النزاهة والتكرم، وإلى الصيانة والتوقّي ليأخذ من ذلك بنصيب وافر، وبمدٍّ وافٍ،

فما ظنك بدهماء الناس وجمهورهم، بل ما ظنك بالشعراء والخطباء الذين، إنما تعلموا المنطق بصناعة التكسب؟

وهؤلاء قوم، بودهم أن أرباب الأموال، قد جاوزوا حد السلامة إلى الغفلة، حتى لا يكون للأموال حارس، ولا دونها مانع. فاحذرهم، ولا تنظر إلى بزَّة أحدهم. فإن المسكين أقنع منه. ولا تنظر إلى موكبه، فإن السائل أعف منه. واعلم أنه في مَسْك* مسكين، وإن كان في ثياب جواد. وروحه روح نذل، وإن كان في جرْمِ مَلك.

وكلهم وإن اختلفت وجوه مسألتهم، واختلفت أقدار مطالبهم، مساكين.

إلا أن واحداً منهم يطلب العِلَق وآخر يطلب الخِرَق. وآخر يطلب الدوانيق، وآخر يطلب الألوف. فجهة هذا هي جهة هذا، وطعمة هذا هي طعمة هذا.

وإنما يختلفون في أقدار ما يطلبون على قدر الحذق والسبب. فاحذر رقاهم وما نصبوا لك من الشرك، واحرس نعمتك وما دسَّوا لها من الدواهي.

واعمل على أن سحرهم، يسترق الذهن، ويختطف البصر.

إن مالك لا يسع مريديه، ولا يبلغ رضا طالبيه.

ولو أرضيتهم بإسخاط مثلهم، لكان ذلك خسراناً مبيناً.

وكيف، ومن يسخط أضعاف من يرضى؟

وهجاء الساخط، أضرّ من فقد مديح الراضي.

وعلى أنهم إذا اعتوروك بمشاخصهم، وتداولوك بسهامهم، لم تر ممن أرضيته بإسخاطهم أحداً يناضل عنك. ولا يهاجي شاعراً دونك بل يخليك غرضاً لسهامهم، ودريئةً لنبالهم.

---

* المَسكْ: الجِلْد.

ثم يقول: وما كان عليه لو أرضاهم! فكيف يرضيهم ورضا الجميع غاية لا تدرك؟

وقد قال الأول: وكيف يتفق لك رضا المختلفين؟

وقالوا: منع الجميع، أرضى للجميع. إني أحذرك مصارِعِ المخدوعين، وأرفعك عن مضاجع المغبونين.

ولست كمن لا يزال يقاسي تعذر الأمور، ويتجرع مرارة العيش ويتحمل ثقل الكد، ويشرب بكأس الذل، حتى يكاد يمرن على ذلك جلده، ويسكن عليه قلبه.

وفقر مثلك مضاعف الألم. وجزع من لم يَعرف الأمل أشد. ومن لم يزل فقيراً، فهو لا يعرف الشامتين، ولا يدخله المكروه من سرور الحاسدين، ولا يلام على فقره، ولا يصير موعظةً لغيره،

وحديثاً يبقى ذكره، ويلعنه بعد الممات ولده.

*

إبراهيم بن المدبِّر*

(...) اعلم أن أدوات ديوان جميع المحاسن، وآلات المكارم، طائفة منقادة لهذه الصناعة.** التي خطبتها، وتالية تابعة لها، وغير خارجةٍ إلى جحد أحكامها، ولا دافعة لما يلزمها الإقرار به لها.

فإن تقاضتك نفسك علمها، ونازعتك همتك إلى طلبها، فاتخذ البرهان دليلاً شاهداً، والحق إماماً قائداً، يقرب مسافة ارتيادك، ويسهّل عليك سبل مطالبها.

فاقصد في ارتيادك. وتأمل الصواب في قولك وفعلك.

ولا تكن إلى جحود قصد السابق باللجاج. ولا تخرج إلى إهمال حق المصيب بالمعاندة والإنكار. ولا تستخفّ بالحكمة، ولا تصغّرها حيث وجدتها، فترحل نافرةً عن مواطنها من قلبك، وتطعن شاردةً عن مكانها من بالك، وتتعفّى بعد العمارة آثارها، وتنطمس بعد الوضوح أعلامها.

فإن أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه، في تلقيح ذهنك، واستنجاح بلاغتك، ومن نوادر كلام الناس، ما تستعين به، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك.

---

* كان في زمن المتوكل. ولاه على البصرة. سجنه ثم عفا عنه. لقبه القلقشندي، في كتابه «صبح الأعشى» بالشيباني وكذا النويري في نهاية الأرب، ذكر صاحب العقد الفريد اسمه في باب أدوات الكتابة: إبراهيم بن محمد الشيباني. سميت رسالته التي اخترنا مقاطع منها في هذا الكتاب «العذراء»، لأنها اخترعت معاني لم يسبق إليها. مات ابن المدبر سنة 279 هـ.

** صناعة الكتابة.

وانظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم وحدود المنطق، وأمثال الفرس، ورسائلهم وعهودهم، وسيرهم ووقائعهم ومكايدهم في حروبهم، بعد أن تتوسط في علم الصرف والنحو واللغة، والوثائق والسور والشروط.

إن الحكماء قد شرطوا في صفات الكاتب:

أن يكون بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة، دقيق الذهن، صادق الحس، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة لطيف المسلك. ولا يكون مع ذلك، فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة. فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة.

(...) ولا تعتد بالمعنى الجزل، ما لم تلبسه لفظاً جزلاً لائقاً بمن كاتبته، ومشابهاً لمن راسلته.

فإن إلباس المعنى، وإن شرف وصلح، لفظاً مختلفاً عن قدر المكتوب إليه، لم تجر به عادتهم، هو تهجين للمعنى، وإخلال بقدره، وظلم لحق المكتوب إليه، ونقصٌ مما يجب له.

كما أن في اتباع تعارفهم، وما انتشرت به عاداتهم، وجرت به سنتهم، قطعاً لعذرهم، وخروجاً من حقوقهم، وبلوغاً إلى غير غاية قرارهم، وإسقاطاً لحجة أدبهم.

واقصد لكتابتك فراغ قلبك، وساعة نشاطك، فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف، لأن سماحة النفس بمكنونها، وجود الأذهان بمخزونها، إنما هو مع الشهوة المفرطة، والمحبة الغالبة أو الغضب الباعث منه ذلك.

قيل لبعضهم: لم لا تقول الشعر؟ قال: كيف أقوله، وأنا لا أغضب ولا أطرب؟

وهذا كله، إن جريت من البلاغة على عِرْق، وظهرت منها على حظ،

فأما إن كانت غير مناسبة لطبعك، ولا واقعةٍ شهوتك عليها لا تُنْض مطيتك في التماسها، ولا تُتعب بدنك في ابتغائها. اصرف عنانك عنها، ولا تطمع فيها، باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم، فإن ذلك غير مثمر لك، ولا مجد عليك.

ومن كان مرجعه فيها، إلى اغتصاب ألفاظ من تقدمه والاستضاءة بكوكب من سبقه، وسحب ذيل حلة غيره، ولم تكن له أداة تولد له من بنات قلبه، ونتائج ذهنه الكلامَ الحر، والمعنى الجزل، لم يكن من الصناعة في عيرٍ ولا نفير.

على أن كلام العظماء المطبوعين، ودرس رسائل المتقدمين، على كل حالٍ مما يفتق اللسان، ويوسع المنطق ويشحذ الطبع، ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجية. قال العتابي:

ما رأينا في ما تصرفنا فيه من فنون العلم، وجرينا فيه من صنوف الآداب، شيئاً أصعب مراماً، ولا أوعر مسلكاً ولا أدل على نقص الرجال، ورجاحتهم، وأصالة الرأي وحسن التمييز منه واختياره، من الصناعة التي خطبتها والمعنى الذي طلبته.

وليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ، وقصدك إلى موضعها، لأن اللفظة تكون أخت اللفظة، وقسيمتها في الفصاحة والحسن، ولا تحسن في مكان غيرها.

وبتمييز هذه المعاني، ومناسبة طبائع جهابذتها، ومشاكلة أرواحهم، جعلوا الكتابة نسباً وقرابة وأوجبوا على أهلها حفظها. قال الحسن بن وهب:* الكتابة نفسٌ واحدة، تجزأت في أبدانٍ متفرقة، ومن لم يعرف

* من أدباء العصر العباسي، كان له دور في السياسة والسلطة، وكان صديقاً للشاعر أبي تمام الطائي.

فضلها، وجهل أهلها، وتعدّى بهم رتبتهم، التي وصفهم الله بها[**]، فإنه ليس من الإنسانية في شيء.

وشبهت الحكماء المعاني بالغواني، والألفاظ بالمعارض. فإذا كسا الكاتب البليغ، المعنى الجزل، لفظاً رائعاً، وأعاره مخرجاً سهلاً، كان للقلب أحلى، وللصدر أملى. ولكنه بقي عليه أن ينظمه في سلكه مع شقائق، كاللؤلؤ المنثور الذي يتولى نظمه الحاذق، والجوهري العالم، يظهر بإحكام الصنعة له، حسناً هو فيه، ومنحه بهجةً هي له. كما أن الجاهل، إذا وضع بين الجوهرتين خرزة، هجن نظمه وأطفأ نوره.

كان حبيب بن أوس، ربما وقع على جوهرة، فوضعها بين بعرتين.

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها، فتعرف تمامها ونظامها ومواردها ومصادرها.

وتجنب، ما قدرت، الألفاظ الوحشية، وارتفع عن الألفاظ السخيفة، واقتضب كلاماً بين الكلامين.

قال الجاحظ: ما رأيت قوماً، أمثل طريقةً في البلاغة، من هؤلاء الكتاب، فإنهم التمسوا من الألفاظ، ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً.

وقال خالد بن صفوان: أبلغ الكلام، ما لا يحتاج إلى كلام، وأحسنه ما لم يكن بالبدوي المغرب، ولا القروي المخدج الذي صحت مبانيه، وحسنت معانيه، ودار على ألسن القائلين وخف على آذان السامعين، ويزداد حسناً على مر السنين.

*

[**] يشير إلى الآية ﴿ كراماً كاتبين﴾. (الانفطار:82).

أبو العيناء*

– إلى كم تمدح الناس وتذمهم؟

– ما أحسنوا وأساؤوا. فقد رضي الله عن عبدٍ فمدحه فقال: ﴿ نِعْمَ العبدُ إنّه أوّابٌ﴾** وغضب على آخر فزنّاه.

– ويلك أيزنّي الله أحداً؟

– نعم. قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾*** والزنيم: الدخيل في القوم وليس منهم.****

*

قال لصاعد:***** أنت خير من رسول الله، فقال: ويلك، كيف؟ قال: إن الله تعالى قال له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾****** وأنت فظّ ولسنا ننفضّ.

*

– لهممت أن آمر غلامي بدوس بطنك.

---

* محمد بن القاسم. كنيته أبو العيناء. ولد سنة 191 هـ. أديب فصيح. توفي بالبصرة سنة 287 هـ. كان أعمى.

** سورة ص، آية: 17.

*** سورة القلم، آية:13.

**** حوار بينه وبين المتوكل، الخليفة العباسي.

***** صاعد بن مخلد نصراني. أسلم على يد الموفق وكان وزيراً.

****** سورة آل عمران، آية:159.

– الذي تخلفه على عيالك إذا ركبت، أو الذي تحمله على ظهرك إذا نزلت؟*

*

– أتشرب الخمر؟

– بلى...

– أصبتَ عين الرأي، إذا دخلت في عزة هذه الدعوة، وثبتَّ على شرائط تلك النحلة.**

*

– من أنت؟

– رجل من ولد آدم.

– ادنُ مني عانقني، فما ظننت أنه بقي من هذا النسل أحد.***

*

– مذهبي الجمع بين الصلاتين.

– صدقت. ولكن تجمع بينهما بالتَّرك.****

*

– كيف شربك النبيذ؟

– أعجز عن قليله، وأُفتضح عند كثيره.

– دع هذا عنك ونادمنا.

– يا أمير المؤمنين إن أجهل الناس من جهل نفسه، ومهما جهلت من الأمر، فلن أجهل نفسي.

---

* إهانة قبيحة لرجل هدده.

** قال ذلك لنصراني دخل الإسلام.

*** أبو العيناء ورجل.

**** أبو العيناء ورجل.

أنا امرؤ محجوب والمحجوب مخطوف. ينظر إلى من لا ينظر إليه. وكل من في مجلسك يخدمك وأنا أحتاج أن أُخدم. ولست آمن أن تنظر إليَّ بعين غضبان وقلبك راضٍ، أو بعين راضٍ وقلبك غضبان. ومتى لم أميز بين هاتين هلكت.*

*

- بلغني أنك رافضي.

- ألدينٍ أم لدنيا؟ فإن أَكُ للدين ترفضت، فأبوك استنزل الغيث. وإن أَك للدنيا ففي يدك خزائن الأرض. وكيف أكون رافضياً وأنا مولاك، ومولدي البصرة، وأستاذي الأصمعي وجيراني باهلة؟

- إن ابن سعدان زعم ذلك.

- ومن ابن سعدان؟ والله ما يفرّق بين الإمام والمأموم، والتابع والمتبوع، إنما ذاك حامل درّة ومعلّم صبية، وآخذٌ على كتاب الله أجرة.

- لا تقل... فإنه مؤدب المؤيد.

- يا أمير المؤمنين ... لم يؤدبه حسبة، إنما أدبه بأجرة. فإذا أعطيته حقه فقد قضيت زمامه.**

*

أنا وولدي وعيالي، زرع من زرعك،
إن سقيته راع وزكا،
وإن جفوته ذبل وذوى.

وقد مسّني منك جفاء بعد برٍّ، وإغفال بعد تعهد، حتى شمت عدو وتكلم حاسد، ولعبت بي ظنون رجال.***

*

---

* حوار مع المتوكل.

** حوار مع المتوكل أيضاً.

*** المُخاطب عبيد الله بن سليمان الوزير.

أحمد الله على ما تأتَّت إليه أحوالك.

ولئن كانت أخطأت فيك النعمة، لقد أصابت فيك النقمة. ولئن أبدت الأيام مقابحها بالإقبال عليك، لقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك.*

*

إني لا أعظك بموعظة الله، لأنك غني عنها، ولا أرغّبك في الآخرة، لمعرفتي بزهدك فيها.

*

نحن، أعزَّ الله الأمير، إذا سألنا الناس كفَّ الأذى، سألناك بذل الندى، وإذا سألناهم العدل، سألناك الفضل، وإذا سررناهم ببسط العذر، سررناك باستدعاء البرّ.

*

قد آمن الله خائفك من ظُلمِك، وسائلك من بُخلك، والمستزيد لك من علمك، والعائذ بك من مالك. وإن الله لم يزل يعطيك إذا أعطيت، ويزيدك إذا زدت.

*

– ما جاء بك؟

– طلب الحديث.

– اذهب فتحفظ القرآن.

– قد حفظت القرآن.

– اذهب الآن وتعلم الفرائض.

– تعلمت.

---

* رسالة كتبها إلى رجل.

– أيما أقرب إليك؟ ابن أخيك أو ابن عمك؟

– ابن أخي.

– ولم؟

– لأن أخي من أبي، وعمي من جدي.

– اذهب الآن وتعلم العربية.

– علمت ذاك قبل هذين.*

– لم قال عمر بن الخطاب: يا لله ، يا للمسلمين؟

– فتح تلك للاستغاثة، وكسر هذه للاستنصار.**

– لو حدثت أحداً، حدثتك.

*

* أي قبل الفرائض والحديث.

** أراد فتح اللام في (الله) وكسرها في (المسلمين). والحوار بين أبي العيناء وطالبٍ لعلْم الحديث.

ابن المعتز*

لو كنت أعلم أنك تحب معرفة خبري لم أبخل به عليك،
ولو طمعت في جوابك لسألت عن خبرك،
ولو رجوت العتبى منك لأكثرت عتابك،
ولو ملكت الخواطر لم آذن لنفسي بذكرك،
ولولا أن يضيع وصف الشوق لأطلت به كتابي،
ولولا أن عز السلطان يشغلك عني لشغلت به سروري.**

*

الخضاب من شهود الزور.

*

أعظم نفسك عن التعظم، وتطوّل ولا تتطاول.

*

إعادة الاعتذار تذكير بالذنب.

*

الأمل رفيق مؤنس، إن لم يبلغك فقد استمتعت به.

*

لا يقوم عز الغضب بذل الاعتذار.

*

---

* عبد الله بن المعتز بن المتوكل. شاعر مبدع صاحب كتاب «طبقات الشعراء» ولد سنة 247 هـ. بويع بالخلافة سنة 296 هـ. وبقي بها يوماً ثم خلع وقتل.

** رسالة إلى أحد إخوانه.

الشفيع جناح الطالب.

*

من زاد أدبه على عقله كان كالراعي الضعيف مع غنم كثيرة.

*

إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب منه.

*

النمّام جسر الشر.

*

لا تشن وجه العفو بالتقريع.

*

إذا زال المحسود عليه،
علمت أن الحاسد كان يحسد على غير شيء.

*

من تجرّأ لك تجرّأ عليك.

*

أمرّ المكاره ما لم يحتسب.

*

كلما كثر خُزّان الأسرار ازدادت ضياعاً.

*

كلما حسنتْ نعمة الجاهل ازداد قبحاً فيها.

*

بالمكاره تظهر حيل العقول.

*

من قَبِلَ عطاءك فقد أعانك على الكرم.

*

أوهن الأعداء كيداً أظهرهم لعداوته.

*

أبق من رضاك لغضبك.

*

النفس المتفردة بطلب الرغائب وحدها تهلك.

*

إذا خُلّي عنان العقل، ولم يحبس على هوى نفس أو عادة دين أو عصبية لسلف، ورد بصاحبه على النجاة.

*

السامع للغيبة أحد المغتابين.

*

لو تميزت الأشياء، كان الكذب مع الجبن، والصدق مع الشجاعة، والراحة مع اليأس، والتعب مع الطمع، والحرمان مع الحرص، والذل مع الدين.

*

المعروف إليك غِلٌّ، لا يفكّه عنك إلا شكر أو مكافأة.

*

علم الإنسان ولده المخلد.

*

الأمانة رأس مال الجاهل.

*

الجاهل صغير، وإن كان شيخاً. والعالم كبير وإن كان حدثاً.

*

الميت يقل الحسد له، ويكثر الكذب عليه.

*

غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله.

*

ما كل من يحسن وعده، يحسن إنجازه.

*

الأماني تُعمي أعين البصائر.

*

من ولج في النائبة صابراً، خرج منها مثقفاً.

*

الناس وفْد البلى وسكان الثرى، ورهن المنايا.

*

أنفاس الحي خُطاه إلى أجله*، وأمله خادع له من عمله، والدنيا أكذب واعديه، والنفس أقرب أعاديه، والموت ناظر إليه وينتظر فيه أمراً لا يعييه.

*

لا يزال الإخوان يسافرون في المودة حتى يبلغوا الثقة.

*

من عظمت النعمة عليه كثرت الرغبة إليه.

*

* القول لعليّ في شرح ابن أبي الحديد.

العقل كشجرة أصلها غريزة، وفروعها تجربة، وثمرتها حمد العاقبة.

*

ما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل إن لم يصدئها الهوى.

*

ما ذل قوم حتى ضعفوا، وما ضعفوا حتى تفرقوا، وما تفرقوا حتى اختلفوا، وما اختلفوا حتى تباغضوا، وما تباغضوا حتى تحاسدوا، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض.

*

مازالت أم الكرم نزوراً، وأم اللؤم ولوداً.

*

إنما يقتل الكبار الأعداء الصغار، الذين لا يخافون فيتقون، ولا يؤبه لهم وهم يكيدون.

*

المؤدب يأمر الغلام بألا يشتم أحداً، ويتجنب المحارم، ويحسن خلائقه،
ويعلمه من الفقه الأبواب التي لا غنى بمسلم عن معرفتها، ومن الشعر الشاهد والمثل، ومن الإعراب ما يصلح به لفظه ومن الغزل أعفه...
ثم يرى أباه في كل ساعة بخلاف ما يؤمر به...
فيوشك أن يحدِّث نفسه بأن أباه لا يخلو من أن يكون عَلِم ما يُسام فاطّرحه،
ورأى أنه لا خير فيه، أولم يعلم شيئاً من ذلك فلم يضره جهله إياه.

*

إن للأزمان المذمومة والمحمودة أعماراً وآجالاً كأعمار الناس وآجالهم،

فاصبروا لزمان السوء حتى يفنى عمره، ويأتي أجله.

*

المشورة راحة لك وتعب على غيرك.

*

ما تكاد الظنون تزدحم على أمر مستورٍ إلا كشفته.

*

من ترك العقوبة أغرى بالذنب.

*

الطبري*

خلق الله التربة يوم السبت،
وخلق فيها الجبال يوم الأحد،
وخلق الشجر يوم الاثنين،
وخلق المكروه يوم الثلاثاء،
وخلق النور يوم الأربعاء،
وبث فيها الدواب يوم الخميس،
وخلق آدم بعد العصر، من يوم الجمعة، آخر خلقٍ خلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل.**

*

إن قال قائل:
فما تنكر أن تكون الأشياء التي ذكرت من فعل قديمين؟
قلنا: لو كان المدبر اثنين، لم يخْلوا من اتفاق أو اختلاف. فإن كانا متفقين فمعناهما واحد.
وإنما جعل الواحد اثنين، من قال بالاثنين.

---

* محمد جرير الطبري (أبو جعفر). وُلد بآمل طبرستان سنة 224 هـ. وتوفي سنة 310 هـ. فقيه ولغوي وأديب ومؤرخ وشهرته أكبر من أن تعرّف. ألّف الكثير من الكتب من أهم أعماله الكتاب المسمى باسمه «تاريخ الطبري».

** حديث شريف مروي بإسناد الطبري.

وإن كانا مختلفين، كان محالاً وجود الخلق على التمام والتدبير على الاتصال، لأن المختلفين، فِعلُ كل واحدٍ منهما خلاف فعل صاحبه، بأن أحدهما إذا أحيا أمات الآخر، وإذا أوجد أحدهما أفنى الآخر،

فكان محالاً وجود شيء من الخلق على ما وجد عليه من التمام والاتصال.

*

أول ما خلق الله من شيء، القلم، فقال له: اكتب،

فقال: وما أكتب يا رب؟

قال: اكتب القدر،

قال: فجرى القلم بما هو كائن من ذلك إلى قيام الساعة.

ثم رفع بخار الماء،

ففتق منه السماوات.

*

قيل: إن الله خلق البيت العتيق على الماء،

على أربعة أركان، قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام،

ثم دُحيتْ الأرض من تحته.

*

(...) أمر آدم ابنه قيناً، أن يُنْكِحَ توأمته هابيل،

وأمر هابيل أن ينكح توأمته، أخته، قينا،

فسلّم لذلك هابيل ورضي وأبى ذلك قين وكره، تكرماً عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل.

وقال: نحن ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي.

ويقول بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول:

بل كانت أخت قين من أحسن الناس، فضنَّ بها عن أخيه وأرادها لنفسه فقال له أبوه يا بني إنها لا تحلُّ لك، فأبى قين أن يقبل ذلك من قول أبيه.

فقال له أبوه:

يا بني فقرّب قرباناً، ويقرّب أخوك هابيل قرباناً، فأيكما قبل الله قربانه، فهو أحقُّ بها.

وكان قين على بذر الأرض،

وكان هابيل على رعاية الماشية.

قرّب قين قمحاً،

وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه،

وبعضهم يقول: قرب بقرة،

فأرسل الله عز وجل، ناراً بيضاء، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قين، وبذلك كان يقبل القربان، إذا قبل الله.

فلما قبل الله، عز وجل، قربان هابيل، وكان في ذلك القضاء له بأخت قين، غضب قين وغلب عليه الكبر، واستحوذ عليه الشيطان، فاتبع أخاه هابيل وهو في ماشيته فقتله.

*

- يا حواء، ما هذا الذي في بطنك؟
- ما أدري من؟
- أين يخرج؟ من أنفك؟ أو من عينك أو من أذنك؟
- لا أدري.
- أرأيت إن خرج سليماً، أمطيعتي أنت في ما آمرك به؟

– نعم.

– سميه عبد الحارث.*

– نعم.

*

* كان إبليس يُسمى الحارث. (إبليس يحاور حواء).

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي*

- من أين** أوجبتم أن الله اختص قوماً بالنبوة دون قوم وفضلهم على الناس وجعلهم أدلة لهم وأحوج الناس إليهم؟
ومن أين أجزتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك ويؤكد بينهم العداوات، ويكثر المحاربات ويهلك بذلك الناس؟
- كيف يجوز عندك في حكمته أن يفعل؟
- الأولى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم،
فلا يفضّل بعضهم على بعض، ولا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف، فيهلكوا،
وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة لبعض فتصدِّق كل فرقةٍ إمامها وتكذب غيره،
ويضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف ويعم البلاء ويهلكون بالتعادي والمجاذبات،
وقد هلك بذلك كثير من الناس كما نرى.
- ألست تزعم أن الباري جل جلاله حكيم رحيم؟
- نعم.
- فهل ترى الحكيم فعل بخلقه هذا الذي تزعم أنه أولى بحكمته ورحمته،
وهل احتاط لهم فألهم الجميع ذلك، وجعل هذه الهبة عامة، ليستغني الناس بعضهم عن بعض وترتفع عنهم الحاجة، إذ كان ذلك أولى بحكمته ورحمته؟

---

* ولد سنة 250 هـ وتوفي سنة 315 هـ.

** حوار بين أبي بكر محمد بن زكريا الرازي والراد عليه أبو حاتم الرازي.

– نعم.
– أوجدني في حقيقة ما تدعي، فإنّا لا نرى في العالم إلا إماماً ومأموماً، وعالماً ومتعلماً، في جميع الملل والأديان والمقالات من أهل الشرائع وأصحاب الفلسفة التي هي أصل مقالتك.
ولا نرى الناس يستغني بعضهم عن بعض، بل كلهم محتاجون بعضهم إلى بعض، غير مستغنين بإلهامهم عن الأئمة والعلماء.
ولم يلهموا ما ادعيت من منافعهم ومضارهم في أمر العاجل والآجل، بل أحوجوا إلى علماء يتعلمون منهم وأئمة يقتدون بهم وراضة يروضونهم.
وهذا عيان لا يقدر على دفعه إلا مباهت ظاهر البهت والعناد. وأنت مع ذلك تدعي أنك قد خصصت بهذه العلوم التي تدعيها من الفلسفة، وأن غيرك قد حُرم ذلك وأحوج إليك، وأوجبت عليهم التعلم منك والاقتداء بك.
– لم أخص بها دون غيري، ولكني طلبتها وتوانوا فيها، وإنما حرموا ذلك لإضرابهم عن النظر، لا لنقص فيهم.
والدليل على ذلك أن أحدهم يفهم من أمر معاشه وتجارته وتصرفه في هذه الأمور، ويهتدي بحيله إلى أشياء تدق عن فهم كثير منا، وذلك لأنه صرف همته إلى ذلك.
ولو صرف همته إلى ما صرفت همتي أنا إليه وطلب ما طلبتْ لأدرك ما أدركت.
– فهل يستوي الناس في العقل والهمة والفطنة أم لا؟
– لو اجتهدوا واشتغلوا بما يعنيهم لاستووا في الهمم والعقول.
– كيف تجيز هذا وتدفع العيان؟ وإنا نرى ونعاين أن الناس على طبقات وتفاوت ومراتب، ولست تقدر على دفع ما اتفق الناس عليه أن يقولوا:
فلان أعقل من فلان، وفلان أحمق، وفلان أكيس من فلان، وفلان لطيف الطبع وفلان غليظه.
–في كل طبقة من الناس فاضل ومفضول، وعالم ومتعلم،
ولا نرى أحداً يدرك شيئاً من الأمور بفطنته وكيسه وعقله، إلا بمعلِّم يرشده، وبقانون يرجع إليه ثم يحتذي على مثاله ويبني عليه أمره.

وهذا ما لا مرية فيه، ولا يقدر أحد على دفعه.

*

قال: إن أهل الشرائع أخذوا الدين عن رؤسائهم بالتقليد، ودفعوا النظر والبحث عن الأصول،

وشددوا فيه ونهوا عنه،

ورووا عن رؤسائهم أخباراً توجب عليهم ترك النظر ديانة، وتوجب الكفر على من خالف الأخبار التي رووها. من ذلك، ما رووه عن أسلافهم:

أن الجدل في الدين والمراء فيه كفر،

ومن عرّض دينه للقياس لم يزل الدهر في التباس،

ولا تتفكروا في الله وتفكروا في خلقه. والقدر سر الله، فلا تخوضوا فيه،

وإياكم والتعمق، فإن من كان قبلكم هلك بالتعمق.

إن سئل أهل هذه الدعوى عن الدليل على صحة دعواهم، استطاروا وغضبوا وهدروا دم من يطالبهم بذلك، ونهوا عن النظر وحرضوا على قتل مخالفيهم.

فمن أجل ذلك اندفن الحق أشد اندفان، وانكتم أشد انكتام.

وإنما أتوا في هذا الباب من طول الإلف لمذهبهم،

ومر الأيام والعادة، واغترارهم بلحى التيوس المتصدرين في المجالس يمزقون حلوقهم بالأكاذيب والخرافات.

وحدثنا فلان عن فلان بالزور والبهتان، وبرواياتهم الأخبار المتناقضة، من ذلك:

آثار توجب خلق القرآن وأخرى تنفي ذلك،

وأخبار في تقديم عليٍّ وأخرى في تقديم غيره،

وآثار تنفي القدر وأخرى تنفي الإجبار،

وآثار في التشبيه.

إنما غرهم طول لحى التيوس، وبياض ثياب المجتمعين حولهم:

الضعفاء من الرجال والنساء والصبيان،

وطول المدة، حتى صار طبعاً وعادة.

وطالبته في مجلس آخر وقلت له:

أخبرني عن الأصل الذي تعتقده من القول بقدم الخمسة: الباري، والنفس، والهيولى، والمكان، والزمان:

أهو شيء وافقك عليه القدماء من الفلاسفة أم خالفوك فيه؟

قال:

بل للقدماء في هذا أقوال مختلفة،

ولكني استدركت هذا بكثرة البحث والنظر في أصولهم فاستخرجت ما هو الحق الذي لا مدفع له ولا محيص عنه.

قلت:

فكيف عجزت فطن هؤلاء الحكماء واختلفت أقاويلهم،

وكانوا بزعمك مجتهدين قد صرفوا هممهم إلى النظر في الفلسفة حتى أدركوا العلوم اللطيفة،

وصاروا فيها علماء وهم لك أئمة، وأنت لهم تبع،

لأنك درست رسومهم ونظرت في أصولهم وتعلمت من كتبهم،

فكيف يجوز أن يكون التابع أعلى من المتبوع والمأموم أتم في الحكمة من الإمام؟

قال:

أنا أورد عليك في هذا ما تعلم أن الأمر كما ذكرته وتعرف الصواب من الخطأ في هذا الباب.

اعلم أن كل متأخرٍ من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر في الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقته وصعوبته، عَلِمَ عِلْمَ من تقدمه وفطن لفوائد أخر واستفضلها، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل.

قلت:

فإن كان الذي استدركه المتأخر خلافاً على من تقدمه، كما خالفت أنت من تقدمك، فإن الخلاف ليس بفائدة، بل الخلاف شر وزيادة في العمى، وتقوية للباطل ونقض وفساد.

ونحن نجدكم لم تزدادوا بكثرة البحث والنظر بآرائكم إلا اختلافاً وتناقضاً.

فإذا شرطت على نفسك أن المتأخر يدرك ما لم يدركه المتقدِّم كما زعمت أنك أدركته وأوردت الخلاف على ما تقدمك، لا تأمن أن يجيء بعدك من يجتهد فوق ما اجتهدت، فيعلم ما قد علمت، فيستفضل ويدرك بفطنته واجتهاده ونظره ما لم تدركه أنت وينقض ما حكمت به ويخالفك في أصلك، كما نقضت على من تقدمك وخالفته في أصله، حين ادعيت قِدِم الخمسة وزعمت أن من تقدمك قد أخطأ حين خالفك وكما قد خالف بعضكم بعضاً.

وعلى هذه الشريطة فإن الفساد قائم في العالم والحق معدوم أبداً والباطل منتظم.

والذين خالفوك قد مضوا على الباطل والضلال لأن الخلاف باطل والخطأ ضلال ويلزمك أيضاً على هذه الشريطة أن تمضي على الباطل والضلال، إذ كان الذي يجيء بعدك يأتي بفائدة ويصيب ما لم تصبه على قياس قولك.

قال:

ليس هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأن كل واحدٍ منهما مجتهد.

فإذا اجتهد وشغل نفسه بالنظر والبحث فقد أخذ في طريق الحق، لأن الأنفس لا تصفو من كدورة هذا العالم ولا تتخلص إلى ذلك العالم إلا بالنظر في الفلسفة.

فإذا نظر فيها ناظر وأدرك منها شيئاً ولو أقل قليل صفت نفسه من هذه الكدورة وتخلصت.

ولو أن العامة الذين قد أهلكوا أنفسهم وغفلوا عن البحث نظروا فيها أدنى نظر لكان في ذلك خلاصهم من هذه الكدورة وإن أدركوا القليل من ذلك.

قلت:

أليس أوجبت أن النظر في الفلسفة هو الوصول إلى الحق والخروج عن الباطل؟

قال: نعم.

قلت:

فقد زعمت أن الناس هلكوا بالتعادي والاختلاف،

فعلى زعمك لا يزداد من ينظر في الفلسفة إلا هلاكاً لأنك قد أقررت أن للفلاسفة أقاويل مختلفة وأن الذي تعتقده خلاف ما كان عليه من تقدمك وألزمت على نفسك هذه الشريطة أن الذي يجيء بعدك يجوز أن يخالفك ويخالف غيرك،

فعلى هذه الشريطة يقوى سبب الهلاك في كل يوم ويزداد الباطل والضلال.

قال:

أنا لا أعدُّ هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأن من نظر واجتهد هو المحق، وإن لم يبلغ الغاية على ما قد وصفته لك،

ولأن الأنفس لا تصفو إلا بالنظر والبحث.

قلت:

أما إذا أصررت على هذه الدعوى ورددت الحق وعاندته، فأخبرني ما تقول في من نظر في الفلسفة وهو معتقد لشرائع الأنبياء،

هل تصفو نفسه وهل ترجو له الخلاص من كدورة هذا العالم؟

قال:

كيف يكون ناظراً في الفلسفة وهو معتقد لهذه الخرافات، مقيم على الاختلافات مصرٌّ على الجهل والتقليد؟

قلت:

أو ليس ادعيت أن من نظر في الفلسفة وإن لم يتبحر فيها ونظر فيها أقل قليل منها صفت نفسه؟

قال: نعم.

قلت:

فإن هذا الذي لم يتبحر ونظر في القليل قد اقتدى بمن تقدم وقلده ولم يحصل إلا على الاقتداء بالخلاف وعلى التقليد.

فأي خرافات أكثر من هذه، وأي تقليد فوق هذا، وأي جهل أعظم منه؟

وأي تصفيةٍ لنفس هذا، وعلى ماذا حصل إلا على رفض الشرائع والكفر بالله وأنبيائه ورسله والدخول في الإلحاد، والقول بالتعطيل.

أو ليس هذا أولى بأن يسمَّى جاهلاً، مقلداً، معتقداً للخرافات والاختلاف من جميع الناس؟

قال:

إذا انتهى الكلام إلى هذا يجب أن يسكت.

وطالبته في مجلس آخر وقلت له: أخبرني، ألست تزعم أن الخمسة قديمة، لا قديم غيرها؟

قال: نعم.

قلت:

وأي هذه الخمسة أحدث العالم؟ تكلم في هذا الباب فإنه أنفع، فقد كثرت المطالبة من الدهرية لنا بالعلة في حدث العالم؟

قال:

للناس فيه أقاويل غير مقنعة وليست عليهم حجة أوكد مما استدركته، ولا تثبت لأحد حجة في ذلك دون الرجوع إلى ما أعتقده.

قلت: وما تلك الحجة المقنعة؟

قال:

فأنا أقول: إن الخمسة قديمة وأن العالم محدث. والعلة في إحداث العالم أن النفس اشتهت أن تتجبل في هذا العالم، وحركتها الشهوة لذلك، ولم تعلم ما يلحقها من الوبال إذا تجبلت فيه واضطربت في إحداث العالم وحركت الهيولى حركاتٍ مضطربة مشوشة على غير نظام وعجزت عما أرادت،

فرحمها الباري جل وتعالى وأعانها على إحداث هذا العالم وحملها على النظام والاعتدال رحمةً منه لها وعلماً أنها إذا ذاقت وبال ما اكتسبته عادت إلى عالمها وسكن اضطرابها وزالت شهوتها واستراحت،

فأحدثت هذا العالم بمعاونة الباري لها، ولولا ذلك لما قدرت على إحداث،

ولولا هذه العلة لما أحدث العالم.

وليست لنا على الدهرية حجة أوكد من هذه، وإن لم يكن هكذا فلا حجة لنا عليهم، بتةً بتةً، لأنّا لا نجد لإحداث العالم علةً ثبتت بحجةٍ ولا برهان.

قلت:

أما الحجج على الدهرية في إحداث العالم فكثيرة، ولكنها خفيت عليك، لأن هواك في ما تدعيه قد غلب،

وإن لم يكن على الدهرية حجة في إحداث العالم إلا ما ذكرت فقد ضعف من قال بحدث العالم ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ لأن الذي تدعيه ينكسر عليك من وجوهٍ كثيرة.

قال: ومن أين ينكسر عليّ؟

قلت:

أخبرني! ألست تزعم أن النفس اشتهت أن تتجبل في هذا العالم، فاضطربت في إحداثه، على ما حكيت من القول، فأعانها البارئ رحمةً منه لها؟

قال: نعم.

قلت:

فهل علم البارئ أن يلحقها في ذلك الوبال إن تجبلت فيه؟

قال: نعم.

قلت:

أليس لو لم يعاونها على إحداث هذا العالم ومنعها من التجبل فيه، كان أولى بالرحمة لها من أن أعانها وأوقعها في هذا الوبال العظيم على زعمك؟

قال: لم يقدر على منعها من ذلك.

قلت: قد ألزمت الباري العجز.

قال: لم ألزمه العجز.

قلت:

ألست تزعم أنه لم يقدر على منعها؟ فقولك: لم يقدر، أليس هو عجز؟
قال:
لم أعن، أنه لم يقدر، لأنه عجز عن منعها،
ولكني أضرب لك مثلاً تعرف منه صواب ما أوردته،
إنما المثل في هذا، كمثل رجلٍ له ولد صغير يحبه ويرحمه ويشفق عليه، ويمنع منه الآفات، فتطلع ولده هذا في بستان، فرأى ما فيه من الزهر والغضارة،
وفي البستان شوك كثير وهوام تلسع، والصبي لا يعرف ما فيه من الآفات، إنما يرى الزهرة والغضارة، فتحركه الشهوة وتنازعه نفسه إلى الدخول إلى هذا البستان، ووالده يمنعه لعلمه بما في البستان من الآفات، وهو يبكي وينزع إلى ذلك جهلاً منه بما يلحقه من الوبال من جهة الشوك والهوام،
فيرحمه والده وهو يقدر على منعه من الدخول، ولكن يعلم أنه لا ينتهي حتى يدخله، فتشوكه شوكة أو تلسعه عقرب، فعند ذلك ينتهي وتزول شهوته، وتستريح نفسه.
ولا تنازعه بعد ذلك على العود إليه،
فهكذا مثال النفس مع الباري جلَّ وعلا، وهذا معنى قولي:
لم يقدر على منعها، ولم ألزمه العجز.

*

(...) إنه* أعظم نِعَمِ الله عندنا وأنفع الأشياء وأجداها علينا.
فبالعقل فُضِّلنا على الحيوان غير الناطق،
وبه أدركنا جميع ما يرفعنا،
وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا، الخفية المستورة عنا.

---

* الكلام على العقل.

لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين.

فحقيق علينا أن لا نحطه عن رتبته ولا ننزله عن درجته.

ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه، ولا هو الزمام مزموماً، ولا هو المتبوع تابعاً.

فإذا فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه وأضاء لنا غاية إضاءته وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به.

*

إن أشرف* الأصول وأجلها وأعونها لنا، قمع الهوى ومخالفة ما يدعو إليه الطباع في أكثر الأحوال وتمرين النفس على ذلك وتدريجها إليه.

فإن أول فضل الناس على البهائم هو هذا، أعني ملكة الإرادة وإطلاق الفعل بعد الروية،

وذلك أن البهائم غير المؤدبة واقفة عند ما يدعوها إليه الطباع عاملةً به وغير ممتنعة منه ولا مرويّة فيه.

*

إن إنساناً لو ملك نصف الأرض لنازعته نفسه إلى ما بقي منها وأشفقت وخافت من تفلت ما حصل له منها،

ولو ملك الأرض بأسرها لتمنى دوام الصحة والخلود وتطلعت نفسه إلى علم خبر جميع ما في السماوات والأرضين.

فمتى يتم التذاذ هذا واغتباطه بما هو فيه،

وهل المغتبط عند نفسه إلا البهائم ومن جرى مجراها؟

المؤونة في احتمال مغالبة الهوى وقمع الشهوات تخف بالاعتياد ولاسيما إذا كان ذلك على تدريج بأن يعوِّد المرء نفسه ويأخذها أولاً بمنع اليسير من الشهوات وترك بعض ما تهوى لما يوجبه العقل والرأي،

* الكلام على الهوى.

ثم يروم من ذلك ما هو أكثر حتى يصير ذلك فيه مقارناً للخلق والعادة وتذل نفسه الشهوانية وتعتاد الانقياد للنفس الناطقة.

*

إن اللذة ليست بشيء سوى إعادة ما أخرجه المؤذي عن حالته إلى حالته تلك التي كان عليها،

كرجل خرج من موضع كنين ظليل إلى صحراء،

ثم سار في شمس صيفية حتى مسّه الحرّ،

ثم عاد إلى مكانه ذلك،

فإنه لا يزال يستلذُّ ذلك المكان حتى يعود بدنه إلى حالته الأولى.

ثم يفقد ذلك الاستلذاذ مع عود بدنه إلى الحالة الأولى، وتكون شدّة التذاذه بهذا المكان بمقدار شدّة إبلاغ الحرّ إليه وسرعة هذا المكان في تبريده.

وبهذا المعنى حدَّ الفلاسفة الطبيعيون اللذة،

فإن حدّ اللذة عندهم هو أنها رجوع إلى الطبيعة.

ولأن الأذى والخروج عن الطبيعة ربما حدث قليلاً قليلاً في زمانٍ طويل، ثم حدث بعقبه رجوع إلى الطبيعة دفعة في زمانٍ قصير، صار في مثل هذه الحال يفوتنا الحس بالمؤذي ويتضاعف بيان الإحساس بالرجوع إلى الطبيعة، فنسمي هذه الحال لذة.

ويظن بها من لا رياضة له أنها حدثت من غير أذى تقدمها، ويتصورها مفردة خالصة برية من الأذى.

وليست الحال على الحقيقة كذلك بل ليس يمكن أن تكون لذةً بتةً إلا بمقدار ما تقدمها من أذى الخروج عن الطبيعة.

فإنه بمقدار الجوع والعطش يكون الالتذاذ بالطعام والشراب. حتى إذا عاد الجائع والعطشان إلى حالته الأولى لم يكن شيء أبلغ في عذابه من إكراهه على تناولهما،

بعد أن كانا ألذ الأشياء عنده وأحبها إليها وكذلك الحال في سائر الملاذ.

*

العشاق يجاوزون حد البهائم في عدم ملكة النفس وزمِّ الهوى وفي الانقياد للشهوات،

وذلك أنهم لم يرضوا أن يصيبوا هذه الشهوة، أعني لذة الباه، على أنها أسمج الشهوات وأقبحها عند النفس الناطقة التي هي الإنسان على الحقيقة، من أي موضع يمكن إصابتها منه، حتى أرادوها من موضع ما بعينه،

فضموا شهوة إلى شهوة وركبوا شهوة على شهوة وانقادوا وذلوا للهوى ذلاً على ذل وازدادوا عبودية إلى عبودية.

والبهيمة لا تصير من هذا الباب إلى هذا الحد ولا تبلغه، ولكنها تصيب منه بقدر ما لها في الطبع مما تطرح به عنها ألم المؤذي المهيج لها لا غير، ثم تصير إلى الراحة الكاملة.

إن العشاق مع طاعتهم للهوى وإيثارهم اللذة وتعبّدهم لها يحزنون من حيث يظنون أنهم يفرحون، ويألمون من حيث يظنون أنهم يلذون.

وذلك أنهم لا ينالون من ملاذّهم شيئاً ولا يصلون إليه إلا بعد أن يمسّهم الهم والجهد ويأخذهم منهم ويبلغ إليهم.

وربما لم يزالوا من ذلك في كُربٍ منصبة وغصصٍ متصلة من غير نيل مطلوبٍ بتةً.

وأما من احتجوا بعشق الأنبياء وما بلوا به منه، فنقول:

إنه ليس من أحد يستجيز أن يُعَدَّ العشق منقبة من مناقب الأنبياء ولا فضيلة من فضائلهم ولا أنه شيء آثروه واستحسنوه، بل إنما يعد هفوة وزلة من هفواتهم وزلاتهم.

وأما قولهم:

إن العشق يدعو إلى النظافة واللباقة والهيئة والزينة:

فما يُصنع بجمال الجسد مع قبح النفس،

وهل يحتاج إلى الجمال الجسداني ويجتهد فيه إلا النساء وذوو الخنث من الرجال؟

*

من بلايا العُجْب أن يؤدي إلى النقص في الأمر الذي يقع به العجب،

لأن المعجَب لا يروم التزيد ولا الاقتناء والاقتباس من غيره في الباب الذي منه يعجب بنفسه،

لأن المعجب بفرسه لا يروم أن يستبدل به ما هو أفره منه لأنه لا يرى أن فرساً أفره منه،

والمعجب بعمله لا يتزيد منه لأنه لا يرى أن فيه مزيداً.

ومن لم يستزد من شيءٍ ما، نقص لا محالة وتخلف عن رتبة نظرائه وأمثاله.

*

ابن طباطبا*

الشِّعر كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق.

ونظمه معلوم محدود. فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه.

ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه، بمعرفة العروض والحذق به،

حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه.

*

وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلفه.

فمن تعصَّت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل في ما ينظمه،

ولحقته العيوب من كلِّ جهةٍ.

*

من هذه الأدوات:

التوسع في علم اللغة،

والبراعة في فهم الإعراب،

---

* أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا. توفي سنة 332 هـ.

والرواية لفنون الآداب،
والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم، ومناقبهم ومثالبهم،
والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر،
والتصرف في معانيه، في كل فن قالته العرب فيه،
وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها، وحكاياتها وأمثالها، والسنن المستدلة منها، وتعريفها وتصريحها، وإطنابها وتقصيرها، ولطفها وخلابتها.

*

وأن يكون كالسبيكة المفرغة،
والوشي المنمنم،
والعقد المنظم،
واللباس الرائق فتسابق معانيه ألفاظه،
فيلتذ الفهم بحسن معانيه،
كالتذاذ السمع بمونق لفظه،
وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه،
وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها،
فيكون ما قبلها مسوقاً إليها،
ولا تكون مسوقةً إليه، فتقْلَق في مواضعها،
ولا توافق ما يتصل بها وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له غير مستكرهة ولا متعبة، لطيفة الموالج، سهلة المخارج.

*

وجُماع هذه الأدوات كمال العقل الذي به تتميز الأضداد، ولزوم العدل،
وإيثار الحسن واجتناب القبيح،
ووضع الأشياء مواضعها.

*

فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً،

وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه.

فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته،

وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني إلى غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه،

بل يعلِّق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله،

فإذا كملت المعاني، وكثرت الأبيات وفّق بينها بأبيات تكون نظاماً لها، وسلكاً جامعاً لما تشتت منها.

*

ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتجته فكرته،

فيستقصي انتقاده ويرمُّ ما وَهى منه ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظةً سهلةً نقية.

وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول،

وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن.

*

ويكون كالنسّاج الحاذق الذي يفوِّف وشْيَه بأحسن التفويف، ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه،

وكالنقَّاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه.

ويكون كناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق.

*

فمن الأشعار، أشعار محكمة متقنة، أنيقة الألفاظ، حكيمة المعاني، عجيبة التأليف إذا نقضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها.

ومنها أشعار مموهة مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحاً، فإذا حصّلت وانتقدت بهرجت معانيها، وزيفت ألفاظها، ومجّت حلاوتها، ولم يصلح نقضها لبناء يستأنف منه. فبعضها كالقصور المشيدة، والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور.

وبعضها كالخيام الموتّدة التي تزعزعها الرياح، وتوهيها الأمطار، ويسرع إليها البلى، ويخشى عليها التقوُّض.

وعيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب فما قبله واصطفاه فهو وافٍ، وما مجَّه ونفاه فهو ناقص. والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه، ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله، وتكرهه لما ينفيه، أن كل حاسة من حواس البدن، إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له، إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادة معها.

فالعين تألف المرأى الحسن، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه. والأنف يقبل المشم الطيب ويتأذى بالمنتن الخبيث،

والفم يلتذ بالمذاق الحلو ويمج البشع المر،

والأذن تتشوق للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل.

واليد تنعم بالملمس اللين الناعم المألوف وتتأذى بالخشن المؤذي.

والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق والجائز المعروف المألوف ويتشوّق إليه، ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل والمحال كدر العي، مقوماً من أود الخطأ واللحن، سالماً من جور التأليف، موزوناً بميزان

الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً اتسعت طرقه، ولطفت موالجه، فقبله الفهم وارتاح له وأنس به.

وإذا ورد عليه على ضد هذه الصفة، وكان باطلاً محالاً مجهولاً، انسدت طرقه ونفاه واستوحش عند حسه به، وصدئ له، وتأذى به كتأذي سائر الحواس بما يخالفها.

*

الفارابي*

المدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه.

وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس هو القلب، وأعضاؤها تقرب مراتبها من ذلك الرئيس وكل واحدٍ منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس، وأعضاء أخر فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة.

ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترأس، أصلاً، وكذلك المدينة.

(...) ورئاسة المدينة تكون بشيئين:

أحدهما: أن يكون بالفطرة والطبع معداً لها، والثاني بالهيئة والملكة الإرادية.

والمدينة الجاهلية هي التي لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم، إن أرشدوا إليها فلم يفهموها ولم يعتقدوها.

وإنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التي هي مظنونة في الظاهر أنها خيرات، من التي تظن أنها هي الغايات في الحياة، وهي سلامة الأبدان واليسار والتمتع بالذات.

*

* محمد بن محمد بن طرخان، والفارابي نسبة إلى فاراب. توفي عام 339 هـ.

إن كل واحدٍ من الناس، متى رجع، إلى نفسه وتأمل أحوالها وأحوال غيره،

وجد نفسه في رتبة يشركه فيها طائفة منهم.

ووجد فوق رتبته طائفةً منهم أعلى منزلة منه بجهةٍ أو جهات. ووجد دونها طائفة هم أوضع منه بجهةٍ أو جهات.

إذ ليس في أجزاء العالم ما هو كامل من جميع الجهات. وكذلك الوضيع الخامل الذكر يجد من هو دونه بنوعٍ من الضعة.

ينتفع المرء باستعمال السياسات مع هؤلاء الطبقات الثلاث، أما مع الأرفعين فلينال مرتبتهم،

وأما مع الأكفاء فليفضل عليهم،

وأما مع الأوضعين فلئلا ينحط إلى رتبتهم.

*

إن أنفع الأمور التي سلكها المرء في استجلاب علم السياسة وغيره من العلوم،

أن يتأمل أحوال الناس وأعمالهم ومتصرفاتهم، وما شهدها وما غاب عنها، مما سمعه وتناهى إليه منها،

وأن يمعن النظر فيها، وأن يميز بين محاسنها ومساوئها وبين النافع والضار لهم منها، ثم ليجتهد في التمسك بمحاسنها لينال من منافعها مثلما نالوا، وفي التحرز والاجتناب من مساوئها ليأمن مضارها ويسلم من غوائلها.

*

المرء لا يخلو في جميع متصرفاته من أن يلقى أمراً محموداً، أو أمراً مذموماً،

وله في كل واحد من الأمرين فائدة إن استفادها،

وهو أنه يحتال للتمسك بذلك الأمر المحمود الذي يلقاه إن وجد السبيل إلى التمسك به،

أو يتشبه بالتمسك به بقدر طاقته إن أعوزه ذلك...

وإذا تلقاه الأمر المذموم فليجتهد في التحرز منه والاجتناب عنه،

وإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً وهو واقع فيه ليبالغ في نفيه عن نفسه بغاية ما أمكنه،

وإن لم يمكنه التبرؤ منه فليعزم على نفسه أنه إذا تيسر له الخلاص منه لا يعود إلى أشباهه.

*

من استحق منك الخير فلا تنتظر ابتداءه بالمسألة ليكون أكمل التذاذاً وأهنأ توقعاً.

*

خساسة المرء تُعرف بشيئين:

بقوله في ما لا ينفع، وإخباره عما لا يُسأل عنه.

*

كلما ازددنا علماً ازددنا معرفةً بمنفعة العلم.

*

وسئل:

أي شيء يقدر كل إنسان أن يجود به؟

قال: حبه الخير للناس.

*

وسُئل:

أي حسنة لا يحسد عليها وأي عيب لا يقبله أحد؟

قال: التواضع حسنة لا يحسد عليها،
والكبر عيب يرذله كل أحد.

*

لا تأمن من كذَب لك أن يكذب عليك.

*

يجب على من اصطنع معروفاً أن يتناساه من ساعته. ويجب على من أُسدي إليه أن يكون ذكره نصب عينيه.

*

دعوا المزاح فإنه لقاح الضغائن.

*

إن أحببت أن لا تفوتك شهوتك، فاشْتهِ ما يمكنك.

*

من برئ من الشره نال العز،
ومن برئ من البخل نال الشرف،
ومن برئ من الكبر نال الكرامة.

*

من تشاغل بالأدب فأقل ما يربح من ذلك أن لا يتفرغ للخطل.

*

لا تطلبوا من الأشياء ما أحببتموه،
ولكن أحبوا ما هي محبوبة في أنفسها.

*

ينتقم الإنسان من عدوه بما يتزيد من فضل.

*

المسعودي*

(...) روي عن ابن عباس وغيره:
أن أول ما خلق الله عز وجل الماء،
وكان عرشه عليه.
فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً،
فارتفع الدخان فوق الماء، فسماه سماء.
ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة،
ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين: الأحد والاثنين، وخلق الأرض على حوت.
الحوت في الماء،
والماء على الصفا،
والصفا على ظهر مَلَك،
والملك على صخرة،
والصخرة على الريح.
فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض،
فأرسى الله عليها الجبال،

* علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، المؤرخ، من ذرية عبد الله بن مسعود. معدود في البغداديين وإقامته في مصر. له مؤلفات عديدة في الأخبار والتاريخ، من أهم أعماله: «مروج الذهب». كثير من كتبه مفقود. طاف بلاد المشرق والمغرب يتلقى العلوم والمعارف. توفي سنة 346 هـ بمصر.

فقرت الأرض،

وخلق الجبال فيها،

وخلق أقوات أهلها وسخرها وما ينبغي لها في يومين: يوم الثلاثاء والأربعاء.

ثُمَّ ﴿اسْتَوَى إلى السماء وهي دُخَانٌ﴾* فكان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفّس فجعلها سماءً واحدة.

ثم فتقها فجعلها سبعاً في يومين:

الخميس والجمعة،

وإنما سمي الجمعة، لأن الله جمع فيه خلق السماوات والأرض، ﴿وأَوْحَى فِي كُلِّ سماء أمرها﴾**.

يقول خلق في كلّ سماء خلقها من الملائكة والبحار، وجبال البرد،

وأن سماء الدنيا من زمردة خضراء،

والسماء الثانية من فضة بيضاء،

والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء،

والسماء الرابعة من درة بيضاء،

والسماء الخامسة من ذهب أحمر،

والسماء السادسة من ياقوتة صفراء،

والسماء السابعة من نور،

قد طبقها الله بملائكة قيامٍ على رجلٍ واحدة تعظيماً لله لقربهم منه،

قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة،

---

* سورة فصلت، آية: 11.

** سورة فصلت، آية: 12.

ورؤوسهم تحت العرش، من غير أن تبلغ العرش.

*

(...) ثم بعث الله جبريل إلى الأرض، ليأتيه بطين منها، فقالت له الأرض:

إني أعوذ بالله منك أن تنقصني!

فرجع ولم يأخذ منها شيئاً.

وقال يا رب: إنها عاذت بك.

ثم بعث الله ميكائيل،

فقالت له مثل ذلك،

فرجع ولم يأخذ منها شيئاً.

فبعث الله ملك الموت، فعاذت بالله منه،

فقال: وأنا أعوذ بالله، أن أرجع، ولم أنفذ الأمر.

فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان.

وسمي آدم، لأنه أخذ من أديم الأرض، وقيل غير ذلك.

ووكل الله ملك الموت بالموت،

وجبله الله تعالى،

وتركه حتى صار طيناً لازباً، يلزق بعضه ببعض، أربعين سنة،

ثم تركه حتى أنتن وتغير أربعين سنة،

ثم صوره وتركه بلا روح، من صلصالٍ كالفخار،

حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة وقيل: أربعون سنة.

فكانت الملائكة تمر به فيفزعون منه،

وكان أشدهم فزعاً إبليس، كان يمر به فيضربه برجله، فيظهر له صوت كظهوره من الفخار، وتكون له صلصلة.

*

(...) على أنَّ العلْمَ قد بادتْ آثاره.

وطمِسَ منارهُ،
وكَثُرَ فيه العناء،
وقلَّ الفهماء،
فلا تعاين إلا ممرهاً جاهلاً،
ومتعاطياً ناقصاً،
قد قنعَ بالظنون،
وعميَ عن اليقين.

*

(...) وإن الذي بناها، جعلها على كرسي من الزجاج، على هيئة السرطان، في جوف البحر، وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر.

وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره، وفيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس، أينما كانت من الفلك.

وإذا علت في الفلك فإصبعه مشيرة نحوها فإذا انخفضت، انخفضت يده سفلاً.

ويدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر، إذا صار العدو منه على نحو من ليلة، فإذا دنا وجاز أن يُرى بالبصر، لقرب المسافة، سمع لذلك التمثال، صوت هائل يُسمع من ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدوّ قد دنا منهم، فيرمقونه بأبصارهم.

ومنها تمثال، كلما مضى من الليل والنهار ساعة، سمعوا له صوتاً بخلاف ما صوّت في الساعة التي قبلها، وصوته مُطرِب.*

*

* وصف منارة الإسكندرية، التي بناها الإسكندر، كما يقال. هدمت في عهد الوليد بن عبد الملك بحيلة من رجل رومي أنفذه ملك الروم إلى الوليد.

اجتمع من حكماء البراهمة سبعة في عهد البرهمن في بيت الذهب، فقال بعضهم لبعض:

اجلسوا حتى نتناظر، فننظر ما قصة العالم؟ وما سره؟ ومن أين أقبلنا؟ وإلى أين نمر؟

وهل خروجنا من عدم إلى وجود، حكمة، أو ضد ذلك؟

وهل خالقنا المخترع لنا والمنشئ لأجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة. أم يدفع بفنائنا عن هذه الدار، عن نفسه، مضرة؟

أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص، ما يدخل علينا؟

أم هل هو غني من كل وجه، فما وجه إفنائه إيانا وإعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا؟

فقال الحكيم المنظور إليه منهم:

أترى أحداً من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك، فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة؟

قال الحكيم الثاني:

لو تناهت حكمة الله في أحد العقول، كان ذلك نقصاً من حكمته، وكان الغرض غير مدرك، وكان التقصير مانعاً من الإدراك.

قال الحكيم الثالث:

الواجب علينا أن نبتدئ بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا، ونحن أولى بها، وهي أولى بنا، من أجل أن نتفرّغ إلى علم ما بَعُدَ منا.

قال الحكيم الرابع:

لقد ساء وقوع من وقع موقعاً احتاج فيه إلى معرفة نفسه.

قال الحكيم الخامس:

من ها هنا وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة.

قال الحكيم السادس:

الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه، أن لا يغفل عن ذلك، لاسيما إذا كان المقام في هذه الدنيا ممتنعاً والخروج منها واجباً.

قال الحكيم السابع:

أنا لا أدري ما تقولون، غير أني أخرجت إلى هذه الدنيا مضطراً، وعشت فيها حائراً، وسأخرج منها مكرهاً.

*

(...) لولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، لبطل أول العلم، وضاع آخره.

إذ كان كل علم من الأخبار يستخرج، وكل حكمة منها تستنبط.

والفقه منها يستثار، والفصاحة منها تستفاد وأصحاب القياس عليها يبنون، وأهل المقالات بها يحتجون ومعرفة الناس منها تؤخذ، وأمثال الحكماء فيها توجد، ومكارم الأخلاق ومعانيها منها تقتبس، وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتمس،

وكل غريبة منها تُعرف، وكل عجيبة منها تستظرف.

وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاص والعام.

يوصل به كل كلام، ويتزين به في كل مقام، ويتجمل به في كل مشهد، ويحتاج إليه في كل محفل.*

*

---

* يتكلم على أهمية التاريخ وأخبار الماضين.

أبو الفرج الأصبهاني*

خرج العرجي** إلى الطائف متنزهاً. فمر ببطن النقيع*** فنظر إلى أم الأوقص، وهو محمد بن عبد الرحمن المخزومي القاضي،

وكان يتعرض لها فإذا رآها، رمت بنفسها وتسترت منه، وهي امرأة من بني تميم،

فبَصُر بها في نسوة جالسة وهن يتحدثن، فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب.

فعدل عنها ولقي أعرابياً من بني نصر على بكرٍ له ومعه وطْبا لبن، فدفع إليه ثيابه ودابته وأخذ قعوده ولبنه ولبس ثيابه، ثم أقبل على النسوة فصحن به:

يا أعرابي، أمعك لبن؟ قال:

نعم، ومال إليهن وجلس يتأمل أم الأوقص، وتواثب من معها إلى الوطْبيْن،

وجعل العرجي يلحظها وينظر أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً، وهن يشربن اللبن.

---

* علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم... بن مروان بن الحكم... بن أمية بن عبد شمس، قرشي أموي صاحب كتاب «الأغاني» و«مقاتل الطالبيين». ولد بأصبهان سنة أربع وثمانين ومئتين وتوفي في بغداد سنة 356 هـ.

** العرجي: عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان. شاعر غزل.

*** النقيع: مكان على الطريق إلى الطائف.

فقالت له امرأة منهن:

أي شيء تطلب في الأرض يا أعرابي؟ أضاع منك شيء؟ قال: نعم، قلبي.

فلما سمعت التميمية كلامه، نظرت إليه وكان أزرق، فعرفته، فقالت: العرجي ورب الكعبة، ووثبت وسترها نساؤها، وقلن: انصرف عنا لا حاجة لنا بلبنك.

*

(...) فلو أتينا بما غنّى به شعر شاعر منهم ولم نتجاوزه حتى نفرغ منه لكانت للنفس عنه نبوة، وللقلب منه ملة.

وفي طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء، والاستراحة من معهود إلى مستجد.

وكل مُنْتَقَل إليه أشهى إلى النفس من المنتقَل عنه،

والمُنتظَر أغلى على القلب من الموجود.

وإذا كان هذا هكذا فما رتبناه أحلى وأحسن، ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره ومن قصة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى محدثة، وملك إلى سوقة، وجدٍّ إلى هزل، أنشط لقراءته، وأشهى لتصفح فنونه، لاسيما والذي ضمناه إياه أحسن جنسه، وصفْو ما ألف في بابه، ولباب ما جمع في معناه.*

*

- يا جارية، لقد أخللت بهذا الصوت إخلالاً شديداً.**

---

* يتحدث عن المنهج الذي اتبعه في تأليف كتابه «الأغاني».

** الكلام لمعبد المغني وقد جمعته الصدفة مع رجل وجارية له مغنية في سفينة.

غضب الرجل وقال: ويلك! ما أنت والغناء! ألا تكف عن هذا الفضول فأمنعك. ثم غنت الجواري وغنت إحداهن...

– يا هذه أما تقوين على أداء لحن واحد؟

– ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة! وأقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من السفينة.

فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجواري سكتة، اندفع يغني الصوت الأول الذي أخلت به الجارية حتى فرغ منه فصاح الجواري: أحسنت، والله، يا رجل، فأعده.

– لا والله ولا كرامة. ثم اندفع يغني الثاني، فقلن لسيدهن: ويحك! هذا والله أحسن الناس غناء. فسله أن يعيده علينا، ولو مرة واحدة، لعلنا نأخذه عنه، فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً.

– قد سمعتن سوء رده عليكن وأنا خائف مثله منه. وقد أسلفناه الإساءة، فاصبرن حتى نداريه. ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض، فوثب الرجل، فخرج إليه وقبل رأسه وقال:

– يا سيدي! أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك.

– هبْك لم تعرف موضعي. كان ينبغي لك أن تتثبت ولا تسرع إلي بسوء العشرة وجفاء القول.

– أخطأت وأنا أعتذر إليك مما جرى، وأسألك أن تنزل إلي وتختلط بي.

– أما الآن فلا.

فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه.

– ممن أخذت هذا الغناء.

– من بعض أهل الحجاز. فمن أين أخذه جواريك؟

– من جارية كانت لي ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة وكانت قد أخذت عن أبي عباد معبد وغُني بتخريجها. فكانت تحل مني محل الروح من الجسد، ثم استأثر الله، عز وجل، بها. وبقي هؤلاء الجواري وهن من تعليمها، فأنا إلى الآن، أتعصب لمعبد وأفضله على المغنين جميعاً، وأفضل صنعته على كل صنعة.

– أو إنك لأنت هو! أفتعرفني.

– لا.

– أنا والله معبد. وإليك قدمت من الحجاز، ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لأقصدك بالأهواز. والله لا قصرت في جواريك ولأجعلهن لك في كل واحدة منهن خلفاً من الماضية.

فأكب الرجل والجواري على يديه وقدميه.*

*

قدم جرير بن الخطفى المدينة ونحن** يومئذ شباب نطلب الشعر. فاحتشدنا له ومعنا أشعب. فبينا نحن عنده إذ قام لحاجة وأقمنا لم نبرح. وجاء الأحوص بن محمد الشاعر، من قباء على حمار فقال: أين هذا؟ فقلنا: قام لحاجةٍ، فما حاجتك إليه؟

– أريد والله أن أعلمه أن الفرزدق أشعر منه وأشرف.

– ويحك لا تعرض له وانصرف. فانصرف وخرج.

فجاء جرير فلم يكن بأسرع من أن أقبلَ الأحوص الشاعر، فأقبل عليه، فقال: السلام عليك يا جرير!

---

* من أخبار معبد المغني.

** الرواية للحسين بن يحيى وهو من الأشخاص الذين كان أبو الفرج يروي عنهم الأغاني.

- وعليك السلام.
- يا ابن الخطفى! الفرزدق أشرف منك وأشعر.

فقال جرير: من هذا أخزاه الله؟ قلنا: الأحوص بن محمد الشاعر. فقال: نعم! هذا الخبيث بن الطيب.

- أأنت القائل:

يَقرُّ بعيني ما يَقَرُّ بعينها   وأحْسَنُ شيءٍ ما به العينُ قَرّتِ

- نعم!
- فإنه يقرُّ بعينها أن يدخل فيها مثل ذراع البكر. أفيقرُّ ذلك بعينك؟

*

نزل نوفل بن مساحق مجمعاً من المجامع التي كان ينزلها قيس مجنون بني عامر، فرآه يلعب بالتراب وهو عريان.

فقال لغلامٍ له:

- يا غلام هات ثوباً،

فأتاه به، فقال لبعضهم:

- خذ هذا الثوب فألقه على ذلك الرجل، فقال له:
- أتعرفه جعلت فداك؟
- لا.
- هذا ابن سيد الحي. لا والله لا يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعله الآن، وإذا طُرِح عليه شيء خرقه،

ولو كان يلبس ثوباً لكان في مال أبيه ما يكفيه.

وحدّثه عن أمره، فدعا به وكلمه فجعل لا يعقل شيئاً يكلمه به. فقال له قومه:

- إذا أردت أن يجيبك جواباً صحيحاً فاذكر له ليلى.

فذكرها له وسأله عن حبه إياها، فأقبل عليه يحدثه بحديثها، ويشكو إليه حبه إياها، وينشده شعره فيها، فقال له نوفل:

- الحب صيّرك إلى ما أرى؟

- نعم! وسينتهي بي إلى ما هو أشد ممّا ترى.

- أتحب أن أزوجكها؟

- نعم! وهل إلى ذلك من سبيل؟

- انطلق معي حتى أقدم علي أهلها بك وأخطبها عليك وأرغبهم في المهر لها.

- أتراك فاعلاً؟

- نعم.

- انظر ما تقول!

- لك علي أن أفعل بك ذلك.

ودعا له بثياب فألبسه إياها، وراح معه المجنون كأصح أصحابه، يحدثه وينشده.

فبلغ ذلك رهطها فتلقوه في السلاح وقالوا له:

يا ابن مساحق، لا والله لا يدخل المجنون منازلنا أبداً أو يموت، فلقد أهدر السلطان لنا دمه.

فأقبل بهم وأدبر فأبوا. فلما رأى ذلك قال للمجنون: انصرف، فقال له المجنون:

والله ما وفيت بالعهد.

- انصرافك بعد أن آيسني القوم من إجابتك أصلح من سفك الدماء.

*

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، من نفس طيءٍ صليبيةً، شاعر مطبوع لطيف الفطنة، دقيق المعاني، غوّاص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره.

وله مذهب في المطابق، هو السابق إليه جميع الشعراء. وإن كانوا قد فتحوه قبله، وقالوا القليل منه، فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه.

والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد، وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جداً.

وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف. وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم، إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب.

وهذا مما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سبباً للترفع، وطلباً للرياسة.

وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير، مسقطة إحسانه، ولو كثرت إساءته أيضاً ثم أحسن، لم يقل له عند الإحسان أسأت، ولا عند الصواب أخطأت.

والتوسط في كل شيء أجمل، والحق أحق أن يتّبع.

وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والشعراء والكبراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره، ولا يدركون وإن جدوا آثاره.

وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جده نظيراً ولا لكلامه.

*

(...) رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام! فقلت له:

– ويحك أما تستحي؟

– أرأيت لو كنا في دارٍ فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟

– لا.

– فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر.

فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: روى لنا غير واحد، أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه. لم يدخل النار!

فما بقي أحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه. ويقدّر حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لي العتابي:

ألم أخبرك أنهم بقر.*

*

(...) قدم المهدي البصرة، فأعطى عطايا كثيرة ووصل الشعراء. وذلك كله على يدي يعقوب**. فلم يعطِ بشاراً شيئاً من ذلك.

فجاء بشار إلى حلقة يونس النحوي، فقال:

هل ها هنا أحد يحتشم؟ قالوا له:

لا، فأنشأ بيتاً يهجو فيه المهدي فسعى به أهل الحلقة إلى يعقوب.

فقال يونس للمهدي:

إن بشاراً زنديق وقامت عليه البينة عندي بذلك، وقد هجا أمير المؤمنين. فأمر ابن نهيْك بأخذه، وأزف خروجهم فخرجوا وأخرجه ابن نهيك معه في زورق.

فلما كانوا بالبطيحة، فأمِر به، فأقيم على صدر السفينة وأمر الجلادين أن يضربوه ضرباً يتلفون فيه نفسه ففعلوا ذلك. فجعل يسترجع. فقال بعض من حضر:

---

* أخبار العتابي، الرواية نقلها أبو الفرج عن الحسن بن علي، عن عثمان الوراق الذي شاهد الواقعة.

** يعقوب بن داوود، وزير المهدي.

أما تراه لا يحمد الله؟ فقال بشار:

أنعمة هي فأحمد الله عليها؟ إنما هي بلية أسترجع عليها. فضرب سبعين سوطاً مات منها وألقي في البطيحة.

*

الوزير المهلّبي*

القلب لا يُملك بالمخاتلة، ولا يُدرك بالمجادلة.

له أنعام كثيرة الشهود، وأفضال غزيرة المدود.

لم يعلم في أي حتف تورط، وأي شر تأبط.

محامد أقر بها الراضي والغضبان، وأوضحها الدليل والبرهان.

كيِّس البيع رابح الشراء، حسن الأخذ والعطاء.

يؤذي صدره ويمنعه من النفث، ويجرح خاطره ويعوقه عن العبث.

لما أجاب أطاب، وتفسح في رحاب الصواب.

قد ألنتَ عريكة الدهر له، وكففتَ غرب الزمان عنه.

يفور غيظاً، ويتميّز حقداً، ويتلظّى غضباً، ويزيد حنقاً.

قد قام بيني وبين وصلك حاجز من فعلك، قد ابتذلت جديد ودّه، واستحللت حرام صده.

من حنث في أيمانه، وأخل بأمانته، فإنما ينكث على نفسه.

حلف يمين برّ شهد بها تصديقي، واستيقنتها نفسي.

قد ترامت به البلدان والأسفار، ونبت عنه الأوطان والأوطار، وضاقت به الأعطان والأقطار.

تركت قلبه طافحاً بوجده، ودمعه سافحاً على خده.

---

* الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون (291 – 352 هـ = 903 – 963 م)، من ولد المهلب بن أبي صفرة الأزدي أبو محمد: من كبار الوزراء، الأدباء الشعراء، اتصل بمعزّ الدولة بن بويه، فكان كاتباً في ديوانه، ثم استوزره.

لو سالمه الأسد رام طلبه، أو خاشنه الضر طلب سلمه.

فقد أمرته أن يجعل رأيك سراجه، ورسمك منهاجه،

قد شربت وشلاً من وده، ولبست سملاً من عهده.

لأكشفنه لكل ليل بارد، ونهار واقد.

اكفف عن لحم يكسبك بشماً وفعل يعقبك ندماً.

مستثقل من كراه، ثمل من عناه.

طرقني ثناء ما تتلقى شفتاي بذكره، ولا يثبت بالي لخطره.

لست غافلاً عن الدهر فتتكر نوائبه، ولا مطيقاً له فتدفع مصائبه.

قد تناسخت الأيام قواه، وشذبت الحوادث هواه.

تبدي وجه المطابق والموافق، وتخفي نظر المسارق والمنافق.

لو أن البرق فطنته؛ والريح جنبته، والسد سوره، لتغشاه حسبي، واستخرجه طلبي، ولما خذلته أنصاره، وقطعته أرحامه، وقعدت عنه أشياعه.

أوليته من حمايتي عضداً، ومن عنايتي مدداً، وجدته أمد يداً من باعه، وأبسط قعوداً من قيامه.

مكِّنْ موضع رجلك قبل مشيك، وتأمَّل عاقبة فعلك قبل سعيك.

عصارة لؤم في قرارة خبث. غصن مهصور بالموت، معصور بالتراب.

قد خفّف همه بالشكوى، وحلّ حزنه بالبكاء كما حذيت النعل بالنعل.

وقد الشراك على المثل، يعدل عن النص إلى الخرص، وعن الحس إلى الهجس.

في حكمه صارم فصل، وفي يده خاتم عدل، سديد المذاهب، سعيد المناقب، نجيح المطالب. دلاه في خطر، وأسلمه إلى غرر.

لا زلت في إقامة ممهدة الحشايا، وحركة وطيئة المطايا.

دفعه إلى شفير، وأطلعه على حقير.

استدعى حضوري خالياً، واستدنى مجلسي مكرماً، واستوفى مقالي مصغياً، وأعطاني معروفه مسمحاً، ونزل عن مسألتي مسهلاً، وقضى حاجتي مجملاً. وصرفني بالنجاح عجلاً.

طيّب المغرس، زاكي المنبت، نضير المنشأ، رفيع الفرع، لذيذ الثمر. متقلب بين استقبال شباب، واستقلال حال، وشرخ قصف، وفناء ظرف. وجدت فيه مصطنعاً، وبه مستمتعاً. قد وفر همه على مطعم يجوده، ومرقد يمهِّدُهُ.

أنا أتذمم من استئصال مثلك، وأهب جرمك لفضلك.

من ضاف الأسد قراه أظفاره، ومن حرك الدهر أراه اقتداره.

وجدت فيه مع علو سنه، وأخذ الأيام من جسمه بقية حسنة، ومتعة حلوة.

التصرف أسنى وأعلى، والنسيم أعفى وأصفى. ومهما اخترت من الأمرين أمراً فعنايتي تحرسك فيه، ونظري يمكنك منه.

لو لم يكن في تهجين الرأي المفرد، وتبيين عجز التدبير الأوحد، إلا أن الاستلقاح، وهو أصل كل شيء، لا يكون إلا بين اثنين وأكثر الطيبات أقسام تجمع وأوصاف تؤلف.

*

ابن العميد*

أحمد الله على كل حال، وأسأله أن يعرفني فضل بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته،

وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرته، ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد عليَّ غرة شوال فهي أسرّ الغرر عندي وأقرّها لعيني.

ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر،

ويسلط عليه الحور بعد الكور.

ويرسل عليَّ رقاقته التي يغشي العيون ضوءها، ويحط من الأجسام نوءها، كلفاً يغمرها، وكسوفاً يسترها،

ويرينيه مغمور النور، مقمور الظهور،

قد جمعه والشمسَ برج واحد، ودرجة مشتركة.

ويُنقص من أطرافه كما تنقص النيرات من طرف الزند،

ويبعث عليه الأرضة، ويهدي إليه السوس، ويغري به الدود.

ويليه بالفار ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفه بالذر.

ويجعله من نجوم الرجم.

---

* محمد بن الحسين العميد بن محمد (... – 360 هـ – ... 970 م)، أبو الفضل: وزير من أئمة الكتاب. كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم. وليَ الوزارة لركن الدولة البويهي.

ويرمي به مسترق السمع، ويخلصنا من معاودته، ويريحنا من دورته، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه، ويفعل به فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالألوان.

ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه.

*

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك،

فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية،

ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية،

وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك،

لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك:

أقدم رِجْلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك،

وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك، ومنافسة في الصنيعة لديك، وتأميلاً لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك،

فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو. ويكدر الماء ثم يصفو،

وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء.

وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك،

وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت، وسوء ما آثرت.

وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن،

طمعاً في إنابتك، وتحكيماً لحسن الظن بك،

فلست أعدم فيما أظاهره من أعذار، وأرادفه من إنذار احتجاجاً عليك واستدراجاً لك.

*

زعمت أنك في طرف من الطاعة، بعد أن كنت متوسطها،

وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها، وحلبت شطريها.

فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك: كيف وجدت ما زلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه؟

ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء عديّ، وماء رويّ، ومهاد وطيّ، وكنّ كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف، ويكنفك من نوائب الزمان، ويحفظك من طوارق الحدثان، عززت به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعة، وأيسرت بعد العسرة، وأثريت بعد المتربة، واتسعت بعد الضيقة، وظفرت بالولايات، وخفقت فوقك الرايات، ووطئ عقبك الرجال، وتعلقت بك الآمال، وصرت تُكاثر ويُكاثر بك، وتُشير ويُشار إليك، ويُذْكر على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك، ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عددت، والخلف مما وصفت؟

وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدك؟

وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب؟

قل نعم! كذلك، فهو والله أكثف ظلالك في العاجلة، وأروحها في الآجلة، إن أقمت على المحايدة والعنود، ووقفت على المشاقة والجحود.

ومنها، تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي، فستنكرها. والمس جسدك، وانظر هل يحس؟ واجسسْ عرقك هل ينبض؟ وفتّش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حليَ بصدرك أن تظفر بفوت سريح، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله.

*

من أسر داءه، وستر ظمأه بعُد عليه أن يبلّ من غلله ويبلّ من عِلله.

*

متى خلصت للدهر حال من اعتوار أذى، وصفا فيه شرب من اعتراض قذى؟

*

خير القول ما أغناك جده، وألهاك هزله.

*

الرتب لا تُبلغ إلا بتدرج وتدرب، ولا تُدرك إلا بتجشم كلفة وتصعب.

*

المرء أشبه شيء بزمانه، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه.

*

قد يبذل المرء ماله في إصلاح أعدائه، فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه؟

*

هل السيد إلا من تهابه إذا حضر، وتغتابه إذا أدبر؟

*

اجتنبْ سلطان الهوى، وشيطان الميل، وغلبة الإرادة.

*

المزح والهزل بابان إذا فُتحا لم يُغْلقا إلا بعد العسر، وفحلان إذا أُلقحا لم يُنتجا غير الشر.

*

أبو إسحاق الصابي*

ورد أبو العباس أحمد بن الحسين وأبو محمد جعفر بن شعيب حاجّين، فعرّجا إليَّ ملمّين، وعاجا عليَّ مسلّمين،

فحين عرفتهما، وقبل أن أردَّ السلام عليهما، مددتُ اليد إليهما، كما مدّها حسان بن ثابت إلى رسول جبلة بن الأيهم، ثقةً مني بصلته، وتشوّقاً إلى تكرمته، واعتياداً لإحسانه، وإلفاً لموارد إنعامه، وتيقّناً أن خطوري بباله، مقرون بالنصيب من ماله، وأن ذكراه لي مشفوعة بجدواه، وقمت عند ذلك قائماً، وقبّلت الأرض ساجداً، وكرّرت الدعاء والثناء مجتهداً. وسألت الله تعالى أن يطيل له البقاء، كطول يده بالعطاء، ويمدُّ له في العمر، كامتداد ظلّه على الحرّ، وأن يحرس هذا البدد، القليل العدد، من مشيخة الكتاب، ومنتحلي الآداب، وما كنفهم به من ذراه، وأفاء عليهم من نداه، وأسامهم فيه من مراتعه وأعذبه لهم من شرائعه، التي هم محلئون إلا عنها، ومحرومون إلا منها.

*

أسأل الله تعالى مبتهلاً لديه، ماداً يدي إليه، أن يحيل على مولانا** هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات، وبالزائدات العامرات، ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفياً على المتقدم له، قاصراً عن المتأخر عنه.

---

* إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني، أبو إسحاق الصابي. تقلّد دواوين الرسائل والمظالم والمعاون تقليداً سلطانياً في أيام المطيع لله العبّاسي.

** من كتاب إلى عضد الدولة في التهنئة بتحويل السنة.

ويوفيه من العمر أطوله وأبعده،
ومن العيش أعذبه وأرغده،
عزيزاً منصوراً محمياً موفوراً باسطاً يده، فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحساد،
سامياً طرفه، فلا يغضه إلا على لذة غمض ورقاد.
مستريحة ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عز وملك،
فائزة قداحه فلا يجيلها إلا لحيازة مال وملك، حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامحاً، وتسمو له همته طامحاً.

*

هذا غلام* أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال، والصبر على الإدلال.

واجتمع له إلى ذلك التقلب في نعمة حازها حيازة وارث لها، لم يكدح في تأثيلها، ولا مسه النصب في تثميرها. ولا اهتدى إلى طريق استيفائها، ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها.

ومن ألزم اللوازم في حكم الرعاية أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها، وأن نعذره عند هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها. وأن تكون نفسه محروسة، والبقية من حاله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة، وأن يتحدث الناس بأن سيدي الأمير أصاب غرض الحزم بالقبض عليه، ثم طبق مفصل الكرم في التجاوز عنه.

*

وقد يكون لعمري من ذوي الأرحام الشابكة*، والقرابات الدانية، من يتمادى في العقوق، ويذهب عن حفظ الحقوق.

---

* من كتاب عن بختيار إلى عضد الدولة لما قُبض على أبي الفتح بن العميد ذي الكفايتين في الشفاعة له.

ولا يسع ترك تألفه حتى يرجع، واستصلاحه حتى ينزع.

فإن تجشم الإعراض عنه لرياضة تقصد، أو عاقبة نفع تحمد، لم يبلغ به إلى قطع المعيشة، ومنع المادة، لأن قباحة ذلك بمن يستعمله أكثر من مضرته بمن يعمل معه.

وقد قيل إن الملوك تؤدب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان، هذا في الأتباع والأصحاب، فكيف في الأقران والأتراب؟

*

كتب الأتباع محتاجة عند الملوك إلى قائد** يطرق ويمهد لها،

وسائق يشيع ويحدو بها،

وناصح يعضدها في متضمناتها، ويشفع لها في ملتمساتها، ويعتمد بعرضها في أوقات الفراغ والنشاط، وأحيان الخلوة والانبساط.

*

أما الفرس*** الذي سألت إيثارك به، فقد تقدمنا بقوده إليك. والله تعالى يبارك لك فيه، ويجعل الخير معقد ناصيته، والإقبال غرة وجهه، وإدراك المطالب تحجيل قوائمه. ونيل الأماني طلق شده، وفتح الفتوح غاية شأوه. وسلامة العواقب مثنى عنانه.

*

(...) فإن ثمرة هذه الصناعة هي تقدمة المعرفة بما يكون، والاستعداد له بما يمكن.

ولا أقول: إن ذلك يؤدي إلى دفع مقدور نازل، ولا معارضة محتوم حاصل.

---

* في الشفاعة لأخ له.

** فصل عن نفسه إلى عبد العزيز بن يوسف.

*** في ذكر فرس أُهديَ إليه.

ولكني أقول: ربما كان من سعادة السعيد أن يعلم هذا الأمر فيتصدى لحيازة ما يحب، ويتوقى حلول ما يكره، وربما كان من منحسة المنحوس أن يجهله فيكون كالمسلوب بصره وسمعه، الذي لا يرى فيتحفظ، ولا يسمع فيتيقظ.

وكلا الأمرين لسابق قضاء الله تعالى موافق، ولمتقدم علمه مطابق. وإنما ذكرت ذلك استظهاراً لنفسي إن تعداك كتابي إلى غيرك، ممن لا يهتدي للجمع بين الأمرين، والتعلق منهما بالعروتين. فيظن أن المراعي لأحدهما مخل بالآخر،

وعندي أن الفاصل بينهما لا يخلو من أن يكون ناقص الحظوظ في أدبه، أو ناقص اليقين في دينه.

وأنت ولي ما تفضل به في ذلك معتمد تقديمه، وترك تأخيره، إذ للنفس راحة في تيسير المنتظرات، وعليها كلفة في أن تتمادى بها الأوقات،

على أن ظني بك الإيثار لما آثرت، والتحرز مما حاذرت.

*

ولو لم يكن للخاطب* إلى المخطوب إليه سبب غير ابتدائه إياه بالثقة، والتماس المشابكة، ورضاه به شريكاً مفوضاً في الولد واللحمة والحال والنعمة لكفاه وأجزاه، وأغناه عن كل ما سواه.

حتى إنه لو خطب إلى زاهد لوجب عليه أن يرغب، أو إلى معتاص للزمه أن ينقاد.

لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن الرد عنه، والمقابلة له بضده، فكيف وقد انتظمت بيننا دواعي الإجابة، وارتفعت عن المدافعة؟

* من رسالة عن صديق له في الخطبة.

(...) حتى إذا أوجدنيها الله في جهتك الجليلة، وجمعها لي في منازلك المصونة، بعثتني البواعث وحفزتني الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل، ويتصل بنا الحبل، فكتبت إليك هذه الرقعة خاطباً إليك كريمتك فلانة،

على أن أكون لها كالجفن الواقي لمقلته، والصدر الحاوي لمهجته،

ولك كالولد المطيع لأبيه،

ولأخيها كالأخ المعاضد لأخيه،

فإن رأيت يا سيدي أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة، وتسمع من موصلها ما تجمله عني من تفصيلها، وتتوخى بإجابتي إلى ما سألت تحقيق ظني، وتصديق أملي. فعلت إن شاء الله.

*

ولما صار في السن العليا، والعلة العظمى، بحيث يحرج أن يقيم معه على إمامة قد كلَّ عن تحمل كلّها، وضعف عن النهوض بعبئها وحملها. خلع ذلك السربال على أمير المؤمنين الطائع لله، خلع الناض إليه، والمسلم عليه.

*

وإن من أعظم محن هذا البيت*، أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله،

وأن تؤتى مراسي أوتاده من ذوائب عروشه،

وأن تدب بينهم عقارب المشاحنة، وتسري إليهم أراقم المناقشة.

وتنبث الدواهي فيهم من ذاتهم، وقد كانت محسومة من أضدادهم وعداتهم.

*

* فصل عن بختيار إلى عضد الدولة في التأليف.

ولما صارت صروف الدهر تنوء عليَّ بعد التطريف*، وتجحف بي بعد التحييف، وصادف ما يجدد عليَّ في هذا الوقت منها أشلاء مني منهوكة، وأعظماً مبرية، وحشاشة مشفية، وبقية مودية.

جعلت اختبار الجهات، واغتنام الجنبات، لأنحو منها ما لا يعاب سائله إذا سأل، ولا يخيب آمله إذا أمل.

وكان سيدي أولها إذا عددت، وأولاها إذا اعتمدت.

وكتبت كتابي هذا بيد يكاد وجهي يتظلم منها إذ تخطه، إشفاقاً على مائه مما يريقه، لولا الثقة أنه يحقن مياه الوجوه ويحميها، ويجمها ولا يقذيها.

*

ولما أناخت النكبة من حالي** على طلل قفر؛ وبلقع صفر،

وعون المغارم أثقل وطأة من أبكارها، وأبلغ تأثيراً في ثلمها وإضرارها، فقد اضطرَّني إلى تجشّم ما كنت أجمّه من نداه، والتعرّض لما كنت أدخره من جدواه.

وإنما تُخرج الكرائم وتُبذل النفائس من تزايد الضغطة، وتضايق الخطّة.

*

لله تعالى أقدار*** ترد في أوقاتها، وقضايا تجري إلى غاياتها،

لا يرد شيء منها عن شأوه ومداه،

ولا يصد دون مبلغه ومنحاه.

فهي كالسهام التي لا تثبت في الأغراض، ولا ترجع بالاعتراض.

---

* فصل إلى صديق له، في الشكوى والاستماحة.

** فصل في مثله.

*** فصل في الأقدار.

والناس فيها بين غبطة يجب الشكر عليها، ورزية يوثق بالعوض عنها.

*

للنعم شروط من الشكر* لا تريم ما وجد، ولا تقيم ما قعد.
وكثيراً ما تسكر الواردين حياضها، وتغشي عيون المقتبسين إيماضها.
فيذهلون عن الامتراء لدرتها، ويعمهون عن الاستمتاع بنضرتها.
ويكونون كمن أطار طائرها لما وقع، ونفر وحشيها لما أنس،
فلا يلبثون أن يتعرّوا من جلبابها، وينسلخوا من إهابها، ويتعوضوا منها الحسرة والغليل، والأسف الطويل.

*

ليت شعري بأي قدم تواقفنا** وراياتنا خافقة على رأسك،
ومماليكنا عن يمنيك وشمالك،
وخيلنا موسومة بأسمائنا تحتك،
وثيابنا المنسوجة في طرزنا على جسدك،
وسلاحنا المشحوذ لأعدائنا في يدك.

*

لم يدر في خلده*** أن مثل إحسانه إليك يكفر، ومثل متجره فيك يخسر.
وقد جذب بضبعك من مطارح الأرقاء العبيد، إلى مراتب الأحرار الصيد.

*

تناولتك الألسن العاذلة****، وتناقلت حديثك الأندية الحافلة.
وقلدت نفسك عاراً لا يدحضه الاعتذار، ولا يعفيه الليل والنهار.

*

---

* فصل في ذكر الشكر والكفر.

** فصل عن بختيار إلى سبكتكين الغزني.

*** فصل له إليه أيضاً.

**** فصل إليه أيضاً.

هو أرق ديناً وأمانة*، وأخفض قدراً ومكانة، وأتم ذلاً ومهانة، وأظهر عجزاً وزمانة، من أن تستقل به قدم مطاولتنا، أو تطمئن له ضلوع على منابذتنا.

وهو في نشوزه عنا وطلبنا إياه كالضالة المنشودة، وفي ما نرجوه من الظفر به كالظلامة المردودة.

*

ولما بَعُدَ صيته بعد الخمول، وطلعَ سعده بعد الأفول، وجُمعت عنده الأموال، ووطئت عقبه الرجال، وتضرمت بجسده جوانح الأكفاء، وتقطعت لمنافسته أنفاس النظراء،

نزت به بطنته، فأدركته شقوته،

ونزع به شيطانه، وامتدت في الغيّ أشطانه.

*

والله عالم** أني مع ما عودنيه الله من الإظهار، وأوجدنيه من الاستظهار، ومنحنيه من شرف المكان، وظل السلطان وكثرة الأعوان، لأجزع في مناضلة عضد الدولة من أن أصيب الغرض منه، كما أجزع من أن يصيب الغرض مني،

وأكره أن أظفر به كما أكره أن يظفر بي.

وأشفق من أن أطرف عيني بيدي، وأعضّ لحمي بنابي.

*

إن انتثار النظام إذا بدا لم يقف عند الحد الذي يقدر فلان أن يقف عنده، ولم يخصص الجانب الذي يظن أنه يلحقه وحده،

---

* فصل في ذكره.

** فصل عن بختيار في ذكر عضد الدولة، وما جرى بينهما.

بل يدبُّ دبيب النار في الهشيم،
ويسري كما يسري النّغل في الأديم.
وكثيراً ما تعدى الصحاح مبارك الجرب،
ويتخطى الأذى إلى المرتقى الصعب.

*

قد لحقني من مولانا ما يلحق الرجل تذوي يمينه، وهو بين أن يقطعها ليسلم له ما بعدها، ويا لها من خطة ما أصعبها وأشقها، وورطة ما أحرجها وأضيقها، وبين أن يغضي عليها فيرمي إلى ما هو أعظم من قطعها، وأمض من فقدها.

*

عادوا* إلى الحضرة عود الأنياب إلى أفواهها،
والأظفار إلى براثنها،
والنصال إلى أجفانها،
والسهام إلى كنائنها.

*

وأمير المؤمنين يذهب على آثار الأئمة المهديين**، والولاة المجتهدين، في إقرار ودائعهم عند المترشحين لحفظها، والمضطلعين بحملها، من أولاد أوليائهم وذرية نصائحهم.
إذ كان لا بدَّ للأسلاف أن تمضي، وللأخلاف أن تنمو، كالشجر الذي يغرس لدناً فيصير عظيماً،
والنبات الذي ينجم رطباً فيعود هشيماً.

---

* فصل في ذكر القوّاد.

** فصل عن الخليفة في رعاية حقوق الآباء في الأبناء واصطناع أولاد الأولياء.

فالمصيب من تخيَّرَ الغرسَ من حيث استنجبَ الشجر، واستحلى الثمر، وتعهّد بالعرْف من طاب عنه الخبر، وحَسُن منه الأثر.

*

وخيلنا كالأمواج المتدفقة*، والأطواد الموثقة.

متشوقة عاطية، مستبقة جارية.

تشتاق الصيد وهي لا تطعمه.

وتحن إليه كأنه قضيم تقضمه.

وعلى أيدينا جوارح مؤلَّلَة المخالب والمناسر، مدربة النصال والخناجر، طامحة الألحاظ والمناظر، بعيدة المرامي والمطارح، زكية القلوب والنفوس، قليلة القطوب والعبوس، سابقة الأذناب، كريمة الأنساب، صلبة الأعواد، قوية الأوصال،

تزيد إذا طمعت شرهاً وقرماً،

وتتضاعف إذا شبعت كلباً ونهماً.

فبينا نحن سائرون، وفي الطلب مُعَنَّوْن،

إذ وردنا ماء زرقاء جمامه، طامية أرجاؤه.

يبوح بأسراره صفاؤه، ويلوح في قراره حصباؤه.

وأفانين الطير به محدثة، وغرائبه عليه واقعة، متغايرة الألوان والصفات، مختلفة اللغات والأصوات.

فمن صريح خلص وتهذّب نوعه،

ومن مشوب تهجّن عرقه،

فلما أوفينا عليها، أرسلنا الجوارح إليها، كأنها رُسل المنايا، أو سهام القضايا،

---

* من رسالة في وصف المتصيّد والصيد.

فلم نسمع إلا مسمياً ولم نر إلا مذكياً،
وعدنا لشأننا دفعات، وأطلقناها مرات.

*

ثم عدلنا عن مطارح الخيام، إلى مسارح الآرام، نستقري ملاعبها، ونؤم مجامعها،

حتى أفضينا إلى أسراب لاهية بأطلائها، راتعة في أكلائها.

ومعنا فهود أخطف من البروق، وألقف من الليوث، وأمكر من الثعالب وأدب من العقارب، وأنزل من الجنادب، خمص الخصور، قب البطون، رقش المتون، حمر الآماق، خزر الأحداق، هرت الأشداق، عراض الجباه، غلب الرقاب،

كاشرة عن أنياب كالحراب.

وكم من قبّر أطلقنا عليه بازيّاً فعرج إلى السماء عروجاً، ولجج في أثره تلجيجاً.

فكأن ذلك يعتصم منه بالخالق،
وكان هذا يستطعمه من خالق.
حتى غابا عن النظار، واحتجبا عن الأبصار،
وصارا كالغيب المرجم، والظن المتوهم،
ثم خطفه ووقع به وهما كهيئة الطائر الواحد،
فأعجبنا أمرهما، وأطربنا منظرهما.

*

مآرب الناس منزَّلة بحسب قربها من هزل أو جد، ومرتّبة على قدر استحقاقها من ذم أو حمد.

وإذا وقع التأمل عليها والتدبر لها، وجد أولاها بأن تعده الخاصة نزهة وملعباً، والعامة حرفة ومكتسباً.

الصيد الذي فاتحته طلاب لذة ونظر، وخاتمته حصول مغنم وظفر.

وقد اشتركت الملوك والسوقة في استجماله، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله.

ونطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه.

وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه.

وهو رائض الأبدان، وجامع شمل الأحزان، وداع إلى اتصال العشرة منهم والصحبة، وموجب لاستحكام الألفة بينهم والمحبة.

*

كتبتُ هذا الكتاب*، وأنا أودُّ أن سواد عيني مداده، وبياضها طرسه، شوقاً إلى لألاء غرته، وقرماً إلى تقبيل أنامله، وظمأ إلى ارتشاف بساطه.

وما عسيت أن أبلغ في شكر سيدنا وحمده، على ما أهّلني له من بره ورفده، وجهدي يقصر عن عفوه، وإسهابي يعجز عن وصفه.

وهل أنا في ذلك لو فعلته إلا كمن جارى الحصان بالأتان، وواجه الغزالة بالذُّبالة**، وقارع الحسام بالعصا، وبارى الدرّ بالحصى؟

*

---

* من كتاب له إلى الصاحب.

** الغزالة: الشمس، والذُّبالة: الفتيلة التي احترق بعضها.

أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف*

تآمروا** على الوقوع إلى ناحية الجروم،
وأجنّهم الليل فادّرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، إلى مصارع حتوفهم.

*

لمّا ورد أمير المؤمنين*** النهروان، أنعم بالإذن لنا في تلقّيه على الماء فامتثلناه وتقبلناه،

وتلقانا من عوائد كرمه، ونفحات شيمه، والمخائل الواعدة بجميل آرائه، وعواطف إنحائه، ورعاية ما كنفنا يمنه، وشايعنا عزه،

على أن وصلنا إلى حضرته البهية، في الجديدية، التي استقبلت منه بسليل النبوة وقعيد الخلافة، وسيد الأنام، والمستنزل بوجهه درر الغمام. فتكفأت علينا ظلال نوره وبشره، وغمرتنا جهات تفضله وفضله. وقرب علينا سنن خدمته، وأنالنا شرف القعود بين يديه، على كرسي أمر بنصبه لنا عن يمينه، وأمام دسته.

وأوسعنا من جميل لقياه، وكريم نجواه ما يسم بالعز أغفال النعم، ويضمن الشرف في النفس والعقب، ويكفل من الفوز في الدين والدنيا بنايات الأمل.

---

* عبد العزيز بن يوسف الشيرازي الجكّار (.... – 388 هـ – .... –998 م)، أبو القاسم: وزير، من الكتّاب الشعراء، تقلّد ديوان الرسائل لعضد الدولة البويهي، وعُدَّ من وزرائه وخواص ندمائه.

** من كتاب إلى عضد الدولة في فتح كرمان.

*** من كتاب عنه في عود الطائع إلى بغداد والتقائه معه.

وكانت لنا في الوصول إليه، والقعود بين يديه، في مواقع ألحاظه، وموارد ألفاظه، مراتب لم يُعْطَها أحد في ما سلف. ولم تجد الأيام بمثلها لمن تقدم.

وسرنا في خدمته على الهيئة التي ألقى شرفها علينا، وحصل جمالها مدى الدهر لدينا،

إلى أن سار إلى سدة دار الخلافة والسعود تشايعه، والميامن تواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الإسلام يبتسم إليه.

فعزم علينا بالانقلاب معه على ضروب من التشريف، لا مورد بعدها في جلال، ولا موقف وراءها لمذهب في جمال.

واجتلت الأعين من محاسن ذلك المنظر،

وتهادت الألسن من مناقب ذلك المشهد، ما بهر بصر الناظر.

*

وصل كتاب مولاي* بذكر الفتح الذي ألبسه الله جماله،

والنجح الذي قرب الله عليه مناله،

والنعمة التي نبت عن متعاطيها فانتقلت إليه،

والمملكة التي اضطربت بمالكيها فقرت لديه.

*

ورد عليَّ الخبر** بعارض من الحرارة، وعك له سيدي مؤيد الدولة أيده الله، بعقب دواء تناوله، واتصال ذلك بمليلة أزعجته، وحمى نابتْهُ. فتصرفت

---

* من كتاب عنه إلى أخيه مؤيد الدولة لما فتح جرجان.

** من كتاب عنه إلى أخيه مؤيد الدولة لما فتح جرجان

فيَّ الأفكار، وملكني الإشفاق، وخلص إلى قلبي، من ألم ما عراه، وإلى نفسي، من وجل ما شكاه، ما كاد يوحش جناب الأنس، ويخل بشيمة الصبر،

لولا أنَّ المعهودَ في مثل هذا العارض بعقب الاستفراغ في أكثر الأمر، ثم تفضي عقباه إلى استقبال الصحة والإبلال والقوة.

*

وقد كانت المصيبة* نفرت سرب النعم، ورنقت شرب الأمل، وأوحشت رباع المجد والكرم.

*

وقد كان الغضنفر بن حمدان**، حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقته عن مجاثمه المكايد والكتائب،

تطوّح إلى بلاد الشام، يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع،

ومجاهل يعدها معالم،

يروم انتعاشاً والجد خاذله،

ويبغي انتعاشاً والبغي طالبه.

*

وأما ما صحب فلاناً*** من ألطاف وأتحاف. فقد وصل. وكان البعض منه كافياً في البر، وافياً بالحق.

إلا أن سيدي يأبى إلا الإغراق في اللطف قائلاً وفاعلاً.

---

* من كتاب عنه في ذكر وفاة ركن الدولة.

** من كتاب في ذكر أبي تغلب.

*** من كتاب إلى الأمير خلف بن حمدان.

ومما أقف فيه موقف العذر في مخاطبة سيدي أن فلاناً ورد علي، وقد ضاق الوقت عن توفيته واجب حقه،

لاستمرار العزائم في قصد نواحي العراق لإعادة ما نضب بها من ماء السياسة،

ومال في جنباتها من رواق الأمر والنهي، بضعف المنن، وانتكاث المرر.

وكتبت كتابي هذا وقد استقل في المسير، مقدماً بعون الله كتائب الرعب مستصحباً مفاتح النصر.

*

(...) إن لسان أثره في الفصاحة كلسان قلمه، يتجاريان كفرسي رهان.

وناهيك بالأول اشتهاراً ووضوحاً، وبالتالي غرراً وحجولاً.

(...) وما زالت مخائله وليداً وناشئاً، وشمائله صغيراً ويافعاً، نواطقَ بالحسنى عنه وضوامنَ من النجح فيه،

فقد أصبح الظن إيقاناً، والضمان عياناً، والتقدير بياناً، والاستدلال برهاناً.

*

وكانت لأولئك الكفرة* عادة اشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم،

وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم إذا شربوا بأكف الناس،

---

* من كتاب له إلى الصاحب في فتح عمان وإبادة الزنوج بها. وما وصل إلى عضد الدولة من الغنائم.

وسأل مولاي عن هذا النقل الغريب فَحُكيَ له عنهم أنه لا شيء في الإنسان ألذ من كفه وبنانه،

وكان في ذلك اليوم الذي شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان، ثار من بعض المكامن طوائف من أولئك الكلاب فكبا بعض الغلمان دابته فاختلسوه واقتسموه بينهم وأكلوه في الوقت.

وتعجب الناس من ضرواتهم وقساوتهم.

(...) فانقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة، معتصمين بذمة الجماعة. (...) ووصل أمس غنائم تلك الناحية وفيها فيل صغير بقدر الفرس. ما عُهد ألطف ولا أظرف منه،

وفي الغنائم كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

*

(...) علمت* كيف تنتظمُ فِرَق البلاغة، وتلتقي طُرقُ الخطابة، وتتراءى أشخاص البيان، وتتمايل أعطاف الحسن والإحسان.

وقرأت لفظاً جلياً، حوى معنى خفياً وكلاماً قريباً، رمى غرضاً بعيداً، وفصولاً متباينة،

كساها الائتلاف صور المشاكلة.

ومنحها الامتزاج صبغة المضارعة، ولحمة الموافقة،

فصارت لدلالة الأول منها على الثاني، وتعلق العجز بالهادي، فيها أولاد أرحام مبرورة، وذوات قربى موصولة،

تتعاطف عيونها، وتتناصف أبكارها وعونها.

وصل كتاب سيدي بكلام شرف في نفسه، وكرم في جنسه، فهو جوهر الفضل والألفاظ أعراض،

---

* الكلام على ابن العميد وأدبه.

وعنصر الأدب والمعاني أغراض.

وفهمته فهم من قعدت به الاستطالة عن موقف الشكر فاستسلم،

واكتنفه العجز فسلم وسلم،

وأعيته العبارة عن موجب البر فلاذ بأكناف العجز،

واعترف بالقصور عن مفترض الحق.

وصل كتاب مولاي (...)

ووجدت خطابه مفتتحاً بشكوى الأيام في انحرافها ومكاره إحداثها، فاستوحشت منها لاستيحاشه،

واستعديت عليها لاستعدائه،

وشايعت المهجنين لآثارها، والزارين على أحكامها،

لإعراضها دون آماله، وقدحها في أحواله.

*

أبو القاسم علي بن القاسم القاشاني*

علقت هذه المخاطبة والأشغال تكنفني، وكذا الخاطر بأسباب شتى تقتسمني.

ووراء ذلك كلال الذهن، بارتقاء السن، ونقصان الخواطر، بزيادة الشواغل، واستمرار البلادة، لمفارقة العادة.

وهو والله يعيذه من السوء مقتبل الشباب، زائد الأسباب، مؤتنف المخايل، متجدد الفضائل، إلى علم لا يدرك مضماره، ولا يشق غباره.

فإذا حملني على مساجلته، فقد عرضني للتكشف،

وإن عرضني على محنة التتبع، فقد سلبني ثوب التجمل.

*

أظلني من مولاي عارض غيث أخلف ودقه،

وشامني منه لائح غوث كذب برقه،

فَقُلْ في حران ممحل أخطأه النوء، وحيران مظلم خذله الضوء.

*

وما أرتضي نفسي لمخاطبة مولاي إذا كنت منفي الشواغل، فارغ الخواطر، مخلي الجوارح، مطلق الإسار، سليم الأفكار.

فكيف بي مع كلال الجد، وانغلاق الفهم، واستبهام القريحة، واستعجام الطبيعة؟

والمُعوَّل على النية، وهي لمولاي بظهر الغيب مكشوفة، والمرجع إلى العقيدة، وهي بالولاء المحض معروفة.

---

* من بقيّة مشيخة الكتّاب المتقدمين في البراعة.

فلا مجال للعتب بين هذه الأحوال، كما لا محال للعذر وراء هذا الخلال.

*

مراتع أهل الفضل موبئة، ووجود مطالب النزاع مظلمة غير مضيئة،

إلا في محل الشيخ الخصيب، وفنائه المألف الرحيب.

لا جرم أن الآمال عليه موقوفة، وأعنة الوارد إليه معطوفة، وداره مقصودة، وحاله مكدودة،

والمنهل العذب كثير الزحام.

*

إن كان أودَّاؤه في فضله مستهمين، وأولياؤه في إحسانه فوضى مشتركين، فلي بحمد الله عفو صنائعه، وصفو شرائعه.

لا أسبق إلى جمامها، ولا أنازع ثني زمامها.

فعلى حسب ذلك تصرفي وتحملي من أقسام ما يحدث عنده ويعرض له.

هذا وقد بلغني من تشريف الأمير المؤيد إياه بالعبادة، وإطالته عنده الإقامة ومعه المفاوضة، ما أمكن في نفسي، وقوى ثقتي وأنسي.

فإنه لم يكن إلا سبباً لتجدد هذه النعمة. وذريعة إلى لباس هذه الرتبة.

فالله الذي قرن لمولاي تيسير ما قد قاسى عظيم المجد الذي لا يوازى، وعميم الفخر الذي لا يسامى، ودل بقليل ما مسه على كثير ما وعدت تباشير السعادة من مزيد الكرامة.

*

قد كان منزله مألف الأضياف، ومأنس الأشراف، ومنتجع الركب، ومقصد الوفد.

فاستبدل بالأنس وحشة، وبالنضارة غبرة، وبالضياء ظلمة.

واعتاض من تزاحم المواكب تلازم المآتم، ومن ضجيج النداء والصهيل، عجيج البكاء والعويل.

*

هذه* أطال الله بقاء مولاي أبيات علقتها،

لائقة بالنفس ووفائها،

علماً بأني وإن أعطيت الجهد عنانه، وفسحت للكد ميدانه، لم أدان ما ورد من ألفاظ أيسر ما أصفها به الامتناع عن الوصف أن يتقصاها، والبعد عن الإطناب أن يبلغ مداها.

ولقد قرع سمعي منها ما أراني العجز يخطر بين أفكاري، والقصور يتبختر بين إقبالي وإدباري،

*

---

* من كلام له على أبيات شعر.

ابن نباته الخطيب*

وقد دخلت علينا الفتنة من كل باب، وأطمعتنا الدنيا إطماع السراب، نتهارش على حطامها تهارش الكلاب، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب.

ننظر إلى المعروف نظر الخُزر الغضاب،

ونسكن إلى المنكر سكون الباني بالحُور الكعاب،

وقد أظلنا من العدو سحائب ممتدة الأطناب ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب.**

*

(...) واستشعروا السكينة إذا كشفت الحرب نقابها،

وأطار الإقدام عُقابها،

وأحرَّ اللطام خرابها،

وأمرّ الحِمامُ شرابَها.

ونزلتم للجهاد منزلاً قد أشرعت إليه الجنة أبوابها،

وطالعت الحور الحسان منه أحبابها.

وقيل:

هذه عروس دار الآمال،

---

* عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب. ولد في «ميافارقين» بديار بكر سنة 335 هـ ودفن بها سنة 374 هـ. اشتهر بخطبه التي زعم ابن خلّكان أنه لم يُعمل مثلها. وقد عرض النقاد لخطبه كابن أبي الحديد في «نهج البلاغة» وابن الأثير في «المثل السائر».

** من ديوان الخطب النباتية.

فكونوا الآن خطابها.

وصرخ الشيطان بطغام أعوانه، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه، وهوّل باحتشاد عبدة صلبانه، وضمن لهم ما هو مخفر في ضمانه،

وجاء الحق، وبطل النفاق،

وانسدت بجيوش العدو الجهات والآفاق.*

*

رحم الله امرأً رحم نفسه فبكاها،

وجعل منها إليها مشتكاها.

قبل أن تعلق به خطاطيف المنون،

وتصدق فيه أراجيف الظنون،

وتشرق عليه بمائها مقل العيون،

ويلحق بمن دثر من القرون.

قبل أن يبدو على المناكب محمولاً ويغدو إلى محل المصائب منقولاً،

ويكون عن الواجب مسؤولاً،

وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولاً.

هناك يرفع الحجاب،

ويوضع الكتاب،

وتقطع الأسباب،

وتذهب الأحساب،

ويمنع الإعتاب،

ويجمع من حق عليه العقاب ومن وجب له الثواب،

فيضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

*

---

* من كلام في الحث على الجهاد.

ابن سعدان*

(...) وليكن الحديث على تباعد أطرافه، واختلاف فنونه مشروحاً، والإسناد عالياً متصلاً، والمتن تاماً بيناً، واللفظ خفيفاً لطيفاً، والتصريح غالياً متصدراً، والتعريض يسيراً قليلاً.

وتوخَّ الحق في تضاعيفه وأثنائه، والصدق في إيضاحه وإثباته،

واتق الحذف المخل بالمعنى والإلحاق المتصل بالهذر.

واحذر تزيينه بما يشينه، وتكثيره بما يقلله، وتقليله عما لا يستغنى عنه.

واعمد إلى الحسن فزد في حسنه، وإلى القبيح فانقص من قبحه.

واقصد إمتاعي بجمعه ونظمه ونثره، وإفادتي من أوله إلى آخره.

فلعل هذه المثاقفة تبقى وتُروى، ويكون في ذلك حُسن الذكرى.

ولا تومئ إلى ما يكون الإفصاح عنه أحلى في السمع، وأعذب في النفس، وأعلق بالأدب.

ولا تفصح عما تكون الكناية عنه أستر للعيب، وأنفى للريب. فإن الكَلِم صلفٌ تيّاهٌ لا يستجيب لكلِّ إنسان، ولا يصحب كلَّ لسان. وخطره كثير، ومتعاطيه مغرور، وله أرن كأرن المهر، وإباء كإباء الحرون وزهو كزهو الملك، وخفق كخفق البرق.

وهو يتسهل مرة ويتعسر مراراً، ويذل طوراً ويعز أطواراً، ومادته من العقل، والعقل سريع الحؤول، خفي الخداع.

---

* أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان. كان وزيراً لصمصام الدولة من 372 – 375 هـ. وهذا النص من خطاب له إلى أبي حيان التوحيدي وقد ضمنه أبو حيان في رسالة له إلى هذا الوزير.

وطريقه الوهم، والوهم شديد السيلان،

ومجراه على اللسان، واللسان كثير الطغيان.

وهو مركّب من اللفظ اللغوي والصوغ الطباعي، والتأليف الصناعي، والاستعمال الاصطلاحي،

ومستملاه من الحجا، ودرْيهُ بالتمييز.

ولا تعشق اللفظ دون المعنى، ولا تَهْوَ المعنى دون اللفظ، وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب فإن صناعتهم يغتفر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرهم.

ولست منهم، فلا تَتشبّهْ بهم، ولا تَجْر على مثالهم، ولا تنسجْ على منوالهم، ولا تدخلْ في غمارهم، ولا تكثر ببياضك سوادهم، ولا تقابل بفكاهتك براعتهم، ولا تجذب بيدك رشاءهم.

*

البوزجاني*

لا خير في الحياة إلا مع الصحة والأمن.

*

لا تتحدث مع من يرى حديثك غنماً إلا عند الضرورة.

*

إن يغلبك غيرك في الكلام، فلا يغلبك أحد في السكوت.

*

لا تجالس أحداً بغير طريقته، فإنك إن لقيت الجاهل بالعلم، والماجن بالجد، فقد آذيت جَليسَكَ وأنت مستغنٍ عن إيذائه.

*

* محمد بن محمد بن يحيى، أبو الوفاء البوزجاني، توفي سنة 376 هـ.

المحسن التنوخي*

(...) كان الحلاج يظهر مخاريقه كأنها المعجزات،**
يستغوي بها جهلة الناس.
منها إظهار المآكل في غير أوانها، بِحَيلٍ يقيمها،
فمن لا تتكشف له يتهوس بها،
ومن كان فطناً، لم تخف عليه.
فمن طريف ذلك، ما أخبرني بها أبو بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الشاهد الأهوازي، قال:
أخبرني فلان المنجم، وأسماه ووصفه بالحذق والفراهة،
قال:
بلغني خبر الحلاج، وما كان يفعله من إظهار تلك العجائب والمخرقات، التي يدّعي أنها معجزات،
فقلت:
أمضي وأنظر، من أي جنس هي من المخاريق.
فجئته كأني مسترشد في الدين، فخاطبني وخاطبته، ثم قال: تشهَّ الساعة ما شئت، حتى أجيئك به.

---

* المحسّن بن علي بن محمد التنوخي. ولد بالبصرة سنة 329 هـ. وتوفي ببغداد سنة 384 هـ. كان قاضياً وكان أبوه قاضياً وصار ولده علي قاضياً فهو من أسرة علْم وأدب. تقلد القضاء في عهد عضد الدولة. من أعماله «الفرج بعد الشدة» و«نشوار المحاضرة».

** الحسين بن منصور الحلاج، المتصوف المشهور. والحكاية تُروى من مخاريقه.

وكنا في بعض بلدان الجبال التي لا تكون فيها الأنهار، فقلتُ له: أريد سمكاً، الساعة، طريّاً.

فقال: أفْعَلُ. اجلس مكانك.

فجلست، وقام.

وقال: أدخل البيت، وأدعو الله تعالى أن يبعث لك به.

قال: فدخل بيتاً حيالي وأغلق بابه، وأبطأ ساعة طويلة، ثم جاءني وقد خاض وحلاً إلى ركبته، وماء، ومعه سمكة تضطرب كبيرة.

فقلت له: ما هذا؟

فقال: دعوت الله تعالى، فأمرني أن أقصد البطائح* فأجيئك بهذه، فمضيت إلى البطائح، فخضت الأهواز،** وهذا الطين منها، حتى أخذت هذه.

فعلمت أن هذه حيلة، فقلت له:

تدعني أدخل البيت، فإن لم تنكشف لي حيلة فيه آمنت بك.

فقال: شأنك.

ودخلت البيت، وأغلقته على نفسي، فلم أجد فيه طريقاً ولا حيلةً فندمت.

وقلت: إن أنا وجدت فيه حيلة وكشفتها له لم آمن أن يقتلني في الدار، وإن لم أجد طالبني بتصديقه فكيف أعمل؟

قال:

وفكرت في البيت، فدققت تأزيره، وكان مؤزراً بإزار ساج، فإذا بعض التأزير فارغ.

دخلت، فإذا ثمة باب مسمّر، فولجت منه إلى دار كبيرة، فيها بستان عظيم، فيه صنوف الأشجار، والثمار، والنَّوار، والريحان التي هي في وقتها، وما ليس هو في وقته، مما قد عُتّق وغُطِّي، واحتيل في بقائه.

---

* مكان بين واسط والبصرة مغمور بالماء وفيه سمك.

** الأهواز: جمع هوز. بحيرة يفيض ماؤها من الغياض والآجام.

وإذا بخزائن مليحة، فيها أنواع الأطعمة المفروغ منها، والحوائج لما يُعمل في الحال، إذا طُلب.

وإذا بركة كبيرة في الدار، فخضتها، فإذا هي مملوءة سمكاً، كباراً وصغاراً، فاصطدت واحدةً كبيرةً، وخرجت، فإذا رجلي قد صارت بالوحل والماء إلى حد ما رأيت رجله.

فقلت:

الآن إن خرجت، ورأى هذا معي، قتلني، فقلت:

أحتال عليه في الخروج. فلما رجعت إلى البيت، أقبلت أقول: آمنت وصدقت.

فقال لي: مالك؟

قلت: ما ها هنا حيلة، وليس إلا التصديق بك.

قال: فاخرج.

فخرجت، وقد بَعُدَ عن الباب، وتموَّه عليه قولي. فحين خرجت، أقبلت أعدو إلى باب الدار، ورأى السمكة معي فقصدني، وعلم أني قد عرفت حيلته. فأقبل يعدو خلفي فلحقني، فضربت بالسمكة صدره، ووجهه، وقلت له:

أتعبتَني، حتى مضيت إلى اليمّ، فاستخرجت لك هذه منه.

قال: اشتغل عني بصدره وبعينه، وما أصابه من السمكة وخرجت.

فلما صرت خارج الدار، طرحت نفسي مستلقياً، لما لحقني من الجزع والفزع.

فخرج إليَّ، وصاح بي: ادخل.

فقلت:

هيهات، والله، لئن دخلت، لا تركتني أخرج أبداً.

فقال:

اسمع، والله لئن شئت قتلتك على فراشك، لأفعلن،

ولئن سمعت بهذه الحكاية لأقتلنك، ولو كنت في تخوم الأرض.

وما دام خبرها مستوراً، فأنت آمن على نفسك.

امض الآن حيث شئت. وتركني ودخل.

فعلمت أنه يقدر على ذلك، بأن يدس من يطيعه ويعتقد فيه ما يعتقد: فيقتلني.

فما حكيتُ الحكاية، إلى أن قُتِل.

*

أراد المقتدر الشرب على نرجس في بستان لطيف، في صحن دار، من صغار صحونه.

فقال بعض من يلي أمر البستان: سبيل هذا النرجس أن يُسمَّد، قبل شرب الخليفة عليه بأيام، فيحسن ويقوى.

قال المقتدر:

ويلك، يُستعمل الخرء في شيءٍ يحضرني، وأريد أن أشمه؟

قال:

بهذا جرت العادة في كل ما يراد تقويته من الزروع.

قال المقتدر:

نحن نحميه بغير السماد، فسُحق من المسك بمقدار ما احتاج إليه البستان من السماد وسُمّد به.

وجلس يشرب عليه، يومه وليلته، واصطبح من غده عليه، فلما قام أمر بنهبه.

فانتهب البستانيون والخدم، ذلك المسك كله من أصول النرجس، واقتلعوه مع طينه، حتى خلّصوا المسك، فصار البستان قاعاً صفصفاً.

وخرج من المال شيء عظيم في ثمن ذلك المسك.*

*

---

* رواية أبي القاسم الجهني عن الخليفة العباسي المقتدر.

اشتهى المتوكل أن يجعل كل ما تقع عليه عينه أصفر، مفروشة بديباج أصفر،

وجعل بين يديه الأترجّ الأصفر، وشراباً أصفر في أواني ذهب.

ولم يُحضِر من جواريه إلا الصفر، عليهن ثياب قصب صفر.

وكانت القبة منصوبة على بركة مرصصة يجري فيها الماء. فأمر أن يجعل في مجاري الماء إليها، الزعفران على قدر، ليصفرّ الماء ويجري من البركة، ففعل ذلك.

وكان جلوسه وشربه،

فنفد ما كان عندهم من الزعفران فاستعملوا العصفر،

ولم يقدروا أنه ينفد قبل سُكره فيشترون منه فنفد.*

*

– والله يا عمرو، ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، جاحداً للصنيعة معدِّداً للمثالب، مخفياً للمناقب، وأن الأيام لا تصلح مثلك لفساد طويّتك، وسوء اختبارك.

– خَفِّض عليك فوالله، لأن تكون المنَّة لك عليَّ، خيرٌ من أن تكون لي عليك، ولأن أسيء وتُحسِن، أحْسَنُ من الأحدوثة من أن أسيء وتُسيء. ولأن تعفو في حال قدرتك، أجمل بك من أن تنتقم.

– ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام. قد جعلت لسانك أمام قلبك ثم اضطغنت فيه النفاق. اغرب قبحك الله.**

*

* رواية أبي القاسم الجهني.

** حوار بين وزير المتوكل أحمد بن أبي داؤود والجاحظ.

إسماعيل بن عباد الوزير الصاحب*

قد عرفت** ما شرحه مولاي من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه، فدلتني جملته على بقايا في البدن يحتاج معها إلى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية،

فأما الذي يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته فلأمرين:

أحدهما، أن الجسم (...) لم ينقَ فتنفتق الشهوة الصادقة وترجع العادة السابقة.

والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفئات ولزت بها المبردات قلت الشهوة وضعف الهضم.

ومع ذلك فلابد مما يطفي ويغذي، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المدة بما يقوي منها ويزيل العارض على المكتسب عنها.

(...) والأقراص في آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوي به الطحال، ليتمكن من جذب الفكر لا سيما والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها والبلدة التي وردها،

فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقياً من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طوّل هذا التطويل.

وإنما اغترّ مولاي بأيام السلامة فكان يتبسط في أنواع الطعام ويسرف في تناول الشراب، فامتلأ الجسم من تلك الكيموسات الرديئة.

---

* أبو القاسم، إسماعيل بن أبي الحسن عباد. توفي سنة 385 هـ.

** من رسالة في الطبّ.

وورد بلداً شديد التحليل، مضطرب الأهوية، فوجدت النفس عوناً على حل ما انعقد، ونقض ما اجتمع.

وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها وتتصل مدتها لأن الجسد يخلص خلاص الإبريز، إذا زال عنه الخبث، وسُبك ففارقه الدرن.

وأما الرعشة التي يتألم مولاي منها، ويضيق صدراً بها، فليست محذورة العاقبة، وإنها لتزول بإقبال العافية.

فالرعشة التي تتخوف هي التي تعرض من ضعف القوة الحيوانية كما تعرض للمشايخ، وتؤدي لمشاركتها الدماغ كثيراً من العظام،

فأما هذه التي تعتاد عقيب الحمى فهي على ما قال جالينوس من أن حدوثها يكون إذا شاركت العروق التي تحدث فيها علة العصب، وتزول عنه بزوال الفضل.

وعجب مولاي من تكرهه شمّ الفواكه، ولا غرْوَ إذا عرف السبب، فإن العفونة التي في العروق قد طبقت روائحها آلات الشمّ، مما يصل إليها من الروائح الزكية، يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتكرهها ولا تقبلها، وتأباها ولا تؤثرها.

وهذا راجع إلى مثل ما حكمنا به أولاً من أن هناك فضلاً لا يمكن الهجوم على تحليله، لما يخشى من سقوط القوة، وإن كان مما لم يخرج لم يوثق بوقور الصحة.

وأنا أحمد الله إذ ليست شهوة سيدي متزايدة. فالشهوة الغالبة مع الأخلاط الفاسدة تغري صاحبها بالأكل الزائد، وتعرض للمزاج الفاسد.

إلا أن التغذي لا يجوز إهماله دفعة والتبرم به ضربة.

فإن البدن إذا احتاج إليه وجب للعليل أن يتناوله تناول الدواء الذي يصبر عليه.

وذلك أن في دقة الحمية وترك الرجوع أول فأول إلى عادة الصحة إماتة للشهوة، وخيانة للقوة.

وجالينوس يشرط في العلاجات أجمع استحفاظ القوى، لأن الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر،

إلا أن ذلك بإزاء ما قال الحكيم الأول بقراط في البدن السقيم:

إنك متى ما زدته غذاء زدته شراً.

وهو في نفسه يقول: إن الحمية التي في غاية الدقة ليست بمحمودة. فالطرفان من الإسراف والإجحاف مذمومان. والواسطة أسلم.

*

من استماح البحر العذب، استخرج اللؤلؤ الرطب.

*

من طالت يده بالمواهب، امتدت إليه ألسنة المطالب.

*

من كفر بالنعمة، استوجب النقمة.

*

من نبت لحمهُ على الحرام، لم يحصدْه غير الحسام.

*

من غرّته أيام السلامة، حدّثته ألسن الندامة.

*

من لم يهزه يسير الإشارة، لم ينفعه كثير العبارة.

*

رُبَّ لطائف أقوال، تنوب عن وظائف أموال.

*

الصدر يطفح بما جمعه، وكل إناء مؤد ما أودعه.

*

اللبيب تكفيه اللمحة، وتغنيه اللحظة عن اللفظة.

*

الشمس قد تغيب ثم تشرق.
والروض قد يذبل ثم يورق.
والبدر يأفل ثم يطلع.
والسيف ينبو ثم يقطع.

*

العلم بالتذاكر، والجهل بالتناكر.

*

إذا تكرر الكلام على السمع تقرر في القلب.

*

الضمائر الصحاح، أبلغ من الألسنة الفصاح.

*

الشيء يحسن في إبانه كما أن الثمر يستطاب في أوانه.

*

متن السيف لين، ولكن حده خشن،
ومتن الحية ألين، ونابها أخشن.

*

عقد المنن في الرقاب، لا يبلغ إلا بركوب الصعاب.

*

كتاب المرء عنوان عقله، بل عيار قدره ولسان فضله، بل ميزان علمه.

*

إنجاز الوعد، من دلائل المجد.

*

تأخير الإسعاف، من قرائن الإخلاف.

*

خير البرّ ما صفا وضفا،
وشرّه ما تأخر وتكدر.

*

فراسة الكريم لا تبطئ.
وقيافة الشر لا تخطئ.

*

بعض الوعد كنقع الشراب، وبعضه كلمع السراب.

*

قد يبلغ الكلام، حيث تقصر السهام.

*

ربما كان الإمساك عن الإطالة، أوضح في الإبانة والدلالة.

*

لكل امرئ أمل، ولكل وقت عمل.

*

لا يذهبن عليك تفاوت ما بين الشيوخ والأحداث والنسور والبغاث.

*

كفران النعم، عنوان النقم.

*

للصدر نفثة إذا أُحرج، وللمرء بثة إذا أُحْوِجَ.

*

ما كل امرئ يستجيب للمراد، ويطيع يد الارتياد.

*

إن الأحداث لا رياضة لهم بتدبير الحوادث.

*

إن السنين تغيِّر السنن.

*

من ثقلت عليه النعمة خفّ وزنه،
ومن استمرت به الغرة طال حزنه.

*

وجدت حَرّاً يشبه قلب الصبّ، ويُذيب دماغ الضبّ.

*

قد تحمّلت مع يسير الفرقة، عظيم الحرقة،
ومع قليل البعد كثير الوجد.

*

خطٌّ أحسن من عطفات الأصداغ،
وبلاغة كالأمل آذن بالبلاغ.
فِقرٌ كما انتظمتْ الرياض،
وفصولٌ كما تغازلت المقل المراض،
ألفاظ كما نوّرت الأشجار،
ومعان كما تنفّست الأسحار،
نثر كنثر الورد، ونظم كنظم العقد.
كتابك رقية القلب السليم، وغرة العيش البهيم.
كلام يدخل على الأذن، بلا إذن.

*

عشرته ألطف من نسيم الشمال، على أديم الماء الزلال، وألصق بالقلب، من علائق الحب.

*

(...) استزاد إلى الجمال جمالاً، وعاد بدراً وكان هلالاً،
فإن شئت فالغصن ميالاً، وإن شئت فالدعص منهالاً،
وهو يهدي إليك سلاماً كرقة خده، ونسيم عرفه، وغزارة دمعك من بعده.

*

(...) وما الشأن إلا في أنك تنتقَّل في الهوى تنقّل الأفياء، وتتميّل في الحبّ كشارب الصهباء. فمرة الغضائري، حتى إذا حسبناك قد صرت له وصار لك، وعلق بك أمله وأملك، بعت قديماً بحديث، وتليداً بطريف، واستهوتك حبائل القمى فقمت تفتل في حبله، وتحرص على وصله، ثم تطمع أن تضم ضداً إلى ضد، وتجمع سيفين في غمد.

وهيهات! إن الغضائري قد بلغه ذلك فازورّ وتنمرّ، وغار وتنكّر. وقد كان له عزم في المسير إلى أصبهان، ففتر بفتور صبوتك. وخف بظهور نبوتك.

*

هذا اليوم يا سيدي (...) يعجبني نوؤه (...) وإذ قد غابت شمس السماء عنا، فلا بد أن تدنو شمس الأرض منا.

فإن نشطت للحضور، شاركتنا في السرور.

وإلا فلا إكراه ولا إجبار، ولك متى شئت الاختيار.

*

غداً يا سيدي ينحسر الصيام، وتطيب المدام.

فلابد من أن نقيم أسواق الأنس نافقة، وننشر أعلام السرور خافقة، فبالفتوة فإنها قسم للظراف.

يفرض حسن الإسعاف، لما بادرتها ولو على جناح الرياح.

*

نحن يا سيدي في مجلس غنيّ إلا عنك.

قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج، وفاحت مجامر الأترج.

وفُتقت فارات النارنج، وأنطقت ألسنة العيدان،
وقام خطباء الأوتار،
وهبّت رياح الأقداح،
ونفقت سوق الأنس،
وقام منادي الطرب،
وطلعت كواكب الندماء،
وامتدت سماء الند،
فبحياتي لما حضرت، لنحصل بك في جنة الخلد، وتتصل الواسطة بالعقد.

*

نحن في مجلسٍ راحهُ ياقوت، ونوره درّ، ونارنجه ذهب، ونرجسه دينار ودرهم،
وألسنة العيدان تخاطب الظراف بِهَلُمَّ إلى الأقداح.
لكنا بغيبتك كعقد غُيِّبت واسطته، وشباب أُخذت جدته.
فأحب أن تكون إلينا أسرع من الماء في انحداره، والقمر في مداره.

*

مجلسنا يا سيدي مفتقر إليك، معول في إغنائه عليك،
وقد أبت راحهُ أن تصفو إلا أن تتناولها يمناك،
وأقسم غناؤه لا طاب أو تعيه أذناك،
فأما خدود نارنجه فقد احمرّت خجلاً لإبطائك.
وعيون نرجسه فقد حدقت تأميلاً للقائك.
فبحياتي عليك لما تعجلت.
لئلا يخبث من يومي ما طاب، ويعود من همي ما طار.

*

صرنا في بستان كأنه من خلقه خُلق (...)
فرأينا أشجاراً تميل فتذكر تبريح الأحباب،
وقد تداولتهم أيدي الشراب،
وأنهاراً كأنها من يد مولانا تسيل، أو من راحته تفيض،
(...) فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرّء في السقم، والنار في الفحم،
رأى أن نجعل أنسنا غداً عنده فقلت سمعاً، ولم أستجز لأمره دفعاً،
وألتمس أن أخلفه في تجشيم مولاي إلى المجمع،
ليقرب علينا متناول البدر بمشاهدته،
ولمس الشمس بمطالعته،
فإن رأى أن يشفعني أسعفني.

*

أنا على طرف بستان أذكرني ورده المتفتح بخلقك،
وجدوله السابح بطبعك،
وزهره الجني بقربك.

*

علقت هذه الأحرف، وأنا على حافة حوض ذي ماء أزرق كصفاء ودّي لك، ورقّة قولي في عتابك،
ولو رَأَيْتَهُ لأُنسيت أحواض مأرب ومشارب أم غالب.
وقد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها، وضعفت فبقي ذماؤها.
وسامتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها، وكستها أبراجها،
وحضرتني نارنجات ككرات من سفن ذهبت، أو ثدي أبكار خلقت،
وقد تبرم بي الحاضرون لطول الكتاب فوقفت وكففت، وصدقت على كثير مما له تشوّفت.

*

مضيتُ وشاهدتُ أحسنَ منظرٍ:
فالأرض زمرّدة،
والأشجار وشيٌّ،
والماء سيوفٌ،
والطير قيانٌ.

*

سيدي أعرف بأحكام المروءة من أن يهدى إليها، وأحرص على عمارة سبل الفتوة من أن يحض عليها،

وقديماً حملت أوزار السكر على ظهور الخمر،

وطوى بساط الشراب، على ما فيه من خطأ وصواب،

وكنت البارحة بعقب شكاة أضعفتني ونقلتني عن عادتي،

واستعفيت السقاة غير دفعة فأبوا إلا إلحاحاً عليَّ وإتراعاً إليَّ،

وكرهت الامتناع خشية أن أوقع الكساد في سوق الأنس(...)

فلما بلغت الحد، الذي يوجب الحد، بدر مني ما يبدر ممن لا يصحبه لبّه، ولا يساعده عقله وقلبه.

ولا غرو فموالاة الأرطال، تدع الشيوخ كالأطفال.

فإن رأى أن يقبل عذري، في ما جناه سكري، ويهب جرمي لمعرفته نيتي في صحوي،

وإن أبى إلا معاقبتي جعلها قسمين بين المدام وبيني.

*

لتنوير الخلاف* فضائل لا تحصى، ومحاسن تطول أن تُستقصى،

منها أنّه أوّل ثغر يبسم عنه الربيع ويضحك،

---

* في تنوير باكورة خلاف قد نوّر.

ودرٌّ يُعقد على القضبان ويُسبك،
ولتمايله ادّكار بقدود الأحباب، وتهييج لسواكن الأطراب، وحُمل إليَّ قضيب منه ورداته متعادلة، ولذّاته متقابلة.

*

ما زلت يا سيدي أفكر في تحفة* تجمع أوصاف معشوق وعاشق، وتنظم نعوت مشوق وشائق.
حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لوني، وقد منيت ببعدك، وبليت بصدك.
وكأن عرفها مستعار من عرفك، وظرفها مشتق من ظرفك،
فكأنها بعض من لا أسميه، وأنا أفديه.

*

أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء**، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار،
والمبشرة إخوة يتناسقون، نجباء يتلاحقون.
فادرع يا سيدي اغتباطاً، واستأنف نشاطاً،
فالدنيا مؤنثه والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها.
والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية،
والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب،
والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان، وملاك الحيوان.
والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عرف الأنام.
والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، ولها بعث المرسلون.
فهنيئاً هنيئاً ما أوليت، وأوزعك الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد، وما بقي الأمد.

*

---

* في إهداء أترجّة.

** تهنئة بنت.

خبر سيدي عندي وإن كتمه عني، واستأثر به دوني،

وقد عرفت خبره البارحة في شربه وأنسه، وغناء الضيف الطارق وعرسه، وكان ما كان مما لست أذكره، وجرى ما جرى مما لست أنشره.

أقول: إن مولاي امتطى الأشهب فكيف وجد ظهره؟

وركب الطيار فكيف شاهد جريه؟

وهل سلم على حزونة الطريق؟

وكيف تصرف أفي سَعَةٍ أم ضيق؟

وهل أفرد الحج أم تمتع بالعُمْرة؟

وقال في الحملة بالكرة؟

ليتفضل بتعريفي الخبر فما ينفعه الإنكار، ولا يغني عنه إلا الإقرار، وأرجو أن يساعدنا الشيخ أبو مرة، كما ساعد مرة، فتصلي للقبلة التي صلى إليها، وتتمكن من الدرجة التي خطب عليها.

*

انفردت يا سيدي بتلك انفراد من يحسب مطلع الشمس من وجهها، ومنبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من طرفها، وحقاق العاج من ثديها، ومبادئ الليل من شعرها، ومغرس الغصن في قدها، ومهيل الرمل في ردفها،

وكلا فإنها شوهاء ورهاء خرقاء خلقاء، كأنما محياها أيام المصائب، وليالي النوائب، وكأنما قربها فقد الحبائب، وسوء العواقب، وكأنما وصلها عدم الحياء، وموت الفجأة، كأنما هجرها قوة المنة، وكأنما فقدها ريح الجنة.

*

الله الله في أخيك،

لا تظهر كتابه فيحكم عليه بالماليخوليا وبالتخاييل الفاسدة،

فقد ذكر جالينوس أن قوماً يبلغ بهم سوء التخيل، أن يقدروا أجسامهم زجاجاً فيجتنبوا ملامسة الحيطان خشية أن يتكسروا.

وحكى أن قوماً يظنون أنفسهم طيوراً فلا يتغذون إلا القرطم،

والحظْ كتابي دفعة ثم مزّقه، فلا طائل فيه ولا عائد له ولا فرج عنده.

*

وصل كتاب الأستاذ الرئيس* صادراً عن شطّ البحر بوصف ما شاهد من عجائبه، وعاين من مراكبه، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف أرادتها، واستجابة أدواتها لها متى نادتها، وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع، والمنون بمرقب ومطلع، والدهر بين أخذ وترك، والأرواح بين نجاة وهلك،

إذا أفكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر،

وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة، حبب إليهم الغرر،

وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته وحصولي على مساعدته،

ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم، لم يعتب على الدهر فيما يفنيه من منظر البحر،

ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله، واستعظامه لأهواله، كما لا شيء أبلغ في مفاخره وأنفس في جواهره، من وصف الأستاذ له فإني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال، والسحر الحرام، لا الحلال.

وقد علم أنه كتب ولما أخطر بفكره سعة صدره، فلو فعل ذلك لرأى البحر وشلاً لا يفضل عن التبرض، وثمداً لا يكثر عن الترشف.

*

---

* فصل في كتاب له إلى ابن العميد صدر جواباً عن كتابه إليه في وصف البحر.

أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن*

(...) من لم تهذبه الإقالة هذبه العثار،

ومن لم يؤدّبه والداه أدّبه الليل والنهار.

وما الشأن في هذا، ولكن الشأن في عشر سنين فاتت بين علم ينسى وعلم لا يحصى، واتفاق بلا ارتفاق، وأسفار لم تسفر عن طائل، ولم تغن عني ريش طائر، وبعد عن الوطن، على غير بلوغ الوطر. ورجعت صفر اليدين من البيض والصفر. وأنا بين الرجاء في أن أُقال العثار، والخوف من أن يقال زأر الليث فلا قرار.

إلا أني كنت قدمت تطهير نفسي فلججت حتى حججت. وعدت بغبار الإحرام، وبركة الشهر الحرام.

*

* من خواص الصاحب، وكان يتولى خزانة كتبه، وينخرط في سلك ندمائه، كما يقول الثعالبي.

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي*

الشكر على قدر الإحسان، والسلع بإزاء الأثمان.

*

الإذكار حيث التناسي، والتقاضي حيث التغاضي.

*

النفس مائلة إلى أشكالها، والطير واقعة على أمثالها.

*

الأيام مرآة للرجال، والأطوار معيار النقص فيهم والكمال.

*

العشرة مجاملة لا معاملة،
والمجاملة لا تسع الاستقصاء والكشف،
ولا تحتمل الحساب والصرف.

*

الكريم يعزّ من حيث يهون،
والرمح يشتدّ بأسه حين يلين.

*

الاعتذار في غير موضعه ذنب،
والتكلف مع وقوع الثقة عتب.

*

---

* محمد بن العباس (323 – 383 هـ = 935 – 993 م)، أبو بكر: من أئمة الكتاب، وأحد الشعراء العلماء. ولد ونشأ في خوارزم ومات في نيسابور.

الدواء لغير حاجة إليه داء،
كما أنه عند الحاجة إليه شفاء.

*

الاستقالة تأتي على العثرات، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

*

الذنب للعين العشواء،
في محبة الظلماء وكراهية الضياء.

*

فم المريض يستثقل وقع الغذاء،
ويستمرئ طعم الماء.

*

الكريم إذا أساء فعن خطيئة،
وإذا أحسن فعن عمد ونية.

*

الحرُّ إذا جرح أسا، وإذا خرق رفا،
وإذا ضرَّ من جانب نفع من جوانب.

*

الحرُّ كريم الظفر إذا نال أنال.
واللئيم سيء الظفر إذا نال استنال.

*

الآباء أبوان: أبو ولادة وأبو إفادة،
فالأول سبب الحياة الجسمانية،
والثاني سبب الحياة الروحانية.

*

الغيرة على الكتب من المكارم،
بل هي أخت الغيرة على المحارم،
والبخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه،
ومعرفة بفضله.

*

الرجل إذا قيده عقال الوجل لم ينطلق نحو مطية الأمل.

*

المحجوج بكل شيء ينطق، والغريق بكل حبل يعلق.

*

العاقل يختار خير الشرين، ويميل مع أعدل الثقتين.

*

المدح الكاذب ذم، والبناء على غير أساس هدم.

*

الدهر غريم ربما يفي بما يعد،
والزمان حبلى ربما يتئم في ما يلد،
الدهر أصمّ عن الكلام،
صبورٌ على وقع سهام الملام.
يختصر العيدان، ويهتصر الأغصان، ويخترم الشبّان، ويبلي الآمال والأبدان، ويلحق من يكون بمن كان، الإنسان بالإحسان، والإحسان بالسلطان، والسلطان بالزمان، والزمان بالإمكان، والإمكان على قدر المكان.

*

الدنيا عروس كثيرة الخطّاب، والمُلك سلعة كثيرة الطلاب.

*

الحقُّ حقٌّ وإن جهله الورى، والنهار نهار وإن لم يره الأعمى.

*

العذل طلاق الرجال، والمحنة صيقل الأحوال.

*

الشجاع محبب حتى إلى من يحاربه، كما أن الجبان مبغض إلى من يناسبه، وكذلك الجواد خفيف حتى على قلب غريمه، والبخيل ثقيل حتى على قلب وارثه وحميمه.

*

الدهر يمطل وربما عجل، وما شاء الإقبال فعل.

*

الكريم من أكرم الأحرار، والعظيم من صغّر الدينار.

*

المصيبة في الولد العاق موهبة، والتعزية عنه تهنئة.

*

المحبة ثمن كل شيء وإن غلا، وسلم لكل شيء وإن علا.

*

الدهر يفي بعد غدر، ويجبر عقب كسر، ويتوب بعد ذنب، ويعقب بعد عتب.

*

التقدم للغاية تأخر عنها، والزيادة على الكفاية نقصان منها.

*

النسيب أخو النسيب، والأديب صنو الأديب.

*

الشرف بين الأشراف نسب ولحمة، وذمام وحرمة، فالكريم شقيق الكريم، والعظيم أخو العظيم، وإن افترق بلداهما واختلف مولداهما.

*

إن السيوف على مقادير الأعضاء تفري، وإن الخيل على حسب فرسانها تجري.

*

إنما السؤدد بكثرة الأتباع وكثرة الأتباع بكثرة الاصطناع.

*

تحوم الآمال حيث الرغبة، ويسقط الطير حيث تنثر الحبة.

*

إنما النساء لحم على وضم، وصيد في غير حرم. إلا أن يلاحظن بعين غيور، ونفس يقظ حذور.

*

إن الولاية عزل إن لم يعمر جوانبها عدل.

*

الفرس الجواد إذا ضُرب كبا، والسيف الحسام إذا استكره نبا. واللسان الصدوق إذا كذب هفا.

*

عين الاستحسان آفة من آفات الإحسان.

*

قبول شكر الشاكر التزام لزيادته، واستماع قول المادح ضمان لحاجته.

*

لسان العِيَان أنطق من لسان البيان، وشاهد الأحوال أعدل من شاهد الأقوال.

*

لسان الضجِر ناطق بالهذر.

*

صغير البر ألطف وأطيب كما أن قليل الماء أشهى وأعذب.

*

ثمرة الأدب العقل الراجح، وثمرة العلم العمل الصالح.

*

القتال عن العسكر المنهزم ضرب من المحال وتعرض لسهام الآجال.

*

باب الإحسان مفتوح لمن شاء دخله، وحمى الجميل مباح لمن اشتهى فعله. وليس على المكارم حجاب. ولا يغلق دونها باب.

*

قراءة كتاب الحبيب ترياق سمّ الهمّ.

*

شكر الرخاء أهون من مصابرة البلاء، وحفظ الصحة أيسر من علاج العلة.

*

قليل السلطان كثير، ومداراته حزم وتدبير، كما أن مكاشفته غرور وتغرير.

*

شرٌّ من الساعي من أنصت له، وشرٌّ من متاع السوء من قبله.

*

لا خير في حب لا تحمل أقذاؤه، ولا يشرب على الكدر ماؤه.

*

خير الكلام ما استريح من ضده إلى ضده، فرتع بين هزله وجده.

*

لا ستر أكثف من إقبال ولا شفيع أنجح من آمال.

*

أوجع الضرب ما لا يمكن منه البكاء، وأشد البلوى ما لا يخففه الاشتكاء.

*

أبى الله أن يقع في البئر إلا من حفر، وأن يحيق المكر السيء إلا بمن مكر.

*

ما تعب من أجدى، ولا استراح من أكدى.

*

حبذا كدّاً أورث نجحاً، وشوكة أجنت ثمراً.

*

إذا عتقت المنادمة صارت نسباً دانياً، وكانت رضاعاً ثانياً.

*

نِعْم الشفيع الحب، ونِعْم العون على صاحبه القلب!

*

هل يبرأ المريض بين طبيبين، وهل يسع الغمد سيفين؟

*

لم أر معلماً أحسن تعليماً من الزمان، ولا متعلماً أحسن تعلماً من إنسان.

*

ربما أكل الحر وهو شبعان، وشرب وهو ريان.

*

ما المحنة إلا سيل والسيل إذا وقف فقد انصرف.
وما الأيام إلا جيش والجيش إذا لم يكر فقد فر.

وإذا لم يقبل عليك فقد أدبر عنك.

*

وراء الغيب أقفال، وللمنح والمحن أعمار وآجال.

*

ما أكثر من يخطئ بالصنعة طريق المصنع، ويخالف بزرعه غير موضع المزدرع.

*

أكبر من الأسير من أسره ثم أعتقه، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه، أكرم من النبت الزكي من زرعه. وأكرم من الكريم من اصطنعه.

*

لا صيد أعظم من إنسان ولا شبكة أصيد من لسان، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته وبين من اقتنص إنسياً بمقالته.

*

من أراد أن يصطاد قلوب الرجال، نثر لها حب الإحسان والإجمال، ونصب لها أشراك الفضل والإفضال.

*

في كتمان الداء عدم الدواء، وفي عدم الدواء عدم الشفاء.

*

من لم يذكر أخاه إذا رآه فوجدانه كفقدانه، ووصله كهجرانه.

*

من أجاد الجلب أخذ به ما طلب.

*

من ذا الذي يطمس نجوم الليل ويدفع منسكب السيل، وينضب ماء البحر، ويفني أمد الدهر؟

*

من تكامل نحسه لم تنصحه نفسه،
ومن لم ينهَ أخاه فقد أغراه،
ومن لم يداوِ عليله فقد أدواه.

*

نِعْمَ جُنَّة المرء من سهام دهره نزوله عند قدره،
ونعم السلم إلى الأرزاق طلبها من طريق الاستحقاق.

*

على الكريم واقية من فعله، وله حصن حصين من فضله، فإذا زلت به النعل زلة، أو صال عليه الدهر صولة، أقامته يد إحسانه، وانتزعته من مخالب زمانه.

*

الرجال حصون يبنيها الإحسان،
ويهدمها الحرمان،
وتبلغ بثمرها البر واليسر،
ويحصدها الجفاء والكبر،
وإنه لا مال إلا بالرجال،
ولا صلح إلا بعد قتال،
ولا حياة إلا في ناصية خوف،
ولا درهم إلا في غمد سيف،
والجبان مقتول بالخوف قبل أن يقتل بالسيف،
والشجاع حيٌّ وإن خانه العمر، وحاضر وإن غيّبه القبر.

ومن حاكم خصمه إلى السيف فقد رفعه إلى حاكم لا يرتشى ولا يفتري في ما يقتضي، ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب.

*

لا صغير مع الولاية والعمالة، كما لا كبير مع العطلة والبطالة.

وإنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بواليها، ومطية تحسن وتقبح بممتطيها، وإنما الصدر بمن يليه، والدست بمن يجلس فيه.

وإنما النساء بالرجال، كما أن الأعمال بالعمال.

*

إفراط الزيادة يؤدي إلى النقصان، والمثل في ذلك جار على كل لسان، ولذلك قالوا: صبوة العفيف، وسطوة الحليم، وضربة الجبان، ودعوة البخيل، وجواب السكيت، ونادرة المجنون، وشجاعة الخصي، وظرف الأعرابي.

*

قد يكبر الصغير، ويستغني الفقير، ويتلاحق الرجال، ويعقب النقصان الكمال.

وكلُّ واد عظيم فأوله شعبة صغيرة،

وكل نخلة سحوق فأولها فسيلة حقيرة.

وقد يبتدئ العنب حصرماً حامضاً أخضر جاسياً، ثم يخرج الراح التي هي مفتاح اللذات، وأخت الروح والحياة.

ويكون حشو الصدفة ماءً ملحاً، ثم يصير جوهرة كريمة، ودرة يتيمة. ويكون أول ابن آدم نطفة، وعلقة ومضغة، ثم يخرج منها العالم الأصغر، والحيوان الأرضي الأكبر، الذي دُحيت له الأرض، وسُخِّرت له الأنهار، ومن أجله خلقت الجنة والنار.

*

قد أراحني فلان ببره، لا بل أتعبني بشكره.
وخفف ظهري من ثقيل المحن، لا بل ثقله بأعباء المنن.
وأحياني بتحقيق الرجاء، لا بل أماتني بفرط الحياء.
وأنا له رفيق بل عتيق، وأسير بل طليق.

*

ملاك الأمر الحِمْيَة. فإنه لا يكون قوي الحِمْيَة إلا من يكون قوي الحَمِيّة. ومن غلبته شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية، وانخلع من ربقه الإنسانية.

وحق العاقل أن يأكل ليعيش، لا أن يعيش ليأكل.

وكفى بالمرء عاراً أن يكون صريع مآكله وقتيل أنامله، وأن يجني ببعضه على كله، ويعين فرعه على أصله.

وكم من نعمة أتلفت نفس حر، وكم من أكلة منعت أكلات دهر.

وكم من حلاوة تحتها مرارة الموت.

وكم من عذوبة تحتها بشاعة الفوت.

وكم من سهوة ذهبت بنفس لا يقوى بها العساكر، وقطعت جسداً كانت تنبو عنه السيوف البواتر، وهدمت عمراً انهدمت به أعمار، وخربت بخرابه بيوت بل ديار وأمصار.

*

آفات الكتب

هذا والكتاب ملقى لا موقى، تسرع إليه اليد الخاطئة، وتعرض له الآفات السانحة،

فالماء يغرقه، كما أن النار تحرقه،

والريح تطيره، كما أن الأيام تغيره،

والدخان يسود بياضه، كما أن الخل يبيض سواده.

والرطوبة تضره، كما أن اليبوسة لا تنفعه.

فآفاته أسرع من آفات الزجاج الذي يسرع إليه الكسر، ويبطئ عليه الجبر.

وحوادثه أكثر من حوادث الغنم التي هي لكل يد غنيمة ولكل سبع فريسة.

فأقل آفاته خيانة الحامل، ووقوع الشاغل، وعوائق الفتوح والقوافل.

*

إلا ولولا

الحمد لله الذي جعل الشيخ يضرب في المحاسن بالقدح المعلى، ويسمو منها إلى الشرف الأعلى.

ولم يجعل فيه موضعاً للولا، ولا مجالاً لإلا.

فإن الاستثناء إذا اعترض في المدح أنضب ماءه وكدر صفاءه، وأنطق فيه حساده وأعداءه.

وكذلك قالوا: ما أملح الظبي لولا خنث أنفه،

وما أحسن البدر لولا كلف وجهه،

وما أطيب الخمر لولا الخمار،

وما أشرف الجود لولا الإقتار،

وما أحمد مغبة الصبر لولا فناء العمر،

وما أطيب الدنيا لو دامت.

*

في هذه الناحية رجل قصده الدرهم لا الكرم، وغرضه الثراء لا الثناء، وقبلته البيضاء والصفراء، لا المجد والثناء.

*

ذكر سيدي من شوقه إلى ما لم يتكلم فيه إلا عن لساني، ولم يترجم إلا عن شأني،

وقد طويت بساط المدام، وصحيفة المؤانسة والندام، وطلقت الراح ثلاثاً، وفارقت الغناء بتاتاً،

حتى شكتني الأقداح، واستخفني الراح، ونسى بناني الأترج والتفاح.

*

بلغني ذكر الهدّة، فالحمد لله الذي هدم الدار، ولم يهدم المقدار، وثلم المال ولم يثلم الجمال، وسلط الحوادث على الخشب والنشب،

ولم يسلطها على العرض والحسب، ولا على الدين والأدب،

ولابد للنعمة من عودة، ولابد لعين الكمال من رقية،

ولأن يكون في دار تبنى، ومال يُجبر وينمى، خير من أن يكون في النفس التي لا جابر لكسرها، ولا نهاية لقدرها.

*

صادف ورود الكتاب رمداً في عيني حتى حضرني في الظلمة.

وحبسني بين الغم والغمة،

وتركني أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني، كليل سلاح البصر، قصير خطو النظر،

قد ثكلت مصباح وجهي، وعدمت بعض الذي هو آثر عندي من كلي، فالأبيض عندي أسود، والقريب مني مبعد.

قد خاط الوجع أجفاني، وقبض عن التصرف بناني،

ففراغي شغل، ونهاري ليل، وطول ألحاظي قصار،

وأنا ضرير وإن عددت في البصراء، وأُمِّيّ وإن كنت من جملة الكتّاب والقراء.

قصّرت العلة خطوتي قلمي وبناني، وقامت بين يدي ولساني.

وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات تتجانس مبانيها، وتتكافأ مقاطعها ومعانيها، فيقولون:

القلة ذلة، والوحدة وحشة، واللحظة لفظة، والهوى هوان، والأقارب عقارب، والمرض حرض، والرمد كمد، والعلة قلة، والقاعد مقعد.

*

ذم عامل

ما الذئب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين،

ولا السوس في الخزّ أوان الصيف عنده إلا بعض المحسنين،

ولا الحجاج في أهل العراق معه إلا أول العادلين،

ولا يزدجرد الأثيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلا من الصديقين والشهداء والصالحين.

*

الآفات

من آفات العلم خيانة الوراقين وتخلف المتعلمين.

كما أن آفات الدين فسق المتكلمين وجهل المتعبدين.

وكما أن آفات الدنيا كثرة العامة، وقلة الخاصة،

وكما أن آفة الكرم أن الجود آفة للمنع، وأن البخل سبب للجمع، وأن المال في أيدي البخلاء دون أيدي السمحاء.

وكما أن آفات الحلم أن الحليم مأمون الجنبة، وأن السفيه منيع الحوزة. وكما أن آفة المال أنك إذا صنته عرضته للفساد، وإذا أبرزته عرضته للنفاذ. وكما أن من آفات الشكر أنك إذا قصرت عن غايته غششت من اصطنعك، وإذا أبلغتها أو أبلغت فيه أوهمت من سمعك.

وكما أن من آفات الشراب أنك إذا أقللت منه حاربت شهوتك ولم تقض نهمتك، وإذا أكثرت منه تعرضت للإثم والعار، وأبرزت صفحتك للألم والنار.

وكما أن آفات المماليك أنك إذا بسطتهم أفسدت أدبهم وأذهانهم، وإذا قبضتهم أفسدت وجوههم وألوانهم.

وكما أن من آفات الأصدقاء أنك إذا استقللت منهم لم تصب حاجتك فيهم، وإذا استكثرت منهم لزمتك حوائجك، وثقلت عليك نوائبهم، وكسبت الأعداء من الأصدقاء كما تكسب الداء من الغذاء.

وكما أن من آفات المغنين أن الوسط منهم يميت الطرب، وأن الحاذق منهم ينسى الأدب.

*

أبو الفتح البستي الكاتب*

من أصلح فاسده، أرغم حاسده.

*

من أطاع غضبه، أضاع أدبه.

*

أفحش الإضاعة الإذاعة.

*

الخيبة تهتك الهيبة.

*

الرشوة رشاء الحاجة.

*

اشتغل عن لذاتك، بعمارة ذاتك.

*

حبيبك لا يعيبك.

*

الآثار ألسنة الأقدار.

*

الدنيا فِناءُ الفَنَاء.

*

---

* علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي (... – 400 هـ = ... 1010 م). أبو الفتح: شاعر وكاتب. وُلد في بست قرب سجستان وإليها نسبته.

من كان عبد الحق فهو حر.

*

المراء يهدم المروءة.

*

الفهم شعاع العقل.

*

رضى المرء عن نفسه دليل تخلفه ونقصه.

*

الحدة والندامة فرسا رهان، والجود والشجاعة شريكا عنان، والتواني والخيبة رضيعا لبان.

*

الفكر رائد العقل.

*

الجود وضع الموجود، بموضع الجود.

*

لا تغتر بصحة مزاجك في الهواء الوبيء.
ولا تغتر بقوة بصرك في الظلمة الراكدة.

*

الحدة تريك صورة الجهل.

*

أفضح الفضيحة عدم القريحة.

*

الحلم مطية وطية لكل علو.

*

المنية تضحك من الأمنية.

*

البرايا أهداف البلايا.

*

طلوع العقوق، أفول الحقوق.

*

لا ضمان على الزمان.

*

إفراط السخاوة رخاوة.

*

ربما كانت العطية خطية.

*

لا يعدم الصرعة، ذو السرعة.

*

ربما أغنت المداراة عن المباراة.

*

ما كل خاطر بعاطر.

*

البخل سوس السياسة.

*

العفو يطمس الهفو.

*

التصلف ترجمان التخلف.

*

إفراط الدماثة غثاثة.

*

إفراط الفخامة وخامة.

*

إفراط التأني تواني.

*

ربما تكون المنية هنية.

*

ظل الجفاء، يكسف شمس الصفاء.

*

ليكن إقدامك توكلاً، وإحجامك تأملاً.

*

إخوان هذا الزمان خوّان.

*

الناس عبيد الخواطر.

*

الغيث لا يخلو من العيث.

*

أبو النصر محمد بن عبد الجبّار العتبي*

الاستزارة يوم النحر

(...) هذا يوم كما عرفه تاريخ العام، وغرة الأيام. وقد قُضيت فيه المناسك، وأُقيمت المشاعر، وأُدِّيت الفرائض والنوافل، وحطت عن الظهور بها الآصار والمثاقل.

فالصدور مشروحة، وأبواب السماء مفتوحة. والرغبات مرفوعة، والدعوات مسموعة.

وليت المقادير أسعدتنا بتلك المواقف الكرام والمشاعر العظام،

فنحظى بعوائد خيراتها، ونستهم في محاسن بركاتها.

وإذا قد فاتنا ذاك فما أحوجنا إلى أن نحرم من ميقات الطرب، ونغتسل من دنس الكرب، ونلبس إزار المجون، ونلبي على تلبية الأوتار، ونطوف بكعبة المزاح، ونستلم ركن النشاط، ونسعى بين صفاء القصف، ومروة العزف، ونقف بعرفة الخلاعة، ونرمي جمرات الهموم، ونقضي نفث الوساوس، ونضحي ببدن الأفكار في العواقب.

فإن رأى أن يتفضل بالحضور، لتتميم حجة السرور.

*

رقعة في خطبة الود

أنا خاطب إلى مولاي كريمة وده على صداق قلب معمور بذكره، مقصور على شكره، معترف بفضله، عالم بتبريز خصله.

---

* عاصر أبا الفتح البستي، وزار الأمير أبي منصور سبكتكين.

على أن أصونها من غواشي الصدر في سجوف، وأمسكها مدى الدهر بمعروف، وأنحلها من غادة الرفق، ودماثة الخلق، ووطاءة الجناب، ولطافة العشرة والاصطحاب، مالاً تكتسي معه نفوراً وانقباضاً، ولا تشتكي نشوراً وإعراضاً.

فإن وجدني مولاي كفؤاً له بعد أن جئت راغباً، وبلسان الخطبة خاطباً، أنعم بالإسعاف، وجعل الجواب مقدمة الزفاف حامياً به ديباجة السؤال عن خجلة الرد ووضعة المطال.

وقد قدمت بين يدي هذه النجوى صدقة طلباً للتحاب لا على حكم الاستحقاق والاستيجاب.

ومهما أنعم مولاي بقبولها أيقنت استكفاءه إياي لوده، واستغرقت الوسع والإمكان في شكره، والتحدث بعظيم بره.

*

(...) هنالك يتبين لك* ما جنى عليك سوء صنيعك، وما الذي جاش إليك فرط تضييعك،

فتصحو تارة عن سكرة جفائك، وتسكر أخرى عن سورة أحبائك،

وكم تقرع من ندمٍ أسنانك، وتعضُّ من سدم بنانك،

هيهات ألا ينفع إذ ذاك إلا القلب السليم، والعهد الكريم، والعمل القويم، والسنن المستقيم.

ومن لك بها وقد سودت وجوه آثارك، وتلقيت أمانة العهد بسوء جوارك، وقبح إخفارك،

ولولا التأميل لفيأتك وارعوائك، وانتهائك عن تماديك في غلوائك، لأتاك من أشخاص الإنكار ما يقفك على صلاحك، ويكفك عن فرط جماحك،

---

* الكلام على رجل خرج على السلطة.

فاجلِ الغشاء عن عين رعايتك، واطرحْ القذى عن شرب مخالصتك، وارعَ ما استحفظته من أمانة الفؤاد، واعلمْ بأنك مسئول عن عهدة الوداد،

واكتب في الجواب بما تراعيه منك، وتعذر إن كان في ما أقدمت عليه لك.

*

هذا يومٌ رقّتْ غلائل صحوه، وخننتْ شمائل جوه، وضحكتْ ثغور رياضه، واطّرد زردُ الحسن فوق حياضه،

وفاحت مجامر الأزهار، وانتثرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار.

وقام خطباء الأطيار فوق منابر الأشجار.

ودارت أفلاك الأيدي بشموس الراح، في بروج الأقداح.

وقد سيبنا العقل في مرج المجون، وخلعنا العذار بأيدي الجنون.

فمن طالعنا بين هذه البساتين وأنواع الرياحين، طالع فتياناً كالشياطين، ونصارى يوم الشعانين.

فبحق الفتوة التي زان الله بها طبعك. والمروءة التي قصر عليها أصلك وفرعك، إلا تفضلت بالحضور، ونظمت لنا بك عقد السرور.

*

رقعة

أمتع الله الشيخ بعنوان الشتاء، وباكورة الديم والأنواء، وهنأه الله اليوم الذي هو نسخة جوده، ومجاجة ماء أرواه الله بماء المجد من عوده. وعرفه من بركاته، أضعاف قطر السماء بأقطاره وساحاته، وأضحك قلوبنا ببقائه، كما أضحك الرياض بأندائه.

وحجب عنه صروف الأيام، كما حجب السماء عنا بأجنحة الغمام،

قد حضرني عدة من شركائي في خدمته، فارتحت لاشتراكهم إياي في ما ادرعته من فضل نعمته، وأشفقت من سمة التقصير لديه، فقدت هذه الرقعة

جنيبة عذر بين يدي عارض من التقدير إليه، وفي فائض كرمه ما حفظ شمل الأنس على خدمه،

لا زال مأنوس الجناب، بالنعم الرغاب، مأهول المعاهد، بالقسم الخوالد.

*

عتبك على الدهر داع إلى العتب عليك.

واستبطاؤك إياه صارف عنان اللوم إليك.

فالدهر سهم من سهام الله منزعة عن مقابض أحكامه، ومطلعة من جانب ما حررته مجاري أقلامه.

(...) ومجاري الأشياء على قدر طباعها، وبحسب ما في قواها وأوضاعها.

ومن ذا الذي يلوم الأراقم على النهش بالأنياب، والعقارب على اللسع بالأذناب؟ وأنى لها أن تذم، وقد أشربت خلقتها السم؟ وحكم الله في كل حال مطاع، وبأمره رضى واقتناع.

فاعف الزمان عن قوارض لسانك.

واضرب عليها حجاب الحرص بأسنانك، واذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم، لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.

*

المحن معلقة بين جناحي تقدير، وسوء تدبير.

فأما التي تطلع من جانب المقدار، فالمرء فيه معفى عن كلفة الاعتذار.

وأما التي أوكتها يده ونفخها فوه، فليس لخرقها أحد يرفوه.

وفي فصوص الأفلاك الدائرة، ما يغني عن فصوص العظام الناخرة.

اللَّهُمَّ إلا إذا عميت عين الاختبار، وصُمَّتْ أذنُ الرويّة والاعتبار.

وبلغني ما كان من خطارك بما اعتددته غرة الغرر، ودرة الدرر، ونهبة الأدب، وزيادة الحقب، حتى قمرته الأيدي الخاطفة، واختطفته الأطماع الجارفة، فأعدمت من غير قاطع، وأصبت بغير موت فاجع.

فياله من غبن يلزم المغرم، ويحرق الأرم، ويقطع البنان، ويحير العين واللسان.

نعم يا سيدي قد مسني من القلق لسوء اختيارك، وقبح آثارك، ما يمس من يراك بضعة من لحمه، ودفعة من دمه.

ولا يميزك عن نفسه، في حالتي وحشته وأنسه،

ولكن من طباع النفوس الناطقة أن تنفر عمن يسيئ النظر لذاته.

وتذهب عمن يعمل الفكر في مصالح أموره وجهاته.

ومن غفل عن صلاح نفسه فهو أغفل عن صلاح من سواه،

ومن عجز عن تدبير ما يخصه فهو أعجز عن تدبير من عداه.

(...) وبعد فلم يُنقص من عمرك ما أيقظك، ولا ذهب من مالك ما وعظك. فإياك أن يطعمك اللجاج في معاودة تلك الخطة الشوهاء، فإنها تأخذ منك أكثر مما تعطيك، وتسخطك فوق ما ترضيك.

*

أبو علي الحاتمي*

التحفَ رداءَ الكبر، وأذال ذيول التيه،**
ونأى بجانبه استكباراً، وثنى عطفيه جبرية وازوراراً.
فكان لا يلاقي أحداً إلا أعرض عنه تيهاً،
وزخرف القول عليه تمويهاً.

تخيّل عجباً أن الأدب مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يرد نمير مائه غيره، وروضٌ لم يرد نوّاره سواه، فهو يجني جناه ويقطف قطوفه دون من تعاطاه.

وكل مُجْرٍ في الخلاء يسر، ولكل نبأ مستقر.

فغَبَر جارياً على هذه الوتيرة مدةً مديدة أجرته رسن البغي فيها.

فظل يمرح في تيهه حتى تخيل أنه السابق الذي لا يُجارى في مضمار، ولا يُساوى عذاره بعذار،

وأنه ربّ كلام ومفتضُّ عذارى الألفاظ، ومالك رق الفصاحة ممن وسم نفسه بميسم الأدب، وأنيط من مائه أعذب مشرب، فطأطأ بعض رأسه وخفض بعض جناحه، وطامن على التسليم له طرفه.

*

(...) فنهدت له متتبعاً عوارَه، ومقلماً أظفاره، ومذيعاً أسراره، وناشراً مطاويه، ومنتقداً مِن نظمه ما تسمَّح فيه، ومتحيناً أن تجمعنا دار يشار إلى ربها،

---

* توفي سنة 388 هـ.

** الكلام على المتنبي. الحاتمي يتحدث عن المتنبي ولقائه به ناقداً.

فأجري أنا وهو في مضمار يُعرف به السابق من المسبوق، واللاحق من المقصِّر عن اللحوق.

وكنت إذ ذاك ذا سحابٍ مدرار،

وزندٍ في كل فضيلة وار،

وطبع يناسب صفو العقار، إذا وُشِّيتَ بالحباب، ووشت بها سرائر الأكواب.

هذا وغدير الصبا صافٍ، ورداؤه ضافٍ، وديباجة العيش غضّة وأرواحه معتلّة وغمائمه منهلّة،

وللشبيبة شِرّة وللإقبال من الدهر غِرّة.

*

(...) لما استؤذن عليه لدخولي، نهض من مجلسه مسرعاً، وواری شخصه عني مستخفياً وأعجلته.

ودخلت فأعظمت الجماعة قدري، وأجلستني في مجلسه،

وإذا تحته أخلاق عباءة، قد ألحَّت عليها الحوادث،

فهي رسوم دائرة وأسلاك متناثرة، لم يكن إلا ريثما جلست، فنهضت فوفيته حق السلام، غير مشاحٍّ له في القيام،

لأنه إنما اعتمد بنهوضه عن الموضع ألا ينهض إليَّ. وأعرض عني لاهياً وأعرضت عنه ساهياً.

وأقبل على تلك الزعنفة* التي بين يديه.

*

وأخيراً قال:

---

* الزعنفة: جماعة مختلفة من الناس ليس أصلها واحداً.

أيش خبرك؟ فقلت:

بخير، لولا ما جنيته على نفسي من قصدك ووسمت به قدري من ميسم الذل بزيارتك، وجشمت رأيي من السعي إلى مثلك ممن لم تهذبه تجربة، ولا أدبته بصيرة.

ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى قرارة الوادي وقلت له:

أَبِنْ لي ممَّ تيهك وخيلاؤك وعجبك وكبرياؤك؟

وما الذي يوجب ما أنت عليه من الذهاب بنفسك والرمي بهمتك إلى حيث يقصر عنه باعك ولا تطول إليه ذراعك؟

هل ها هنا نسب انتسبت إلى المجد به؟ أو شرف علقت بأذياله؟ أو سلطان تسلطت بعزه، أو علم تقع الإشارة إليك به؟ إنك لو قدرت نفسك بقدرها، أو وزنتها بميزانها ولم يذهب بك التيه مذهباً لما عدوت أن تكون شاعراً مكتسباً.

*

(...) يا هذا إن قَصَدك شريفٌ في نسبه تجاهلتَ نسبه،

أو عظيم في أدبه صغّرت أدبه، أو متقدم عند سلطانه خفضت منزلته،

فهل المجد تراث لك دون غيرك؟

ألم أستأذن عليك باسمي ونسبي؟

أما كان في هذه الجماعة من كان يعرفني لو كنت جهلتني؟ وهبْ أن ذلك كذلك، ألم تر شارتي؟

أما شممت عطر نشري؟

ألم أتميز في نفسك عن غيري؟

لقد ملأت سمعه تأنيباً، وتفنيداً وهو يقول:

خفّض عليك، أكفف من غربك، أردد من سورتك.
استأْنِ فإن الأناة من شيم مثلك.
فأصحب حينئذ جانبي له، ولانت عريكتي في يده، واستحييت من تجاوز الغاية التي انتهيت إليها في معاتبته.
وذلك بعد أن رضته رياضة الصعب من الإبل،
وأقبل علي معظماً وتوسع في تقريظي مفخماً.

*

مثل القصيدة، مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض،
فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب، غادر الجسم ذا عاهة تتخوَّنُ محاسنَه، وتُعضّي معالمه.
وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصّناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذه الحال احتراساً، يجنبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان، حتى يقع الاتصال، ويؤمن الانفصال.
وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها وانتظامِ نسيبها بمديحها، كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة، لا ينفصل جزء منها عن جزء.
وهذا مذهب احتفى به المحدثون، لتوقد خواطرهم، ولطف أفكارهم، واعتمادهم البديع، وأفانينه في أشعارهم، وكأنه مذهب سهلوا حَزنه، ونهجوا دارسه.

*

أبو الحسن الجرجاني*

(...) لا حرمة أولى بالعناية، وأحق بالحماية،

وأجدر أن يبذل الكريم دونها عِرْضه، ويمتهن في إعزازها ماله ونفسه، من حُرمة العلم الذي هو رونق وجهه، ووقاية قدره، ومنار اسمه، ومطية ذكره. وبحسب عظم مزيته، وعلو مرتبته، يعظم حقّ التشارك فيه، وكما تجب حياطته، تجب حياطة المتصل به وبسببه.

وما عقوق الولد البرّ، وقطيعة الأخ المشفق، بأشنع ذكراً ولا أقبل وسماً، من عقوق من ناسَبك إلى أكرم آبائك وشارك في أفخر أنسابك، ووافقك في أزين أوصافك، ومَتّ إليك بما هو حظّك من الشرف وذريعتك إلى الفخر.

*

(...) وكما ليس من شرط صلةِ رحمك أن تحيفَ لها على الحق، أو تميل في نصرها عن القصد،

فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب، أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه إلى الإسراف.

بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك، فتنتصف تارة، وتعتذر أخرى.

وتحيل الإقرار بالحق عليك شاهداً لك إذا أنكرت،

---

* أبو الحسن علي بن عبد العزيز ولد في مدينة جرجان سنة 290 للهجرة. كان أستاذاً لعبد القاهر الجرجاني وقاضياً من كبار القضاة عند الشافعية. كان طليق العقل، حي الإحساس، حر الوجدان. توفي سنة 392 هـ ودفن بجرجان. له كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

وتقيم الاستسلام للحجة إذا قامت محتجاً عنك إذ خالفت، فإنه لا حال أشد استعطافاً للقلوب المنحرفة وأكثر استمالةً للنفوس المشمئزة، من توقفك عند الشبهة إذا عرضت واسترسالك للحجة إذا قهرت.

*

(...) ولولا أن أهل الجاهلية جدّوا بالتقدم،

واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة،

لوجدتَ كثيراً من أشعارهم معيبة ومسترذلة ومردودة منفية، لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم،

فذهبت الخواطر في الذبِّ عنهم كل مذهب،

وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام.

*

(...) وملاك الأمر في هذا الباب* خاصة، ترك التكلف، ورفض التعمل والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنف به.

ولست أعني بهذا كل طبع، بل المهذب الذي صقله الأدب، وشحذته الرواية وجلته الفطنة، وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبيح.

*

(...) فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخُّر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات.

ولكانَ أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد عليه الآية بالكفر،

---

* يريد باب الشعر والنثر.

ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأضرابهما بكماً خرساً.
ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر.

*

ومتى سمعتني أختار للمحدث هذا الاختيار، وأبعثه على التطبع، وأحسن له في التسهل،

فلا تظنن أني أريد بالسهل، المسح الركيك الضعيف ولا باللطيف، الرشيق الخَنِث المؤنث.

بل أريد النمط الأوسط، وما ارتفع عن السَّاقط السُّوقيّ، وانحط عن البدوي الوحشي.

ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه،

بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطانك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك،

بل ترتب كلّاً مرتبته وتوفيه حقه،

فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه،

فإن المدح بالشجاعة والبأس، يتميز عن المديح باللباقة والظرف،

ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام. ولكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه.

وليس ما رسمته لك في هذا الباب، بمقصورٍ على الشعر دون الكتابة، ولا بمختص بالنظم دون النثر.

بل يجب أن يكون كتابك في الفتح أو الوعيد أو الاعتذار، خلاف كتابك في الشوق أو التهنئة، أو اقتضاء المواصلة. وخطابك إذا حذرت وزجرت

أفخم منه إذا وعدت ومنيت. وأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى التهكم والتهافت، وما اعترض بين التعريض والتصريح، وما قربت معانيه، وسهل حفظه، وسرُع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس. فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم.*

*

كانت العرب ومَن تبعها من سلف هذه الأمة تجري على عادةٍ في تفخيم اللفظ وجزالة المنطق، لم تألف غيره، ولا عرفت تشبيهاً سواه.

وكان الشعر أحد أقسام منطقها، ومن حقه أن يخص بتهذيب ويفرد بزيادة عناية.

فإذا اجتمعت تلك العناية والطبيعة، وانضاف إليها معلِّمو الصنعة، خرج كما تراه فخماً جزلاً وقوياً متيناً.

وقد كان القوم أيضاً يختلفون في ذلك، وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر الرَّجل، ويصلب شعر الآخر، ويدمث منطق هذا، ويتوعَّر منطق غيره.

وإنما ذلك بحسب اختلاف الطباع وتركيب الخُلق،

فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة.

وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك،

وترى الجافي الجلف منهم كزَّ الألفاظ، جهم الكلام، وعرَ الخطاب،

حتى إنك ربما وجدت الغضاضة في نغمته وصوته، وفي حديثه ولهجته،

ومن شأن البداوة أن تُظهر بعض ذلك.

ولما اتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر،

---

* الكلام في النقد الأدبي.

ونزعت البوادي إلى القرى،

وفشا التأدب والتظرف،

اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله،

وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء فاستعملوا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً،

وإلى ما للعرب فيه لغات،

فاقتصروا على أسلسها وأرشقها.

*

قابوس بن وشمكير*

الرجاء كنَوْرٍ في كمام، والوفاء كنور في الظلام.

*

الوسائل أقدام ذوي الحاجات.

*

من أقعدته نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام.

*

من ألبسه الليل ثوب ظلمائه نزعه عنه النهار بضيائه.

*

قوة الجناح بالقوادم والخوافي.

*

اقتناء المناقب، باحتمال المتاعب.

*

إذا الدهر أعار، فاحسبه قد أغار.

*

ترك الجواب داعية الارتياب.

*

---

* شمس المعالي قابوس بن وشمكير، شخصية جذابة شغلت أرفع مكان في عصرها. كان ملكاً من ملوك الديلم. ملك على جرجان وطبرستان سنة 366 هـ. كان أديباً له مجموعة رسائل نشرت بعنوان «كمال البلاغة». توفي سنة 393 هـ. ولقبه «شمس المعالي» أطلقه عليه الخليفة الطائع لله.

همُّ المنتظر للجواب طويل، والمدى فيه وإن كان قصيراً طويل.

*

هيهات أن تكتسب الأرض لطافة الهواء، ويصير البدر كالشمس في الضياء.

*

إنّا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة،
إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة،
ولو لم يكن لنا هذا التدرب والممارسة للمشاهدات، ثم القياس بها على المُغيَّبات،
لكنا نأبى قبول قول واصف لحيوان ما، على صورة مخالفة لمعهودنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التي شاهدناها.

*

ابن فارس*

(...) ومن ذا الذي حظر على المتأخر مضادَّة المتقدم؟

ولِمَ تأخذ بقول من قال: «ما ترك الأول للآخر شيئاً» وتدع قول الآخر «كم ترك الأول للآخر؟»

هل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال؟

وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول؟

ومَن قصر الآداب على زمانٍ معلوم ووقت محدود؟

ولمَ ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك مثل رأيه؟

وما تقول لفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم؟

أوِ ما علمت أنّ لكل قلب خاطراً، ولكل خاطر نتيجة!

ولِمَ جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه؟

ولم حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرّمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً؟

وما حبيب** إلا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم؟

ولم جاز أن يُعارض الفقهاء في مؤلفاتهم، وأهل النحو في مصنفاتهم، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم،

---

* نسبه ابن الأنباري إلى المكان الذي ولد فيه، الري. لم تُعرف سنة ولادته. توفي بالري سنة 395 هـ. أهم أعماله كتاب «الصاحبي» نسبة إلى الصاحب بن عباد وهو كتاب في اللغة.

** حبيب: هو الشاعر أبو تمام الطائي.

ولم يجز معارضة أبي تمام في كتابٍ شذَّ عنه في الأبواب التي شرعها فيه؟

أمر لا يدرك ولا يدرى قدره!

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علمٌ كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلّت أفهام ثاقبةٌ، ولكلّت ألسن لَسِنَةٌ ولما توشّى أحد لخطابه ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولمجَّت الأسماع كلَّ مردّدٍ مكرّر، وكلَّ مرجَّعٍ ممضَّغ.

*

أبو هلال العسكري*

البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة،
ولا على ملك دون سوقة،
ولا على لسان دون لسان.
بل هي مقسومة في أكثر الألسنة،
فهم فيها مشتركون.
وهي موجودة في كلام اليونان وكلام العجم، وكلام الهند وغيرهم،
ولكنها في العرب أكثر لكثرة تصرفها، في النثر والنظم والخطب والكتب والسجع المزدوج والرجز.
وهم أيضاً متفاوتون فيها،
فقد يكون العَبْدُ بليغاً ولا يكون سيده، وتكون الأمة بليغة، ولا يكون ربها.
فالبلاغة قد تكون في أعراب البادية دون ملوكها،
وقد يحسنها الصبي والمرأة.

*

الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته، وتخيّر لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه وتشابه أعجازه بهواديه، وموافقة مآخيره لمباديه، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر. فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه.

---

* الحسن بن عبد الله العسكري، نسبةً إلى عَسْكر مُكْرم.

فإذا كان الكلام كذلك، كان بالقبول حقيقاً، وبالتحفظ خليقاً. وإذا كان الكلام جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة. واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلِم من حيف التأليف، وبَعُدَ عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب فقبِلَهُ ولم يَرُدّه وعلى السّمع المصيب فاستوعبه ولم يمجه،

والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع.

(...) وليس الشأن في المعاني،

فالمعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي،

وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه.

*

أبو القاسم الآمدي*

(...) ثم إنّ العلم بالشِّعر قد خُصَّ بأن يدّعيه كلُّ أحدٍ،
وأن يتعاطاه من ليس من أهله.

فلم لا يدّعي أحد هؤلاء المعرفةَ بالعين والورق والخيل والسلاح والرقيق والبزّ والطيب وأنواعه؟

ولعله قد لابس من أمر الخيل وركوبها والسلاح والعلم بذلك أو الرقيق واقتنائه، أو الثياب ولبسها، أو الطيب واستعماله أكثر مما عاناه من أمر الشعر وروايته،

فلا يتهم نفسه في المعرفة بالشعر تهمته إياها بالمعرفة ببعض هذه الأشياء مما عاناه وتناوله!

*

وما باله، وقد ركب الخيل كثيراً، لمّا راقه من الفرس ملاحةُ سبيبه واستدارة كفله، وبريقُ شعره وحُسْن إشراقه، وجودة خصره، توقف عن ابتياعه حتى يشاور من يخبره عن عتقه وموضع نتاجه، وصحة قوائمه، وسلامة أعضائه، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة؟

*

وكذلك السَّيف لمّا بهره جلاؤه، وصقاله، وصفاء حديدته لم يُمض فيه اختيارَه على غيره من السيوف،

---

* الحسن بن بشر الآمدي، أبو القاسم، له كتاب (الموازنة) توفي سنة 397 هـ..

حتى شاورَ من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه.

*

فجاء أبو تمام على أثره، واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غيرَ خالٍ من هذه الأصناف.

فسلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظ والمعاني استكراهاً،

ففسد شعره وذهبت طلاوته، ونشف ماؤه.

فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام هذا المذهب وسبقه إليه.

وكل ما في المسألة، أنه استكثر منه وأفرط،

فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه، وأكبر عيوبه.

أما البحتري، فإنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة، على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة. فكان انفراده بحسن العبارة، وحلاوة اللفظ، وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمّل، سبباً في إجماع الناس على استحسان شعره، واستجادته وتداوله.

ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته، واضطلاعه بما يلائم الأذواق، ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه.

*

إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه.

أما النقاد والعلماء، فقد فهموه وعرفوا قدره،

وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن من بعدها عليه.

*

لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزاعي من الشعر، ومنزلتهم من العلم بكلام العلم.

وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدراءهم بشعره، حتى قال دعبل:

إن ثلث شعره محال، وثلثه مسروق، وثلثه صالح. وقال:

ما جعل الله أبا تمام من الشعراء، بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر.

وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام:

إذا كان هذا شعراً فكلام العرب باطل.

وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دوّن له كبيرَ شيء.

إن دعبلاً كان يشْنأ أبا تمام ويحسده، على ما هو معروف ومشهور، فلا يقبَل قول شاعرٍ في شاعر.

وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه.

*

وكذلك لمّا أعجبه من ثوب الوشي حُسْنُ طرزه، وكثرة صوره وبديع نقوشه، واختلاط ألوانه،

لم يبادر إلى إعطاء ثمنه، حتى رجع إلى أهل العلم بجوهره، وكثرة مائه، وجودة رقعته، وصحة نساجته، وخلاص إبريسمه.

*

فكيف لم يفعل ذلك بالشعر، لمّا راقه حُسن وزنه وقوافيه ودقيق معانيه، وما يشتمل عليه من مواعظ وآداب، وحكمٍ وأمثال،

لم يتوقف عن الحكم له على ما سواه، حتى يرجع إلى من هو أعلم منه بألفاظه، واستواء نظمه، وصحة سبْكه، ووضع الكلام منه في مواضعه، وكثرة مائه ورونقه،

إذ كان الشعر لا يُحكم له بالجودة إلا بأن تجتمع هذه الخلال فيه.

*

ألا ترى أنه قد يكون فرَسان سليمين من كل عيب،

موجود فيهما سائر علامات العتق، والجودة، والنجابة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر، بفرقٍ لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدربة الطويلة.

*

وكذلك الجاريتان البارعتان في الجمال، المتقاربتان في الوصف السليمتان من كل عيب،

قد يَفْرِق بينهما العالِم بأمر الرقيق، حتى يجعل بينهما في الثمن فضلاً كبيراً.

فإذا قيل له، وللنخاس:

من أين فضّلت أنت هذه الجارية على أختها؟

ومن أين فضلت أنت هذا الفرس على صاحبه؟

لم يقدر على عبارة توضح الفرق بينهما،

وإنما يعرفه كل واحدٍ بطبعه، وكثرة دربته، وطول ملابسته.

*

فكذلك الشعر:

قد يتقارب البيتان، الجيدان، النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر، أيهما أجود، إن كان معناهما واحداً،

أو أيهما أجود في معناه إن كان معناهما مختلفاً.

*

– أخبرني عن معرفة النغم وبيّنها لي.*

– إن من الأشياء، أشياء تحيط بها المعرفة، ولا تؤديها الصفة.

*

---

* المعتصم يسأل إسحاق الموصلي وقد استخدم الآمدي هذا الحوار شاهداً على نظريته في النقد.

– اختر شعرين متقاربين واذكر أفضلهما.

– فعلت.

– من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان.

– لو تفاوتا لأمكنني التبيين. ولكنهما تقاربا، ففضل هذا بشيء تشهد له الطبيعة ولا يعبر عنها اللسان.*

*

– إنك لا تزال ترد الشيء من الشعر، وتقول:

هو رديء والناس يستحسنونه؟

–إذا قال لك الصيرفي:

إن هذا الدرهم زائف، فاجهد جهدك أن تنفقه،

فإنه لا ينفعك قول غيره: إنه جيد.**

*

فمن سبيل مَن عُرِف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه، وطول الملابسة له،

أن يقضيَ له بالعلم بالشعر والمعرفة بأغراضه،

وأن يسلّم له الحكم فيه، ويقبَل منه، ما يقوله، ويعمَل بمثله على ما يمثله ولا يُنازع في شيءٍ من ذلك.

*

ليس في وسع كل أحدٍ، أن يجعلك أيها السائل المتعنت والمسترشد المتعلم، في العلم بصناعته كنفسه،

---

* كالشاهد الذي سبقه والحوار بين إسحاق الموصلي والأمين.

** حوار مع خلف الأحمر وهو شاهد ينضم إلى سابقيه.

ولا يجد إلى قذف ذلك في نفسك، ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به سبيلاً، ولا أن يأتيك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة وإن كنت اعترضت فيه اعتراضاً صحيحاً،

وما سألت عنه سؤالاً مستقيماً لأن ما لا يُدرك إلا عن طول الزمان، ومرور الأيام، لا يجوز أن تحيط به في ساعة من نهار.

*

– إن أبا تمام انفرد بمذهبٍ* اخترعه** وصار فيه أوّلاً وإماماً متبوعاً، وشُهِرَ به، حتى قيل:

هذا مذهب أبي تمام وطريقة أبي تمام. وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهي فضيلة عريَ من مثلها البحتري.

– ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه، ولا سابق إليه،

بل سلك فيه مسلم بن الوليد، واحتذى حذوه، وأفرط في ذلك، وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسنن المألوف.

بل إن مسلماً غير مُبْتَدعٍ له. ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع متفرقةً في أشعار المتقدمين، فقصدها وأكثر في شعره منها. ولكنه حرص أن يضعها في مواضعها. ولم يسلَم مع ذلك من الطعن عليه، حتى قيل: إنه أول من أفسد الشعر، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول:

لا أدري، فعدل إلى الطعن عليه،

ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس.

*

---

* وضع الآمدي مناظرة ليوازن فيها بين شعر أبي تمام وشعر البحتري.

** مذهب البديع.

لا عيب على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب، إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة.

والعيب في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية.

*

إن العلم في شعر أبي تمام أظهر منه في شعر البحتري، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم.

*

كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً،

وكان الأصمعي شاعراً عالماً،

وكان الكسائي كذلك،

وكان خلف بن حيان الأحمر، أشعر العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء،

وقد كان أبو تمام يعمل على أن يَدُل في شعره على علمه، باللغة وكلام العرب.

أما البحتري فلم يقصد هذا ولا اعتمده، ولا كان يعده فضيلة ولا يراه علماً. بل كان يرى أنه شاعر، لابد له أن يقرِّب شعره من فهم سامعه، فلا يأتي بالغريب، إلا أن يتفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرصٍ عليه.

*

على أن هذا العلم الذي تؤثرون به أبا تمام، لم ينفعه.

فقد كان يلْحَن في شعره لحناً يضيق العذر فيه،

ولا يجد المتأول له مخرجاً منه، إلا بالحيلة والتمحل الشديد.

*

لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وَهِمَ في بعض شعره، وعدل عن الوجه الأوضح، في كثيرٍ من معانيه،

وغير غريبٍ على فكرٍ نتج من المحاسن ما نتج، وولّد من البدائع ما ولّد، أن يلحقه الكلال في الأوقات، والزلل في الأحيان.

بل من الواجب لمن أحسن إحسانه، أن يُسامَح في سهوه، وأن يُتجاوز له عن خطأه.

*

وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية، سلِم من الطعن،

ولا من لم تأخذ الرواة عليه الغلط والعيب،

وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن، أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه، أو ندلّ عليه.

وما كان أحد من أولئك، وهؤلاء، مجهول الحق، ولا مجحود الفضل، بل عفا إحسانهم على إساءتهم، وتجويدهم على تقصيرهم.

*

أما أخذُ السهو والغلط عَمَّن أُخِذَ عنهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة.

أما أبو تمام، فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو محيلاً، أو عادلاً عن السنن، أو مستعيراً استعارةً قبيحة، أو مخطئاً للمعنى بطلب الطباق والتجنيس أو مبهماً بسوء الإدارة والتعقيد، حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج.

*

– إنكم تنكرون على أبي تمام من الفضل، ما يعترف به البحتري نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق، وفضله على شعراء عصره.

- لِمَ لا يفعلُ البحتري ذلك، وقد كان هو وأبو تمام، صديقين متحابّين وأخوين متصافيين، يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب. فليس بُمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه، وينحله ما ليس فيه. على أن الميت خاصةً، يُعطى في تأبينه من التقريظ والوصف، وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه.

*

كيفما كان الأمر، لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء، أن جيِّد أبي تمام، لا يتعلق به جيد أمثاله. وإذا كان جيده بهذه المكانة، وكان من الممكن إغفال رديئه وإطِّراحه، كأنه لم يقله، فلا يبقى ريبٌ في أنه أشعر شعراء عصره، والبحتري واحد منهم.

*

إنما صار جيّدُ أبي تمام موصوفاً ومذكوراً، لندرته، ووقوعه في تضاعيف الرديء، فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه. وجيّدُ البحتري كجيِّد أبي تمام، إلا أنه يقع في جيِّدٍ مثله أو متوسط، فلا يفاجئ النفس منه، ما يفاجئها من جيد صاحبه.*

*

* من مناظرة بين صاحبي أبي تمام والبحتري.

أبو الفرج الببغا*

شوقي إليه شوقُ من لم يجد مع بعده عوضاً عنه، فتقوده الزيادة إلى الانصراف بالرغبة عنه.

*

شوقي إليه شوق من فقد بالكره سكَنه، وفارق بالضرورة وطنه.

*

إن تزايلت الأشباح، فقد تواصلت الأرواح. وإن نزحت الأشخاص وبعدت، فقد دنت الأنفس وتقاربت. فلا تُمضّ الفرقة وتؤلم (...) وقد يُنال بتناجي الضمائر وتحاور السرائر ما لا تصل إليه الإشارة، ولا تدل عليه العبارة.

إذ الأنفس البسيطة أرقّ مَسرى، وأبعدُ من الألسنة مَرْمى.

*

ألطف المِنن موضعاً، وأجلها من الأنفس موقعاً،
ما عمَر أوطانَ المسرة، وطرد عوارض الهم والفكرة،
وجمع شمل المودة والإلفة، وأدى إلى اجتناء ثمرة اللذة.**

*

ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك،

---

* عبد الواحد بن نصر المخزومي، ولقب بالببغاء للثغة في لسانه. توفي سنة 398 هـ.

** كلام من رسالة يستهدي بها شراباً.

إلى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالتي الألم والصحة، والمرض والمحنة.

فالحمد لله الذي شرّف طبعي بمناسبتك وجمّل خلقي بملاءمتك، فيما ساء وسرَّ،

وأشكره، على ما خصّني به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقالتك.*

*

* كلام من رسالة تهنئة لصديق بشفائه من مرضه.

بديع الزمان الهمذاني*

(...) وما أجد لعمّارٍ** مثلاً، إلا الغراب.
لا يقع إلا مذموماً على أي جنب وقع.
إن نعب فروعةُ النذير،
وإن حجل فمشية الأسير،
وإن شحج فصوت الحمير،
وإن أكل فدبر البعير،
وإن سرق فبلغة الفقير.
كذلك عمّار إن حذفت عينه فالحين،
وإن حذفت ميمه فالشين،
وإن حذفت راءه فالرين،
وإن صحّف خطه فالمين،
وإن لاحقته فالمعاذير الكاذبة،
وإن استقصيته فالوجه العبوس،
وإن صدقته فالظفر اللئيم،
وإن زرته فالحجاب الثقيل،
وإن لم تزره فالعذاب الطويل.

*

* كنيته أبو الفضل ولقبه بديع الزمان واسمه أحمد بن الحسين. ولد في همدان واستقر في خراسان. ومات فيها بمدينة هراة سنة 398 هـ.

** صورة وصفية لرجل يدعى عمار بن الحسين.

(...) إني لأجد في شعره* بيتاً،
لو رؤي في المنام لأوجب الغسل حسّاً،
وبعده بيتاً إذا سرد ينقض الطهارة مسّاً.
ولعمري لو أن هذين البيتين كانا نبتين ما نبتا في أرض، أو تمْرين ما جنيا من غصن.
فكذلك إذا كانا شعرين، يبعد أن يصدرا عن صدر، أو يطبعا في طبع، أو يصبّا على قالب قلب.
أو يكونا نفَسَي نفس. فقد يسمن الشاعر ثم يغث، ويجيد القائل ثم يرِثّ،
ولكن لا كما تراه في شعر أبي بكر.

*

أنت ولدي** ما دمت، والعلم شأنك، والمدرسة مكانك، والمحبرة حليفك والدفتر أليفك،
فإن قصَّرْت ولا أخالك، فغيري خالك.

*

(...) فَوَليَ*** المظالمَ وهو لا يعرف أسرارها،
وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها.
والأمانة عند الفاسق، خفيفة المحمل على العاتق، تشفق منها الجبال ويحملها الجهال.
فقبّحه الله من حاكم، لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام، يُدلى بهما إلى الحكام،

---

* تعريض بأبي بكر الخوارزمي.

** رسالة إلى ابن أخته.

*** من رسالة في ذم القاضي أبي بكر الحيري.

ولا مُزكّى أصدق لديه من الصُّفرِ ترقص على الظّفر.
ولا وثيقة أحبّ إليه من غمرات الخصوم، على الكيس المختوم.
ولا وكيل أوقع بوفائه من خبيئة الذيل وحمال الليل.
ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق، في وقتي الغسق والفلق.
ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس،
ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفْلس.

(...) وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود بل الحيات السود، لكانت سلامته منها أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه.

وما ظن القاضي بقومٍ يحملون الأمانة على متونهم، ويأكلون النار في بطونهم،
حتى تغلظ قطراتهم من أموال اليتامى،
وتسمَن أكفالهم من مال الأيامى؟

وما ظنك بدارٍ عمارتها خراب الدور وعطلة القدور، وخلاء البيوت من الكسوة والقوت؟

وما قولك في رجلٍ يعادي الله في الفلس، ويبيع الدين بالثمن البخس،
وفي حكم يبرز في ظاهر أهل السمت، وباطن أصحاب السبت،
فِعْلهُ الظلم البحت، وأكله الحرام السحت؟
وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام،
وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام،
ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف،
وكردي لا يغير إلا على الضعاف،
وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود،
ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود؟

*

الحرُّ إذا نظرَ علمَ أن نِعَم الدهر مادامت معدومة فهي أماني،
وإن وُجدت فهي عواري،
وإن مِحَنَ الزمان وإن طالت فسوف تفد،
وإن لم تصب فكأن قد.
فكيف يشمت بالمحنة من لا يأنسها في نفسه، ولا يعدمها في جنسه؟
والشامت أن أفلت فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت.
وما أقبح الشماتة، بمن أمِن الإماتة، فكيف بمن يتوقّعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة،
والدهر غرثان طعمه الخيار* وظمآن شربه الأحرار،
فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يسر العاقل بسلاح قاتله؟

*

أنا لِقرب الأستاذ،** أطال الله بقاءه، كما طرب النشوان مالت به الخمر،
ومن الارتياح للقائه، كما انتفض العصفور بلله القطر،
ومن الامتزاج بولائه، كما التقت الصهباء والبارد العذب، ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب. فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق وخراسان، بل ما بين عتبتي نيسابور وجرجان؟
وكيف اهتزازه لضيف في بُردة جمّال وجلدة حمّال؟

*

(...) فإني*** وإن كنت في مقتبل السن والعمر،

---

* خيار الناس.

** بديع الزمان يقدم صورة وصفية عن نفسه.

*** بديع الزمان يقدم صورة وصفية عن نفسه.

قد حلبت شطري الدهر وركبت ظهري البر والبحر،
ولقيت وفدي الخير والشر،
وصافحت يدي النفع والنصر،
وضربت إبطي اليسر والعسر،
وبلوت طعمي الحلو والمر،
ورضعت ضرعي العُرْف والنكر،
فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريباً،
أو تسمعني من أحوالها عجيباً.
ولقيت الأفراد،
وطرحت الآحاد،
فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتي سمعه وبصره،
وشغلت حيّزي فكره ونظره.

*

(...) وأحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب وخصوصه بالرغائب،
فهو يدعو الجفَلى إذا ساء، ويختص بالنعمة إذا شاء، فلينظر الشامت فإن كان أفلت، فله أن يشمت،
ولينظر الإنسان في الدهر وصروفه، والموت وصنوفه،
من فاتحة أمره إلى خاتمة عمره. هل يجد لنفسه أثراً في نفسه، أم لتدبيره عوناً على تصويره أم لعمله تقديماً لأمله، أم لحيله تأخيراً لأجله؟
كلا بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً،
خُلق مقهوراً ورُزق مقدوراً،
فهو يحيا جبراً ويهلك صبراً.
وليتأمل المرء كيف كان قبلاً،

فإن كان العدم أصلاً، والوجود فضلاً فلنعلم الموت عدلاً.

والعاقل من رفع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ما ضر بما نفع،

وإن أحب أن لا يحزن، فلينظر يمنةً هل يرى إلا محنة،

ثم ليعطف يسرةً هل يرى إلا حسرة؟

(...) وبكيت والسخي يجود بما يملك،

وضحكت وشر الشدائد ما يضحك.

وعضضت الإصبع حتى أدميته،

وذممت الموت حتى تمنيته.

والموت خطبٌ عظُم حتى هان،

وأمر قد خشُن حتى لان،

ونكرٌ قد عمَّ حتى عاد عُرفاً.

والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموت أخفَّ خطوبها،

وجنَتْ حتى صار أصغر ذنوبها،

وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها،

وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها.

*

(...) فقلنا: ما تقول في امرئ القيس؟

- هو أول من وقف في الديار وعرَصاتها،

واغتدى والطير في وُكناتها،

ووصف الخيل بصفاتها،

ولم يقل الشعر كاسباً،

ولم يُجِد القول راغباً.

ففضل من تفتق للحيلة لسانه،

وانتجع للرغبة بنانه.

- والنابغة؟

- يثْلِب إذا حَنق،

ويمدح إذا رغب،

ويعتذر إذا رهب، ولا يرمي إلا صائباً.

- وزهير؟

- يذيب الشعر والشعر يذيبه،

ويدعو القول والسحر يجيبه.

- وطرفة؟

- هو ماء الأشعار وطينتها،

وكنز القوافي ومدينتها.

- فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟

- المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر من المعاني حظاً. والمتأخرون ألطف صنعاً، وأرقّ نسجاً.

*

(...) يا بني* إني وإن وثقت بمتانة عقلك، وطهارة أصلك، فإني شفيق، والشفيق سيء الظن.

ولست آمن عليك النفس وسلطانها والشهوة وشيطانها.

إن الكرم أسرع في المال من السوس،

وإن القرَم أشأم من البسوس**.

ودَعْني من قولهم:

---

* وصية أبي الفتح الإسكندري لابنه وقد جهزه للتجارة.

** البسوس: المرأة التي اشتهرت باسمها حرب «البسوس».

إن الله كريم! إنها خُدعة الفتى عن اللبن.

بلى إن الله كريم، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه، وينفعنا ولا يضره،
ومن كانت هذه حاله فلتكرم خصاله.

فأما كرم لا يزيدك حتى ينقُصني، ولا يريشك حتى يبريني، فخذلان لا أقول:

عبقري، ولكن بقريّ، أفهمتها يا ابن المشؤومة!

*

القربُ أوفى وأوفر، وأوقى وأوقر، وأنكى وأنكر، وأحلى وأحلم، وأقوى وأقوم، وأبلى وأبلغ، وأشجى وأشجع، وأسمى وأسمح، وأعطى وأعطف، وألطى وألطف، وأحصى وأحصف، وأنقى وآنق،

ولا ينكر ذلك إلا وقح وتح،

ولا يجحده إلا نغل نغِر.

*

أحمد الله، وأذمّ الدهر فما ترك لي فضة إلا فضَّها،

ولا ذهباً إلا ذهب،

ولا عِلقاً إلا علِقه ولا عقاراً إلا عقره،

ولا ضيعة إلا أضاعها،

ولا مالاً إلا مال إليه،

ولا حالاً إلا حال عليه،

ولا فرساً إلا افترسه،

ولا سنداً إلا استبدَّ به،

ولا عبداً إلا لبدَ فيه،

ولا بزَّة إلا بزها،

ولا عارية إلا ارتجعها،
ولا وديعة إلا انتزعها،
ولا خلعة إلا اختلعها،
وأنا داخل نيسابور،
ولا حلية إلا الجلدة.
ولا بُردة إلا القشرة.

*

(...) يلبس دينيّته ويخلع دينْيَتيّه،
ويسوّي طيلسانه، ليحرّف يده ولسانه،
ويقصر سباله ليطيل حباله،
ويبدي شقاشقه ليطيل مخارقه،
ويبيض لحيته ليسوّد صحيفته،
ويظهر ورعه ليخفي طمعه،
ويغشى محرابه ليملأ جرابه ويكثر دعاءه،
ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً، ويقعد حاكماً.*

*

الأخوّة بردَةٌ لا تضيق عن اثنين.

*

حدثنا عيسى بن هشام قال:**

كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الإسكندري، رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتعطيه.

---

* صورة وصفية لقاضٍ.

** المقامة المضيرية نسبة إلى المضيرة. نوع من الطعام اشتهر به معاوية وأبو هريرة.

وحضرنا معه دعوة بعض التجار، فقدّمت إلينا مضيرة، تثني على الحضارة، وتترجرج في الغضارة وتؤذن بالسلامة، وتشهد لمعاوية بالإمامة، في قصعة يزلّ عنها الطرف ويموج فيها الظُّرف.

فلما أخذت من الخوان مكانها، ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتح الإسكندري، يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثلبُهَا وطابخها.

وظنناه يمزح فإذا الأمر بالضد، وإذا المزاح عين الجد. وتنحى عن الخوان وترك مساعدة الإخوان.

ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتجلت لها الأفواه، وتلمظت لها الشفاه، واتقدت لها الأكباد، ومضى في إثرها الفؤاد.

ولكنا ساعدناه على هجرها، وسألناه عن أمرها، فقال:

قصتي معها أطول من مصيبتي فيها. ولو حدثتكم بها، لم آمن المقت، وإضاعة الوقت.

قلنا: هات.

قال:

دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد، ولزمني ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرقيم، إلى أن أجبته إليها وقمنا. فجعل طول الطريق يثني على زوجته ويفدِّيها بمهجته، ويصف حذقها في صنعتها، وتأنقها في طبخها، ويقول:

يا مولاي لو رأيتها، والخرقة في وسطها، وهي تدور في الدور، من التنور إلى القدور، ومن القدور إلى التنور، تنفث بفيها النار، وتدق بيديها الأبزار، ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الجميل وأثر في ذلك الخد الصقيل،

لرأيت منظراً تحار فيه العيون.

*

وأنا أعشقها وتعشقني،
ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته،
وأن يسعد بظعينته، ولاسيما إذا كانت من طينته.
وهي ابنة عمي، طينتها طينتي، ومدينتها مدينتي، وعمومتها عمومتي، وأرومتها أرومتي،
لكنها أوسع مني خُلُقاً، وأحسن خَلْقاً.

*

وصدعني بصفات زوجته، حتى انتهينا إلى محلته، ثم قال:
يا مولاي، ترى هذه المحلة، هي أشرف محال بغداد،
يتنافس الأخيار في نزولها ويتغاير الكبار في حلولها،
ثم لا يسكنها غير التجار، وإنما المرء بالجار.

*

كم تقدِّر يا مولاي، أنفق على كل دارٍ منها؟ قله تخميناً، إن لم تعرفه يقيناً،
قلت: الكثير،
فقال:
يا سبحان الله، ما أكثر هذا الغلط! تقول الكثير فقط.
وتنفس الصعداء. وقال:
سبحان من يعلم الأشياء.

*

وانتهينا إلى باب داره، فقال:
هذه داري، كم تقدِّر يا مولاي، أنفقت على هذه الطاقة؟ أنفقت عليها والله، فوق الطاقة، ووراء الفاقة.

كيف ترى صنعها وشكلها، أرأيت بالله مثلها؟
انظر إلى دقائق الصنعة فيها، وتأمل حسن تعريجها،
فكأنما خُطّ بالبركار،
وانظر إلى حذق النجار، في صنعة هذا الباب.
هو ساج من قطعةٍ واحدة، لا مأروض ولا عفن،
إذا حُرّك أنَّ، وإذا نُقِر طنّ.

*

من اتخذه يا سيدي؟
اتخذه أبو إسحاق بن محمد البصري، وهو والله رجل نظيف الأثواب بصير بصنعة الأبواب، خفيف اليد في العمل،
لله درُّ ذلك الرجل! بحياتي لا استعنت إلا به على مثله.

*

وهذه الحلْقة تراها؟ اشتريتها في سوق الطرائف، من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير،
وكم فيها يا سيدي من الشبه؟
فيها ستة أرطال، وهي تدور بلولب في الباب.
بالله دوّرها ثم انقرها وأبصرها. وبحياتي عليك، لا اشتريت الحلَق إلا منه، فليس يبيع إلا الأعلاق.

*

ثم قرَعَ الباب ودخل الدهليز، وقال:
عمّرك الله يا دار، ولا خرّبك يا جدار فما أمتنَ حيطانك، وأوثق بنيانك، وأقوى أساسك.
تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها وسلني:

كيف حصّلتها، وكم من حيلةٍ احتلتها، حتى عقدتها؟

*

وحسبك يا مولاي أني كنت منذ ليالٍ نائماً في البيت، مع من فيه، إذ قُرِع علينا الباب فقلت:

من الطارق المنتاب؟

فإذا امرأة معها عِقد لآلٍ، في جلدة ماءٍ ورقّة آلٍ، تعرضه للبيع،

فأخذته إخذة خَلْس، واشتريته بثمن بخس، وسيكون له نفع ظاهر وربح وافر.

*

وإنما حدثتك هذا الحديث، لتعلم سعادة جدِّي في التجارة، والسعادة تنبط الماء من الحجارة. الله أكبر!

لا ينبئك أصدق من نفسك، ولا أقرب من أمسك.

*

اشتريت هذا الحصير في المناداة، وقد أخرج من دور آل الفرات، وقت المصادرات، وزمن الغارات.

وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول، فلا أجد، والدهر حُبلى ليس يُدرى ما تلد.

*

ثم اتفق أني حضرت باب الطاق، وهذا يُعرض في الأسواق، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً.

تأمّل بالله دقته ولينه، وصنعته ولونه، فهو عظيم القدر، لا يقع مثله إلا في الندر.

وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري، فهو عمله، وله ابن الآن يخلفه في حانوته،

لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده،

فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه،

فالمؤمن ناجح لإخوانه، لاسيما من تحرّم بخوانه.

*

ونعود إلى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظهيرة. يا غلام: الطست والماء، فقلت:

الله أكبر، ربما قرُب الفرج، وسهُل المخرج، وتقدم الغلام فقال:

ترى هذا الغلام؟ إنه رومي الأصل، عراقي النشء.

تقدم يا غلام واحسر عن رأسك، وشمِّر عن ساقك وانفض عن ذراعك، وافترّ عن أسنانك، وأقبل وأدبر،

ففعل الغلام ذلك.

*

قال التاجر:

بالله من اشتراه؟

اشتراه والله أبو العباس، من النخاس.

ضع الطست وهات الإبريق، فوضعه الغلام، وأخذه التاجر وقلّبه وأدار فيه النظر ثم نقره، فقال:

انظر إلى هذا الشبه، كأنه جُذوة اللهب أو قطعة من الذهب. شبه الشام وصنعة العراق. ليس من خِلقان الأعلاق وقد عرف دور الملوك، ودارها، تأمّل حُسنه وسلني:

متى اشتريته؟ اشتريته والله، عام المجاعة، وادخرته لهذه الساعة.

يا غلام! الإبريق فقدّمه، وأخذه التاجر فقلّبه ثم قال:

وأنبوبه منه، لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست،

ولا يصلح هذا الطست، إلا مع هذا الدست إلا في هذا البيت،

ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف.

*

أرسل الماء يا غلام، فقد حان وقت الطعام. بالله ترى هذا الماء ما أصفاه أزرق كعين السنّور، وصافٍ كقضيب البلور. استُقي من الفرات، واستُعمل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة.

وليس الشأن في السقاء. الشأن في الإناء.

*

وهذا المنديل سلني عن قصته، فهو نسج جرجان، وعملُ أرجان.

وقع إلي فاشتريته، فاتخذت امرأتي بعضه سراويلاً،

واتخذت بعضه منديلاً. دخل في سراويلها عشرون ذراعاً، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما تراه، وطرزه، ثم رددته من السوق وخزنته في الصندوق، وادخرته للظراف من الأضياف. لم تذلّه عرب العامة بأيديها، ولا النساء لمآقيها، فلكل علقٍ يوم، ولكل آلةٍ قوم.

*

يا غلام! الخوان، فقد طال الزمان،

والطعام فقد كثُر الكلام.

فأتى الغلام بالخوان، وقلّبه التاجر على المكان، ونقره بالبنان وعجمه بالأسنان وقال:

عمّر الله بغداد، فما أجود متاعها، وأظرف صنّاعها.

تأمّل بالله هذا الخوان، وانظر إلى عرض متنه، وخفة وزنه، وصلابة عوده، وحُسن شكله، فقلت:

هذا الشكل فمتى الأكل؟ فقال:

الآن، عجّل يا غلام.

*

قال أبو الفتح:

فجاشت نفسي فقلت: لقد بقي الخَبْزُ وآلاته، والخُبْزُ وصفاته، والحنطة من أين اشتريت أصلاً، وكيف اكترى لها حملاً، وفي أي رحىً طحن، وإجّانةٍ عجن، وأيّ تنورٍ سجر، وخباز استأجر.

وبقي الحطب ومن أين احتُطب، ومتى جُلب، وكيف صفِّف حتى جُفِّف، وكيف حبس حتى يبس.

وبقي الخباز ووصفه، والتلميذ ونعته، والدقيق ومدحه، والخمير وشرحه والملح وملاحته.

والخلُّ كيف انتُقِيَ عنبهُ، أو اشتُرِيَ رُطبه، وكيف صُهرجت معصرتُه، واستُخْلِصَ لبُّه، وكيف قُيِّر حبُّه وكم يساوي دنُّه!

وبقي البقل وكيف احتُيلَ له حتى قُطفَ، وفي أي مبقلةٍ وُصف، وكيف تُؤنِّق حتى نُظِّف.

وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها، ووفِّي شحمها، ونصبت قدرها، وأججت نارها، ودقت أبزارها، حتى أجيد طبخها، وعُقِّد مرقها، وهذا خطب يطمُّ وأمر لا يتم.

*

فقمت، فقال:

أين تريد؟ فقلت:

حاجة أقضيها. قال:

يا مولاي تريد كنيفاً يُزري بربيعي الأمير، وخريفي الوزير،

قد جُصِّصَ أعلاه، وصهرج أسفله، وسطِّح سقفه، وفرشت بالمرمر أرضه،

يزلُّ عن حائطه الذر فلا يعلق، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق،

عليه باب من خليطيْ ساجٍ وعاج، مزدوجين أحسن ازدواج، يتمنى الضيف أن يأكل فيه.

قلت:

كلْ أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف في الحساب.

*

وخرجت نحو الباب، وأسرعت في الذهاب، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح:

يا أبا الفتح! المضيرة.

وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي، فصاحوا صياحه، فرميت أحدهم بحجر من فرط الضجر، فلقي رجل الحجر بعمامته، فغاص في هامته.

فأخذت من النعال، بما قدُم وحدُث، ومن الصفع بما طاب وخبُث. وحُشرت إلى الحبس، فأقمت عامين في ذلك النحس. فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت، فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم؟

قال عيسى بن هشام:

فقبِلْنا عُذره، ونذرْنا نذره وقلنا:

قديماً جنَتِ المضيرة على الأحرار، وقدّمت الأراذل على الأخيار.*

*

(...) كنت ببغداد** عام مجاعة، فملت إلى جماعة، قد ضمّهم سمْط الثريا أطلب منهم شيئاً، وفيهم فتى ذو لثغة بلسانه، فقال:

ما خطبك؟ قلت:

حالان لا يفلح صاحبهما:

فقير كدَّه الجوع، وغريب لا يمكنه الرجوع. فقال:

---

* رمز هنا بالمضيرة لملذات الدنيا التي هي سبب انتصار الأرذال على الأحرار.

** حديث عيسى بن هشام.

أي الثلمتين تقدِّم سدّها؟ فقلتُ:

الجوع فقد بلغ مني مبلغاً. قال:

فما تقول في رغيف على خوان نظيف، وبقل لطيف إلى خل ثقيف، ولوز لطيف إلى خردل حرّيف، وشواء صفيف إلى ملح خفيف، يقدِّمه إليك الآن من لا يمطلك بوعد ولا يعذِبك بصبر، ثم يعلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية من راح عنبية؟ أذاك أحبُّ إليك أم أوساط محشوة وأكواب مملوّة، وأنقال معددة وفرش منضدة، وأنوار مجوّدة، ومطرب مجيد له من الغزال عين وجيد؟

فإن لم تُرد هذا ولا ذاك، فما قولك في لحم طري، وسمك نهري وباذنجان مقلي، وراح قطربلي، وتفاح جنيّ ومضجع وطيٍّ على مكان عليٍّ، حذاءَ نهر جرار وحوض ثرثار، وجنة ذات أنهار؟

قال عيسى بن هشام:

أنا عبد الثلاثة، فقال الغلام:

وأنا خادمها لو كانت، فقلت:

لا حياك الله. أحييت شهوات قد كان اليأس أماتها ثم قبضت لهاتها.

*

المرء لا يعرف ببرده، كالسيف لا يعرف بغمده.

*

جرح الجور، بعيد الغور.

*

نار الخفاء سريعة الانطفاء.

*

الحذق لا يزيد الرزق، والدعة لا تحجب السعة.

*

احتكم إلى الحجارة، فالتقتير نصف التجارة.

*

غضب العاشق أقصر عمراً، من أن ينتظر عذراً.

*

إن بعد الكدر صفواً، وبعد المطر صحواً.

*

الراجع في شيئه كالراجع في قيئه.

*

الحبل لا يبرم إلا بالفتل، والثور لا يُربّى إلا للقتل.

*

أرخص ما يكون النفط إذا غلا، وأسفل ما يكون الأريب إذا علا.

*

لا تحسد الذئب على الألية يعطاها طعمة، ولا تحسب الحب ينثر للعصفور نعمة.

*

إن للمتعة حداً، وإن للعار رداً.

*

ما كل مائع ماء،
ولا كل سقف سماء،
ولا كل بيت بيت الله،
ولا كل محمد رسول الله.

*

الخبر إذا تواتر به النقل قبله العقل.

*

كلفة الفضيل متعينة، وأرض العشرة لينة، وطرقها بينة.

*

إن الوالي سيُعزل والراكب يُستنزل.

*

النذل لا يألم بالعَذْل.

*

لا تكاد السباع تأتلف كما لا تكاد البهائم تختلف.

*

إن اللئيم لا يخلو من خلة خير،
وكذلك الكريم لا يخلو من خلة ضير.

*

أبو سليمان المنطقي*

الصديق لا يُراد ليؤخذ منه شيء، أو ليُعْطىَ شيئاً،
ولكن ليُسكن إليه، ويُعْتَمد عليه ويُستأنس به، ويستفاد منه، ويستشارَ في الملم وينهض في المهم ويتزين به إذا حضر، ويتشوق إليه إذا سفر.

والأخذ والإعطاء في عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم، بلا حسد، ولا نكد، ولا صدد، ولا حدد، ولا تلوّم ولا تلاوم، ولا كلوحٍ، ولا فتوح، ولا تعريض بنكير، ولا نكاية بتغيير.

*

إنكم معمومون بصورة الإنسان من ناحية النوع،
كما أنكم معمومون بصورة الحيوان من ناحية الجنس، ومعرّضون لنيل صورة الملائكة بالاختيار الجيد.

كما أنكم معرضون لنيل صورة الشياطين بالاختيار الرديء.

فلو ثبتم على الطريق المستقيم، وعلقتم حبل العقل المتين المستبين،
واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين، كنتم كنفسٍ واحدة في كل حال، ذلَّتْ أو صعبت، تجمعت أو تشعبت، تعرّفت أو تنكرت.

وكانت هذه الشريفة، أعني الموافقة والوحدة تسري في الصديق والصديق، ثم في الثاني والثالث، ثم في الصغير والكبير، وفي المطيع والمطاع، والسائس والمسوس، وفي الجار والجار، وفي المحلّةِ والمحلة، والبلد والبلد،

---

* محمد بن طاهر، من سجستان. أكبر علماء بغداد في عصره. اشتغل في المنطق والحكمة والفلسفة. مات في آخر القرن الرابع الهجري.

حتى تبلغ الأغوار، وتشتمل على الأداني والأقاصي.

*

الصداقة أذهب في مسالك العقل،

وأدخل في باب المروءة،

وأبعد من نوازي الشهوة،

وأنزه عن آثار الطبيعة،

وأشبه بذوي الشيب والكهولة،

وأرمى إلى حدود الرشاد،

وآخذ بأهداب السداد،

وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة.

فأما العلاقة* فهي من قِبلَ العشق والمحبة والكلف،

والشغف والتتيّم والتهيّم،

والهوى والصبابة والتدانف والتشاجي،

وهذه كلها أمراض أو كالأمراض بشركة النفس الضعيفة، والطبيعة القوية،

وليس للعقل فيها ظل ولا شخص.

ولهذا تُسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث، وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول.

*

إن ذوي القرابة والرحم والنسب يرى كلٌّ واحدٍ منهم أنه أولى وأحقّ بحيازة ما لأبيه وعمه،

---

* سئل أبو سليمان عن الفرق بين الصداقة والعلاقة.

وأن غيره في ذاك كالمزاحم والدخيل والمتدلّي،

فتحفّزه أعراضٌ كثيرةٌ من الحسد والغيرة والتنافس،

على أن يكون هو وحده حاوياً لتلك المواريث من المال، والجاه، والقدر، والمنزلة.*

إن العاقل إذا خاطب العاقل فهم وإن اختلفت مرتبتاهما في العقل، فإنهما يرجعان إلى سنْخ العقل،

وليس كذلك العاقل إذا خاطب الأحمق، فإنهما ضدان. والضد يهرب من الضد.

*

الكلام ينبعث في أول مبادئه، إما من عفو البديهة وإما من كدّ الرويّة،

وإما أن يكون مركباً منهما، وفيه قواهما، بالأكثر والأقل. ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى،

وفضيلة كدّ الرويّة أنه يكون أشفى،

وفضيلة المركب منهما أنه يكون أوفى.

وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل.

وعيب كدّ الرويّة أن تكون صورة الحسّ فيه أقلّ،

وعيب المركّب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف، على أنه إن خلص هذا المركب من شوائب التكلف وشوائن التعسف، كان بليغاً مقبولاً رائعاً حلواً.

والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر، إنما هو في هذا المركب الذي يسمى تأليفاً ورصفاً.

وقد يجوز أن تكون صورة العقل في البديهة أوضح،

وأن تكون صورة الحس في الروية ألوح.

---

* هذا الكلام إجابة على سبب التعادي في ذوي القربى.

إلا أن ذلك من غرائب آثار النفس ونوادر أفعال الطبيعة.
والمدار على العمود الذي سلف نعته، ورسا أصله.

*

اختلف الناس قديماً وحديثاً في حدّ النفس، فقال قائل:

النفس مزاج الأركان.

وقال قائل:

النفس تألف الأسْطُقُسّات.

وقال قائل:

النفس عرض محرِّك بذاته.

وقال قائل:

النفس هوائية.

وقال قائل:

النفس روح حارة.

وقال قائل:

النفس طبيعة دائمة الحركة.

وقال قائل:

النفس تمام لجسم طبيعي ذي حياة.

وقال قائل:

النفس جوهر، ليس بجسم، محرِّك للبدن.

وعلى هذا، ولَعَلَّ آخرين يقولون في تحديدها ونعتها أقوالاً أخر، لأن الملحوظ بسيط، والمدرك بعيد، والناظرين كثيرون، والباحثين مختلفون، والكثرة فاتحة الاختلاف، والاختلاف جالب للحيرة، والحيرة خانقة للإنسان.

(...) وإنما صعُب هذا، لأن الإنسان يريد أن يعرف النفس وهو لا يعرف النفس إلا بالنفس، وهو محجوب عن نفسه بنفسه.

وإذا كان الأمر على هذا، فالأمر أن كل من كانت نفسه أصفى ونوره أشع، ونظره أعلى، وفكره أثقب، ولحظه أبعد، كان من الشك أنجى، ومن الشبهة أنأى، وإلى اليقين أقرب.

والإنسان ذو أشياء كثيرة، من جملتها نفسه. فللكثرة ما هو به كثير، يعجز عن إدراك ما هو به واحد، أي إنسان.

*

الإنسان مركب، والنفس مبسوطة،
وإنما فيه جزء يسير ونصيب قليل من ذلك البسيط،
فكيف يدرك بجزء منها كلها، وبقليل منها جميعها؟
وهذا متعذِّر إن لم يكن محالاً،
وبعيد إن لم يكن معدوماً.

ويكفي أن تعلم أن النفس قوة إلهية واسطة بين الطبيعة المصرِّفة للأسطقسات والعناصر المتهيئة، وبين العقل المنير لها.

*

أفادت النفس وما استفادت، إلا أن تُجْعل إفادتها للقابل استفادةً لها وفي هذا تجوّز ظاهر.

ولا يقال للشمس إذا طلعت على بسيط الأرض والعالم ما الذي استفادت؟
ولكن يقال:
ما الذي أفادت؟ فيُعلم حينئذ بالعيان أنها أفادت أشياء كثيرة.

*

هلّا كَفَتْ الطبيعة؟*

(...) فقد كفَت في مواضعها التي لها الولاية عليها من قبل النفس،

---

* سؤال يجيب عنه أبو سليمان.

كما كفت النفس في الأشياء التي عليها الولاية من قبل العقل،

كما كفى العقل في الأمور التي له الولاية عليها من قبل الإله،

وإن كان مجموع هذا راجعاً إلى الإله، فإنه في التفصيل محفوظ الحدود على أربابها.

وهذا كالملك الذي له في بلاده جماعة، فيصدرون عن رأيه وينتهون إلى أمره، ويتوخون في كل ما يعقدونه ويحلونه، وينقضونه ويبرمونه.

ما يُرجع إلى وفاقه، وكل ذلك منه وله وبأمره،

وقد كفاه أولئك القوم ذلك كله.

فإن قال قائل:

فكيف مثّلت سياسة إلهية بسياسة بشرية، وأنى هذه من تلك؟ فالجواب أن البشر* المسكين، لم يجد هذه السياسة من تلقاء نفسه، ولا بما هو به مهين ضعيف عاجز مسكين، بل بما فاض عليه من تلك القوى وتلك الصور.

فهو إذا أبرز شيئاً أبرز على مثال تلك، لأنه قد أعطي القالب، فقد سهل عليه أن يفرِغ فيه،

ووهب له الطابع، فهو يختم به،

وهيئ على ذلك، فهو يجري عليه.

وهذا سوْقٌ إلهي وإن كان الانسياق بشرياً، ونظمٌ ربوبيٌّ، وإن كان الانتظام إنسياً.

وفي الجملة إحدى السياستين، أعني البشرية، هي ظل للأخرى، أعني الإلهية.

والسفليات منقادة منفعلة للعلويات.

والعلويات مستوليات على السفليات، بحق العدل وما هو مقتضاها،

---

* سؤال يجيب عنه أبو سليمان

ولأن هذه فواعل، أعني العلويات، وتلك قوابل أعني المنفعلات.

ووجب ذلك لأن الصورة في الفاعل أغلب والهيولى في القابل أغلب،

والعالمان متواصلان، والسياستان متماثلتان والسيرتان متعادلتان، والتدبيران متقابلان،

ولكن التدبير إذا نفذ في السفلي يسمَّى بشرياً، وإذا نفذ في العلوي يسمَّى إلهياً،

وإن كانا في التحقيق إلهيّين وإنما اختلفا بحسب الصدور والورود، والفضول والوصول، والشخوص والبلوغ.

والعادة جارية بأن يُشبِّه الإنسان شيئاً من الأشياء بالشمس والقمر، ولا يشبِّه الشمس والقمر بشيء آخر... لأن للأعلى النعت الأول، وللأسفل النعت الأرذل، فهذا كما ترى.

*

العقل خليفة الله، وهو القابل للفيض الخالص الذي لا شوب فيه ولا قذى،

وإن قيل:

هو نور في الغاية لم يكن ببعيد.

وإن قيل بأن اسمه مُغْنٍ عن نعته لم يكن بمنكر.

وإنما عجزنا عن تحديد هذه البسائط لأنا حاولنا عند علمها، أن تكون في صورة المركبات أو قريبةً منها،

وأن تصير لنا أصناماً نتمثلها ونوَكّل بها،

وهذا منا تعجرف مردود علينا، وخطأ يلزمنا الاعتذار منه إلى كل من أحسَّ به منا.

وينبغي أن نتوب إلى الله في كل وقت من وصفه بما لا يليق به، ومن طرح الوهم على شيء قد حجبه عن معارفنا، ورفعَه عن عقولنا، وقصرنا على حدودنا اللازمة لنا وأشكالنا المشتملة علينا. هذا حديث العقل إذا لُحِظ في ذِرْوَته.

فأما إذا فُحِص عن آثاره في حضيضه، فإنه تمييز وتحصيل وتصفح وحُكْم وتصويب وتخطئة، وإجازة وإيجاب وإباحة.

وإياك أيها السامع أن يكون مفهومك من هذه الأسماء والأفعال والحروف أشياء متمايزة،

فتجعل شيئاً واحداً أشياء،

ومن كثّر الواحد فهو أشد خطأ ممن وحّد الكثير،

لأن تكثير الواحد انحطاط إلى المركز، وتوحيد الكثير استعلاء إلى المحيط.

بل يجب أن يكون محصولك منها شيئاً واحداً، لم تصل إليه إلا بترادف هذه الكلمات، وتصاحب هذه الصفات.

*

أما أنحاؤه،* فعلى قدر ما يقال:

فلان عاقل، وفلان أعقل من فلان، وفلان في عقله لوثة، وفلان ليس بعاقل.

وأصحاب العقل، أنصباؤهم منه مختلفة بالقلة والكثرة، والصفاء والكدر، والإنارة والظلمة، واللطافة والكثافة والخفة والحصافة،

كما تجدهم مختلفين في الصور والألوان والخِلَق بالطول والقصر والحُسن والقبح، والاعتدال والانحراف، والرد والقبول. إلا أن هذا القبيل يُدرك بالحس، ويشهد بالعيان، ويعاين بالحضور،

وذلك القبيل محجوب عن هذا كله فلم يجز أن تكون الإحاطة بتفاوت ما غاب عنا في وزن الإحاطة بتفاوت ما حضر،

فإنهما ما تباينا ليأتلفا، بل ليختلفا.

وهذا التفاوت معترف به إذا اعتبر من خارج. وذلك أنك تجد أصحاب المال أيضاً، يتباينون في مقادير ما يملكون من المال، ولا يتفقون على

---

* أنحاء العقل.

مقدار واحد منه عند جماعتهم، ولا يتفقون على نوعٍ واحدٍ أيضاً من أعيان المال.

لأن هذا يملك الصامت، وذاك يملك الناطق. وهذا يمارس القزّ، وهذا يمارس الصوف، وهذا ينظر في الصّرف، وهذا يبيع الحيوان،

وكلٌّ منهم صاحب مال ومباشر له.

وعلى هذا المثال احتذى أهل العقل في مطالبهم،

فصار هذا يملك بعقله غير ما يملك الآخر.

أعني أن هذا ينظر في الهندسة، وهذا في الطب، وهذا في النحو، وهذا في الفقه.

والعبارة تمنع من إشباع هذا المعنى، وحَصر هذا الفن،

فعلى هذا أنحاؤه، وإنها لكثيرة، إن لم تكن بلا نهاية.

*

الفرق بين الصورة الإلهية والصورة العقلية،

أن الصورة الإلهية ترد عليك وتأخذ منك،

والصورة العقلية تصل إليك فتعطيك.

فالأولى بقهر وقدرة والثانية برقٍّ ولطافة،

وتلك تحجبك عن لِمَ وكيف.

وهذه تفتح عليك لِمَ وكيف،

وتلك لا تُنْحَى ولا تُطلب،

وهذه يُسعى إليها، ويُسأل عنها وتوجد.

وأنوار الصورة الإلهية بروق تمرّ،

وأنوار الصورة العقلية شموس تستنير.

وتلك إذا حصلت لك بالخصوصية لا نصيب لأحد منها، وهذه إذا حصلت لك فأنت وغيرك شرع فيها.

وتلك للصون والحفظ،

وهذه للبذل والإفاضة.

*

(...) فلمّا أبرزت الطبيعة الموسيقا في عرض القناعة بالآلات المرئيّات، وتحرّكت بالمناسبات التامّة والأشكال المتّفقة أيضاً،

حدث الاعتدال الذي يُشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وانجلائه فبهرَ الإحساس،

وبث الإيناس وشوق إلى عالم الروح والنّعيم،

وبعث على كسب الفضائل الحسية والعقلية، أعني: الشجاعة والجود والحِلْم والحكمة والصبر.

وهذه كلها جُماع الأسباب المكملة للإنسان في عاجلته وآجلته،

وبالواجب ما كان ذلك كذلك، لأن الفضائل لا تقتنى إلا بالشوق إليها وبالحرص عليها، والطلب لها.

والشوق والطلب والحرص، لا تكون إلا بمشوّقٍ وباعث وداعٍ،

فلهذا برزت الأريحيَّة والهِزَّة،

والشوق والعزة.

فالأريحية للروح،

والهِزَّة للنفس،

والشوق للعقل،

والعزة للإنسان.

*

ومما يجب* أن يُعْلم، أن السمع والبصر، أخص بالنفس من الإحساسات الباقية، لأنهما خادما النفس في السر والعلانية، ومؤنساها في الخلوة، وممدّاها في النوم واليقظة،

وليست هذه الرتبة لشيء من الباقيات، بل الباقيات آثارها في الجسد، الذي هو مطية الإنسان.

---

* الكلام على السماع والموسيقا.

ولكن الفرق بين السمع والبصر، في أبواب كثيرة، ألطفها أن أشكال المسموع مركَّب في بسيط،

وأشكال المُبصر مبسوطة في مركّب.

إن المسموع الواحد، هو بالحس الواحد،

وربما كان الحس الواحد، أيضاً غليظاً وكيداً، فلا يكون لنيله اللذة به بسط ونشوة ولذاذة.

وكذلك المسموع، ربما لم يكن في غاية الصفاء، على تمام الأداء بالتقطيع، الذي هو نفس في الهواء فلا تكون أيضاً، إنالته للذة على التمام والوفاء.

فإذا ثني المسموع، أي توحد النغم بالنغم، قوي الحس المدرك، فنال مسموعين بالصناعة، ومسموعاً واحداً، بالطبيعة.

والحس لا يعشق المواحدة والمناسبة والاتفاق، إلا بعد أن يجدها في المركب.

كما أن العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها في فضاء البسيط. فكلما قوي الحس باستعماله التذ صاحبه بقوته،

حتى كأنه يسمع ما لم يسمع بحس أو أكثر.

وكما أن الحس إذا كان كليلاً، كان الذي يناله كليلاً،

كذلك الحس إذا كان قوياً، كان ما يناله قوياً.

*

الحمد لله خالق صُبْح ظلمة العدم بضياء وجود الجود، ومثبت حجج الإلهية وبراهين الوحدانية، وداحض شُبَه الإنكار والجحود، ومتمم إعلام عوالم الإختراع وبدائع الإبداع لبصائر العقول الناطقة والحواسّ الظاهرة كالشهود؛ الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه من ناطق وصامت، وفتح الغَلِق للمستحق من أهل الركوع والسجود، وجعل منهم المقربين والكروبيين

والصافيّن المسبّحين سَفَرَةً لأشخاص النوع الإنساني، لا كلهم، بل لمن رقّ نظره فوقف عند نهاية الحدود، ورتب الأشياء مراتبها من حيث ابتدأ الجسم إلى منتهى الخط ذي المساحة والكم والمعدود، فلم يعد متمكن بمكانه ولا نازع ضد ضده وإن طغى فإلى رتبته يعود، وينتحي كلُّ معلولٍ لعلّته ويؤمّ كلُّ ذي غايةٍ غايته فيرتبط أدناها بأعلاها، وتتوارد القوى متداخلة نحو أفقها الأعلى، ويجتمع الكلُّ بالحكمة الإلهية في شرح النظام الحافظ على الموجودات كمالاتها الخاصّة بها والعامة لها. واختص الانسان، من بينها، بأجمل صورة وأفضل هيئة: فعدل مزاجه وأخلاطه، وأفاض عليه من فائض جوده ونور جوهريته ما استنارت به نفسُه وأُيِّدَ منه جسمه، فسَرَتْ قوته في جميع ما دونه من أصناف الموجودات حتى تملكها بطشاً بجوارح جسده. وأحاطه بمعارف نفسه المشتملة على معانيها وأسبابها التي هي منها وإليها وفيها وعليها، يبين جوهر كل واحد منها وماهيته، ويفصح بفضل علمه وعقله عن مكنون حقيقته.

(...) ولما كانت الرياسات الإنسية إنما هي بالقوة الرئيسية على القوى التي تستنبطها النفس المستعملة لجميع ما في هذا العالم، المظهرة أفعالها في أصناف الحيوانات، المعطية كل نوع منها كماله الخاص به بحسب قوةٍ منه، وبالمقدار الذي قسم له منها في الإفراط والتوسط والنقصان. وهذه هي الموافقة والنزاع والشوق والحسّ والتخيل والوهم والتصور والفكر والرأي والعزيمة والحدس والذكاء والذهن والحفظ والذكر والإنارة والظن والعلم والعقل.

وقد انقسمت علتها قسمين: عَدَل فجعل لبعضها جزءاً وهو اللمس، مضمومة إليه قوة الشوق والنزاع والموافقة. ولا يمكن للحيوان إلا بمجموع هذه، ولم يُجعل له حظّ من التخيّل، والتخيّل إنما هو للحيوان الكامل الحواسّ، وهو فيه أيضاً متعلق بحسّ البصر خاصة وما عَدِمَ هذا الحسّ،

عَدِمَ بَعَدِمه التخيل. وهذا الصنف من الحيوان بمنزلة الحلزون والدود وكثير من الحشرات.

وجعل لبعضها الحواسّ كلها مع التخيل، بمنزلة الفَرَس والثور والحمار وغيرها.

ولبعضها مع هذه قوة التوهم ولمحة من قوى التصور والفكر، بمنزلة الحيوان الذي يُسمى النسناس والعراس.

ولبعضها، وهو الإنسان، مع هذه قوة التصور والفكر والحفظ والذكر، مع ما يطيف بها من باقي القوى التي هي الحدْس والذهن والذكاء والحزم والعزيمة والرأي والظن والعلم والعقل.

ولبعضها، وهو الأجرام السماوية، العلم والعقل. وهذه القوى مدمجة: منها نوع روحاني لا يحتاج معه في تناول المحسوسات إلى موافقة الأشياء الخارجة عن ذاتها، لأنها غير مركبة من التي باقي المحسوسات مركبةٌ منها، وهي النار والهواء والماء والأرض. فإن الحاسَّ إنما يدرك محسوسه مِنْ قِبَل المادة المشاركة في قبول كيفيات هذه الأجرام من ناحية الضد، أعني الحار بالبارد، والسيّال بالجامد، وبالجملة بحسب تهيّؤ الموضوع القابل لأصناف المتضادات، وتلك غير مركّبة منها.

وإنما قلتُ إن تلك مدمجة فيها، لأنها لها بنوع الفعل والتأثير في هذا العالم الفاسد، لا بنوع الانفعال والقبول اللذين يكونان في الجوهر السيّال المستحيل حالاً بعد حال.

فإن كلَّ فاعلٍ يفعلُ في مفعوله على مثال الصورة التي في ذاته، ومِنْ شأن ذلك الموضوع. فالأجرام السماوية إذن إنما تفعل أفعالها كما هي عليه في الوجود الحِسّي المتضمّن أجزاءً وقوىً وكيفيات وأعظاماً وأعراضاً

مختلفة، إلاّ أنها فيها بنوع روحاني متوحّد من قِبَل أنفسها، ثم ترسلها بحركاتها الجسمانية الجزئية في هذا العالم إلى المادة، القابلة لها فتقبلها، وتحدث عنها الأشخاص الجزئية المتمثلة مثال كلياتها، وتصير عند الفاعل والصورة الكليّة مقدمة قبل الموضوع لها بسيلان جوهر واختلاف أجزائه وحركاته في الزيادة والنقصان والتكافؤ وكثرة التغاير والاستحالات اللازمة وقربه من الأجرام المحركة لها بحركاتها.

ولنَصِفْ الآن كيفية الحال التي تتصرف عليها أوصاف تلك الذات والإشارات التي أشارت إليها الأمم السالفة على اختلاف آرائهم ومذاهبهم فيها.

فإنّ منهم مَنْ زعم أن تلك الذات تواصل ذوات الأمور التي زعموا أنها تتحد بها. وذلك أن القدماء من أصحاب الشرائع قالوا إنها الأجرام السماوية، وزعموا أنها تظهر فيها وتعمل أعمالها بها، وسَمّوها آلهة ثواني. ومنهم من قال إن الأمور التي تتحد بها الجواهر الإنسية. ومن هؤلاء مَنْ قال: إنَّ الجوهرَ الذي اتحد به من جملة هذه الجواهر واحد، وهو جوهر ناسوت المسيح، وهؤلاء هم النصارى، مع اختلافهم في ذلك: فإن اليعاقبة تزغم أنه صار من الجوهرين: أعني جوهر الناس وجوهر اللاهوت. جوهرٌ واحد وأقنوم واحد.

ومن الذين قالوا بالاتحاد مَنْ زعم أنها تتحد بأكثر من شخص واحد، وهؤلاء هم الغلاة، والقائلون بالحلول، وطائفة من الصوفية الذين يقولون بعين الجمع.

ومنهم مَنْ قال إن العالم بأسره مركّبٌ من ذلك الجوهر وجوهر آخر ضده، وهؤلاء هم القائلون بأصلين: النور، والظلمة.

وأما أكثر المتكلمين من أصحاب الشرائع فقد أشاروا إلى تلك الذات بالأوصاف التي هي بحسب إضافة مفعولاتها إليها، وبما ظهر لها من تأثيرات تلك الذات فيها. واعتبروا من جملتها الأوائل والأصول لما دونها،

وسمّوها صفات الذات، وهي: الحياة والقدرة والعلم وما أشبهها، مما لا يجوز أن توصف به وبضده وبالقدرة على ضده.

فإن منهم مَنْ جعل الفرقَ بين صفات الذات وصفات الفعل، بأن صفات الفعل هي التي يجوز أن يوصَف بها وبضدّهَا وبالقدرة على ضدها، وصفات الذات هي التي لا تجوز ذلك من آثار تلك الذات، فحكموا عليها بما ظهر لهم من تلك الآثار.

وأشار كل فريق منهم بحسب الأعرف عنده وعلى قدر قوّته في الاستدلال والتطرُّقِ إلى المعرفة بها.

فوصفت النصارى الذات بصفة الأثر الذي ظهر من علامات الكمال في شخص المسيح.

وأصحاب النور والظلمة وصفت الأثر بصفة الذات.

وأمّا فضلاء الفلاسفة فيقولون إن الذات المحدثة للموجودات متعالية عن أن يحيط بها شيء من مبدعاته، أو تلحقه الصفات اللاحقة لما حصره الوجود في هذا العالم، إذ ليس من شأن العالي على الكلِّ المحيط به أن يحاط به أو تبلغه قوة شيء من أجزاء الكل. فإن الصفات سِمات يسم بها العقل الإنساني ذوات الموجودات التي يدركها مما هو دونه بما يجد من الآثار الصادرة عنها والواردة عليها بالفعل والانفعال سمة روحانية بالمنطق الباطن، ثم تبرزها النفس وتفصح عنها بالمنطق الخارج عبارة جسمانية بحسب اختلاف لغات الأمم.

وهذا الفعل للعقل من طريق ما يختص به في نفس جوهره وهو على نظام الموجودات وتآلف بعضها مع بعض بالنسبة الملائمة المعطية كل واحد منها من العقل كماله الخاص، مِنْ قِبَل أنه ليس أي شيء اتفق كان منه موجودٌ تام في ما يقصد بالحكمة إلى إيجاده، بل شيء ما مع شيء ما بنسب محدودة.

وللعقل فعلان آخران: أحدهما من حيث هو أول وبسيط ومفعول ومعلول للعلة الأولى.

والفاعل الأول، سبحانه، المعطي كل موجود من عقل ونفس ما دونهما الوجود العام لجميعها: فإنه يوزع ذلك الوجودَ على ذوات الموجودات بما يعطيها من الصور الخاصة بواحدٍ واحدٍ منها، المتنفس وغير المتنفس. والعقل الثاني هو الذي يفعله بتوسُّط النَّفس من إفادة الحياة لكل مستعد لقبولها. وهذا الفعل للنفس بالذات، وله بتوسطها، إذ النفس هي الصورة التي تحصل للمتنفس والعقل يعطيها. فإذن هو الذي يستحق أن يسمّى تاماً وكُلاً وكاملاً ومكمّلاً لغيره، أو له التمام من قِبَل الفاعل الأول حيث جعله سبباً لوجود كل موجود بما له من إفادة النظام بالنسب التأليفية في الموجودات. ولم يجعل لوجوده سبباً غيره. وله التمام أيضاً من حيث منه الابتداء بإفادة الوجود على الوجه الذي وُصِف؛ وإليه الانتهاء في التصاعد والتصور بالصورة الأولى لجميع القوى. وهو الوسط فيما بين المبدأ الأول وما سواه من باقي الموجودات. وهذا الترتيب له خاصة، وبالحقيقة والطبع؛ ولغيره من سائر الأشياء بالوضع.

وفيه أيضاً المعاني التي بها الشيء هو ما هو ومنه وإليه، وله صورة الثالوث التي من أجلها صارت النصارى تقول بالأقانيم الثلاثة. وقد كادت الفلاسفة يشرّفون الثالوث ويقدّسون الله به.

(...) وإذا كان الأمر على ما وُصِف، فالإنسان، من بين سائر ما هو في العالم، هو الذي اجتمع فيه جميع القوى المتفرقة في سائر الموجودات المتوزعة على صنفٍ صنفٍ منها من قوى الأجرام السماوية والأجسام الأرضية، المتنفسة وغير المتنَفسة؛ فهو الواحد المتكثر المشتمل على الآحاد المتفرقة، كما أن الفاعل الأول هو الواحد المحض الغير المتكثر، على جميع الوجوه، المنبعث منه جميع الآحاد والقوى السارية في هذا العالم إلى أن ينتهي بأجمعها إلى الصورة الانسانية وينيلها الشخص الجزئي على قدر تهيؤه لقبولها ومقدار واحد في اعتدال التركيب والإفراط والنقصان وبحسب حركات الأجرام السماوية وما عليها من اختلاف التأثير عند

اجتماعها وافتراقها وأدوارها وقراناتها العظمى والوسطى والصغرى، وانتقالها في البروج من مثلثةٍ إلى أخرى.

فإن ظهور ما يظهر منها مختلف القوة والضعف، والجلالة وعظم القدر وصغره، فإن الحوادث العظام وظهور الأشخاص الكاملة المستوفية قوى المبدأ الأوّل، المستولية على تدبير العالم، المالكة له، لا تكون إلّا عند تبدل هذه الأدوار وانتقال هذه القرانات من مثلثة إلى أخرى. فإذا اتفق الزمان، الذي من شأن الشخص الإلهي، أن يظهر بموافقة الأشكال الفلكية، ظهر ذلك في الصقع الذي هو أليقُ به في التدبير وبها في التأثير، بإظهار ما ينبعث من المبدأ الأول من الفضائل التي يختص بها ذلك الشخص بسياسة الأمم وتدبير الممالك وتقويم السُّنَن الحافظة على البشر مصالحهم بضروب السياسات الجارية على ما يقتضيه حكم ذلك الزمان في إيصال المنافع إلى أهله ودفع المضارّ عنهم وتوقيفهم على سائر الجامعة لهم صلاح المعاش وحُسْنَ المَقلَب.

*

تراه عند الهذر*، يتلوّى ويبتسم، ويطير فرحاً به، وينقسم ويتشاجى، ويتمايل ويلوي شدْقه ويبتلع ويتفاتل ويتمايل ويحاكي المومسات، ويخرج في أصحاب السماجات، وهو مع هذا، يظن أنه خاف على نقاد الأخلاق، وجهابذة الإخوان.

وقد أفسده أيضاً، ثقة صاحبه به، وتعويله عليه، وقلة سماعه من الناصح فيه. وهو في الأصل محدود، بقلة مكان، دلالاً ونزقاً وعجباً واندراءً على الناس، وازدراء للصغار والكبار، وجبهاً للصادر والوارد.

وفي الجملة آفاته كثيرة، وذنوبه جمة ولكن للفتى رب غفور.

---

* صورة وصفيّة للصاحب بن عبّاد.

وربما شرع في أمر يحكم فيه بالخطأ، فيقلبه جده صواباً.

حتى كأنه عن وحي وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفية.

ولو جرت الأمور على موضوع الرأي، وقضية العقل، لكان معلماً على مصطبة في شارع، أو في دار.

فإنه يحرج الإنسان بتفيهقه، وتشادقه، واستحقاره واستكباره، وإعادته وإبدائه.

وهذه أشكال تعجب الصبيان، ولا تنفرهم من المعلمين، ويكون فرحهم به سبباً للملازمة، والحرص على التعلم، والحفظ والرواية والدراسة.

وكان الصاحب* كثير المحفوظ، حاضر الجواب، فصيح اللسان، قد نتف من كل أدب شيئاً، وأخذ من كل فن طرفاً، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجنة بطرائقهم.

وهو شديد التعصب على أهل الحكمة، والناظرين في أجزائها، الهندسة والطب، والتنجيم، والموسيقا، والمنطق، والعدد.

وهو حسن القيام بالعروض والقوافي، ويقول الشعر، وليس بزالٍّ وبديهيته غزّارة، وأما رويته فخوارة.

ولا يرجع إلى التأله والرقة والرأفة والرحمة.

والناس كلهم يحجمون عنه لجراءته وسلاطته، واقتداره وبطشته. شديد العقاب، طفيف الثواب، طويل العتاب. بذيء اللسان، يعطي كثيراً قليلاً، مغلوب بحرارة الرأس، سريع الغضب، بعيد الفيئة، قريب الطيرة، حسود حقود. يخدعه الصبي، ويخلبه الغبي، لأن المدخل عليه واسع، والمأتى إليه سهل.

---

* صورة وصفية للصاحب بن عباد.

تراه عند الهذر، يتلوى ويبتسم، ويطير فرحاً به وينقسم. يتشاجى، ويتمايل ويلوي شدقه، ويبتلع ريقه، ويرد كالآخذ ويأخذ كالمتمتع. ويغضب في عرض الرضا، ويرضى في عرض الغضب، ويتهالك ويتمالك، ويتفاتل ويتمايل، ويحاكي.

*

أبو النفيس*

أيتها الطبيعة، ما الذي أقول لك، وبأي شيءٍ أؤاخذك، وكيف أوجه العتب عليك؟

فإنك قد جمعت أموراً منكرة، وأحوالاً عسرة،

ولك بوادر ضارة، وغوائل خفية تبدو منك، وتغور فيك، وترجع إليك،

حتى إذا قلنا في بعضها:

إنك حكيمة، قلنا في بعضها إنك سفيهة.

فالبلهُ منك مخلوط باليقظة،

والاستقامة فيك عائدة بالاعوجاج.

وفيك فظائع ونزائع، وقوارع وبدائع،

لأن حركاتك تُستنّ مرة استناناً تُعشقين عليه، وتُحَبين من أجله،

وتزيغ أخرى زيغاً تُمقَتين عليه، وتُبغَضين بسببه.

وربما كانت حركتك نقضاً للبناء المحكم والصورة الرائعة، والنظام البهي.

وربما كانت بناء للمنتقض، وتجديداً للبالي، وإصلاحاً للفاسد.

حتى كأنك عابثة بلا قصد، عائثة على عمد،

وعلى جميع صفاتك من الواصفين لك،

لم يعلم من ظن،

---

* من المتكلمين على الطبيعة. ذكره أبو حيّان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، لم يُذكر له تاريخ ولادة أو وفاة.

ولا رأى مَن تخيَّل ولا بَعُدَ لفظٌ من تأويل،
ولا حالَ معنى عن توهم،
ولا أسفر حق عن باطل
ولا تميز بيان عن تمويه،
ولا وضح نصح من غش،
ولا سلِمَ ظاهر من تناقض،
ولا خلت دعوى من معارض.
فلهذا وأشباهه واجهتك بخطابي،
وعرضت عليك ما في نفسي.
فبالذي أنت به قائمة،
وبالذي أنت به موجودة،
وبالذي أنت له منقلبة، وإليه منساقة، إلا خبَّرتني عنك، وشفيت غليلي منك، ونعتِّ لي غيب شأنك، وجعلت الخبر عنك كعيانك.

وإنما ضرعت إليك هذا الضرع، وعرضت عليك هذا الوجع، لأنك جارتي وصاحبتي، وليس بيني وبينك حجاب، إلا ما هو عدو منك أو مني.
أعني بما هو منك لطف سحرك، وخفاء سرّك،
وأعني بما هو مني ما أعجز عن استبانته واستيضاحه،
إلا بقوة الإله الذي هو سبب لحركتك،
في أفانين تصرفك، وأعاجيب عدلك وتحيّفك.

*

الطبيعة تقول:

أنا قوة من قوى الباري، موكلة بهذه الأجسام المسخرة. حتى أتصرف بها بغاية ما عندي من النقش والتصوير، والإصلاح والإفساد اللذين لولاهما، لم يكن لي أثر في شيء، ولا لشيء أثر مني،

وكان وجودي وعدمي سواء،
وحضوري وغيابي واحداً،
ولو بطلت، بطل ببطلاني ما أنا به.

*

أبو حيّان التوحيدي*

كيف أتكلّم والفؤاد سقيم،
أم كيف أترنّم والخاطر عقيم؟
أم كيف أثق بما نُمّق من الخبر،
وقد كذّبني، ما حُقِّق بالعيان؟
وماذا يجدي الرجاء الكذوبُ مع الخطب المتفاقم؟

*

الضلوع مشوية بالأسى و الحزن،
والأرواح ذائبة بضروب الحيرة واليأس.
علمٌ لا ينفع، وعمل لا يصحّ، وإشارة لا تصدُق، وعبارة لا تتحقّق، وحجة إذا لاحت، طاحَتْ.
بمن أتعلق،
وماذا أقول، وأيّ شيء أسمع؟

*

أما ترى هذه العجائب
كيف تدق عن اللغات المرقومة المنمّقة؟
أما تراني فيها

---

* فارسي الأصل توفّي في مطلع القرن الخامس الهجري له كُتب شُهر بها: «الصداقة والصديق»، «الإمتاع والمؤانسة»، «البصائر والذخائر»، و«الإشارات الإلهية».

كأني من أهلها ولستُ من أهلها؟
أما تراني غريباً فيها
وكأني مستأنِسٌ بها؟
الويل لي
إن كنتُ في ما أقوله غريباً منه،
والويل لك
إن كنتَ في ما تسمعه بعيداً عنه.
القائل إذا لم يكن واجداً لما يقوله
لم يكن السّامع بما يسمعه،
إنما هو قلبٌ يناجي قلباً.

*

غيبُ هذا الحديث خافٍ،
والرّمزُ عنه مُتجافٍ،
وإنما ندندن حول هذه المعاني.

*

النظم* أدل على الطبيعة، لأن النظم من حيّز التركيب. والنثر أدل على العقل، لأن النثر من حيّز البساطة. وإنما تقبَّلْنا المنظوم بأكثر مما تقبلنا المنثور، لأنا بالطبيعة أكثر منا بالعقل. والوزن معشوق الطبيعة والحس، ولذلك يُغْتَفَرُ له ما يعرض من الاستكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا خَطرَ للفظ عنده، إن كان متشوّقاً معشوقاً. والدليل على أن المعنى مطلوب النفس، دون اللفظ الموشح بالوزن، المحمول على الضرورة، أن المعنى متى صُودف بالسانح والخاطر وتوقّى الحكم، لم يَبْلُ بما يفوته من

* فنّ الكتابة.

اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والإناء والظرف. لكن العقل، مع هذا، يتخيّر لفظاً بعد لفظ، ويعشقُ صورةً دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا يُشقِّق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم.

وليس هذا للطبيعة، بل الذي يستند إليها من الكلام ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة. وحكمها مخطوطٌ بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجعٌ إلى تصويب العقل.

ومع هذا ففي النثر ظلّ من النظم، ولولا ذلك ما خفَّ ولا حلا، ولا طاب ولا تحلَّا. وفي النظم ظلٌّ من النثر، ولولا ذلك ما تميّزت أشكالهُ، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا بحورُهُ وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه.

*

(...) إن حزنتُ حزنتُ طباعاً، وإن فرحتُ فرحتُ خداعاً. إن خالطتُ ذممتُ الناس، وإن اعتزلتُ اجتلبْتُ الوسواس. وإن بحثتُ دُهشت، وإن قلدت استوحشت. هذا مسائي وصباحي، وعليه غُدويّ ورواحي.

*

حكمُ الكتّاب وأصحاب الخطابة مَخَايلُ تصدقُ قليلاً وتكذب كثيراً. ليس لها رسوخٌ في القلب، ولا ثباتٌ في العَقد.

*

الحواسّ مهالِك، والأوهام مسالك، والعقول ممالك.

*

إنما أنت لبٌّ في قِشْر، فاحفظ لبَّك بصيانةِ قشرك، ولا تصن قشرتك بإضاعة لبّك. واعلمْ أنّك ذو لبّ واحد، وقشور كثيرة، وتنقيتك من قشورك صعبٌ، وقيامك بلبك أصعب.

*

لو لم يكن في النوم من الحكمة إلا أنه شاهدٌ على المعاد لكفى. دَعْ ما فيه راحة الأعضاء، وسكون الجِرْم، واستجلاب القوة إليها بعد العياء والكدّ. ولو كان النوم حالاً مُصْمَتة، لا شعور لصاحبها من أولها إلى آخرها، لكانت الوحشة داخلة، والشك قائماً، والتهمة واقعة. ولكنها حال يتزود الإنسان منها أموراً غريبة، وأحوالاً عجيبة، ويتلقّف منها غيباً كثيراً، ويستقبلُ منها عياناً ظاهراً. فهل هذا الرمز إلا على ما سلف القول فيه من ثبات النفس على حالٍ واحد لا تنام، والنوم شبيه بالموت، فإذاً لا تموت.

*

الصديق آخرُ هو أنت.

*

(...) أجدُ في نفسي أشياء هي أركان فكري، ودعائم همّي، وأسس وساوسي. أحدها حديث الوالدة. فإني لا أكاد أنساها، ولا أذهل عن شأنها وشأني معها، هذا على بعد عهدي بها، وامتداد الزمن بيني وبينها، لأنها صارت إلى جوار الله تعالى، وأنا غلام.

(...) وقد يظن من لا شرب له من هذه العين أن هذا وسواس يغلب من جهة المزاج إذا انحرف، والاعتدال إذا فُقد. وليس كذلك، بل يُوشك أن يكون مصطفى للغاية المتمنّاة، والنهاية المتوخّاة، لأن الوالدة يُلحظ منها المبدأ الحسي فَعُشق لذلك. ومن سجايا النفس الفاضلة، ومن عادة الفِطَر النقية، والطينة الحرة، أن يكون المبدأ ملحوظاً فيها وعندها. وهذا كله للشعور بالمبدأ الذي هو الأول بالإطلاق، مع أحوال تتناصَر وتتسافر في خلال هذه الفكر، تتعلل بها النفس تعلّلاً مؤنساً مُطرباً، ودافعاً للوقت مُزْجياً.

(...)

- فلم يكون الأب بهذه المنزلة دون الأم؟

- الأم شأنها في الحس أعظم، وتدبيرها في المباشرة أعظم، وشفقتها بحسب قوتها أكثر. والأب هو الفاعل الحسي أيضاً، ولكن لا مباشرة له متصلة، ولا ولاية متمادية، وإنما هو أول فقط. والأم حاملة وواضعة، ومرضعة وفاطمة، وحاضنة ومربية، فالكلفة عليها أغلظ، وحسّها للولد آلف، وهو بها أشغف.

*

ما الرّأي؟ نهاية الفكر.

ما المعرفة؟ رأي غير زائل.

ما الوهم؟ الوقوف بين الطرفين لا يُدرى في أيهما القضية الصادقة.

ما التصوّر؟ هو حصول الموجودات العقلية في النفس.

ما الفكر؟ هو سلوك النفس الناطقة إلى تلخيص المعاني ومعرفة ماهيّاتها.

ما الصورة؟ هي التي بها الشيء هو ما هو.

ما الحال؟ كيفية سريعة الزوال.

ما الاختيار؟ هو إرادة تقدّمتها رويّة مع تمييز.

ما الصناعة؟ بالإطلاق، هي قوة للنفس فاعلة بإمعان، مع تفكر وروية، في موضوع من الموضوعات، نحو غرض من الأغراض.

ما الحقد؟ هو غضب يبقى في النفس على وجه الدهر.

ما الشهوة؟ التشوّق على طريق الانفعال إلى استرداد ما ينقص مما في البدن، وإلى نقص ما زاد فيه.

ما المحبة؟ قوة لا يضادها في ذاتها شيء.

ما السماء؟ جوهر مركب مستدير، يتحرك حركة شوق ذاتية دائماً.

ما اللذة؟ انطلاق الشهوة الطبيعية من النفس بلا مانع.

ما النوم؟ هو غوص القوى في عمق النفس.

ما الغناء؟ شعر ملحّن داخل الإيقاع والنغم الوترية، منعطفة على طبيعة واحدة يرجع سالكه إليها.

ما الإيقاع؟ فعل يكيل زمان الصوت بفواصل متناسبة، متشابهة، متعادلة.

ما اللحن؟ صوت بترجيع، خارج من غِلظٍ الى حدّة، ومن حدّة إلى غِلظ، بفصول بينة للسمع، واضحة للطبع.

ما النغم الوتري؟ استحالة الصوت من نسبة سريعة الى نسبة غير سريعة المقاطع ومواضع استراحات الأنفاس، مع تمام دور من أدوار الإيقاع.

*

واهاً لنفس مُنيت بهوىً شديد، ورُميت عن مدىً بعيد، حتى شاهدت في اختلاف شكولها،

واختلاف انقطاعها ووصولها، مَعَارف حال في مناكر أخرى بين ظنٍّ مَوسُوم بيقين، وعلم مرسوم بتلقين.

*

سرورُها لُمَعٌ

وخلوتها فزع.

ظاهرها حسرة، وباطنها حيرة

فعلها عدوان، ودعواها بهتان،

أولها خداع وآخرها ضياع.

*

أتدري لِمَ هذا كله؟
لأن ضمائر الخلق سابحة
في آفاق بحار العقل
لا لغايةٍ باديةٍ يقصد إليها،
ولا لآيةٍ هاديةٍ تدل عليها،
ولكن لسرٍّ التهمَ الأسرار.

*

أخفى الآثار في الآثار،
فالحس مشغول بزينة عالمه
والعقل مبهوت في بدائع صنعه
والنفس ولهى من دوام الحاجة إليه.

*

فقل لي الآن،
كيف أرجو شفاء ما بي؟
اتّصلت الحروف بالحروف
واشتبهتْ الصفات على الموصوف.
اسمعْ حديثي وأنا حاضرٌ ببالك.
أنِّسني بحاضر البقاء
وأعْتقني بعشق التحيّر.
كلِّي عند الغاية مَسْبيٌّ مَرْميّ
وجميعي لدى النهاية منسيٌّ منفيّ،
فأين نصيبي لنفسي،
وأين نسبتي إلى بني جنسي؟

وأين بياني وتبيّني
وأين كوني وعوني؟
حدّثوني عن معنى يزعجني
ومع إزعاجه يُعجبني.
أمرٌ خارج عن العادة،
غريب في التعارُف، ومنكرٌ عند الجمهور.
وأعود فأقول: الويل لي
إن أعرضتُ عن الكنْه،
مشرئبّاً إلى الطمع في ظهوره لي،
بل الويل لي،
إن رمتهُ بشاهد الرّسم وشائع المجاز.

*

(...) فلما تنفَّس الوقت*، أخذ الصبي في فنه، وبلغ أقصى ما عنده. فترنح أصحابنا وتهادَلوا، وطربوا. فقلت لصاحب لي ذكي: أما ترى ما يعمل بنا شجوُ هذا الصوت، وندى هذا الحَلق، وطيبُ هذا اللحن، ونفثُ هذا النغم؟

فقال لي: لو كان لهذا مَن يُخرجه، ويُعنى به، ويأخذه بالطرائق المؤلفة، والألحان المختلفة، لكان يُظهر آية، ويصيرُ فتنة، فإنه عجيب الطبع، بديع الفن.

فقال أبو سليمان: حَدّثوني بما كنتم فيه عن الطبيعة، لِمَ احتاجت إلى الصناعة، وقد علمنا أن الصناعة تحكي الطبيعة، وتروم اللحاق بها، والقرب منها، على سقوطها دونها؟ وهذا رأي صحيح، وقول مشروح. وإنما

---

* حول الطبيعة والصناعة.

حَكتْها وتبعت رَسْمَها، وقصّت أثرها، لانحطاط رُتبتها. وقد زعمتُ أن هذا الحدث لم تكفه الطبيعة، ولم تُغْنِه، وأنها قد احتاجت إلى الصناعة، حتى يكون الكمال مُستفاداً بها، ومأخوذاً من جهتها؟

فقلنا له: لا ندري، فإنها لمسألة.

(...) فقال: إن الطبيعة إنما احتاجت إلى الصناعة في هذا المكان، لأن الصناعة ها هنا تستَمْلي من النفس والعقل، وتُملي على الطبيعة. وقد صح أن الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس، وأنها تعشق النفس، وتتقبل آثارها، وتمتثل بأمرها، وتكمل بإكمالها، وتعمل على استعمالها، وتكتب وترسم بإلقائها. والموسيقى حاصل للنفس وموجود فيها، على نوع لطيف وصنف شريف. والموسيقار إذا صادف طبيعة قابلة، ومادة مُستجيبة، وقريحة مؤاتية، وآلة منقادة، أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبُوساً مونقاً وترتيباً موفقاً وتأليفاً معجباً، وأعطاها صورة معشوقة، وحلية مرموقة، وقوّته في ذلك تكون بمواصلة النفس الناطقة. فمن ها هنا احتاجت الطبيعة إلى الصناعة لأنها وصلت إلى كمالها من ناحية النفس الناطقة، بوساطة الصناعة الحاذقة، التي من شأنها استملاءُ ما ليس لها، وإملاء ما يحصل فيها، استكمالاً بما تأخذ، وإكمالاً بما تعطي.

*

العالِمُ يَنفعُ، وإن لم يَعمل.

*

ليس يرى مجد الحكمة إلا من كان بَصَرُ عينيه في قلبه، لا بَصرُ قلبه في عينيه.

*

كلُّ مضطر ليس محموداً، بل المحمود ما أمكن فيه الاختيار.

*

البياض يُفرِّق البصر لأنه من جنس النار، والسواد يجمع البصر لأنه من جنس الماء.

*

كلُّ خيرٍ حَسَن، وليس كل حسن خيراً.

*

كلّ ما فعلته النفس بالأدب، فعلته الطبيعة بالعادة، وفعله العقل بالتقبّل.

*

الغضب يتحرك من داخل إلى خارج، والحزن يتحرك من خارج إلى داخل.

*

معرفة الدوابّ أولادها بالرائحة، ومعرفة الطير أفراخها بالألوان، ومعرفة الناس للناس بالصورة.

*

كل عشق شوق، وليس كل شوق عشقاً.

*

العلم والعمل جزءا الفلسفة، وكل واحد منهما بين ضدين: فالعلم بين الصدق والكذب، والعمل بين الخير والشر.

*

الصديق اليوم قليل، والنصح أقل.

ولن يرتبط الصديق إذا وُجد بمثل الثقة به، والأخذ بهديه، والمصير إلى رأيه، والكون معه في سرّائه وضرّائه.

فمتى ظفرت بهذا الموصوف، فاعلم بأن جدك قد سَعِد، ونجمك قد صعد، وعدوك قد بعد.

*

سبحان من لم يغنك عنا، حتى سلّانا عنك،
ولا شغلك بغيرنا حتى عوّضنا منك،
ولا هوّن عليك الوجد بنا حتى خفف عنا الموجدة عليك،
ولا حظّر عليك وصلنا حتى أباح لنا هجرك،
ولا سهّل عندك الرزء بنا، حتى رفع عنا المصيبة فيك.

*

(...)غامتْ سماءُ العلم، وأظلمَ جوُّ البيان،
وانكسرَ فِقار الدين، وتحطّم عمودُ الشباب،
وقلَّ نصيرُ الأدب، وتقوَّض بناء الخير،
وبليَ ثوبُ المروءة، وغارتْ عين الحياة.
لا باب للعرف إلا وهو مسدود،
ولا جُرف للعقل إلا وهو منهار،
ولا جانب للفيض إلا وهو منثلم،
ولا ثغر للحكمة إلا وهو مستباح.
فالمصيبة عامة، وإن كان العزاء خاصاً،
والبلاء شامل، وإن كان المكترث به قليلاً.
والعجب حاضر، وإن كان المتعجب غائباً،
والعليل مستغيث وإن كان الطبيب موجوداً.

*

يا هذا
إن كنت ثاكلاً فنحِّ عليَّ ما أصبت به،
وإن كنت مكروباً بالسرّ، فبُح، فلعلك تشفي غليلك فيه.
وإن كنت طالباً فجد، فعساك تصل إلى بغيتك منه.

وإن كنت واجداً فاحفظ، فإنك غير واثق من ثبات ما ظفرت به،
وتلطف جهدك حتى تقف على مكنون أمرك، فلعلك مستدرج من حيث
لا تعلم، ولعلك مراد بالخصوصية وأنت مستكتم.

زيّن وجهك بالصورة البهية،

حسِّن أثرك بالنية القوية التقية.

أنت في مناط الربوبية فلا تهبط إلى قاع العبودية.

صانوك فلا تتبذل، أعزوك فلا تذل،

أعلوك فلا تسفل، غسلوك فلا تتوسخ،

نقّوك فلا تتلطّخ، يسّروك فلا تتعسّر،

قرّبوك فلا تتباعد، أحبّوك فلا تتبغّض،

جدّوا بك فلا تكسل، استخدموك فلا تتأخّر،

نسبوك فلا تجحد، جبروك فلا تتكسر،

أنّبوك فلا تذوِ، حسنوك فلا تقبح،

حلّوك فلا تسمج، علّموك فلا تجهل،

نوّهوا بك فلا تخمل، قوّموك فلا تضعف،

لطفوك فلا تكثف أسروك فلا تتكشف،

انتظروك فلا تتوقف، آمنوك فلا تتخوف،

قوّموك فلا تتعقف، ندّوك فلا تتنشّف.

*

(...) أين أنت عن قريب قد طالت غربته في وطنه،

وقلَّ حظّه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟

قد علاه الشحوب وهو في كِنّ،

وغلبه الحزن حتى صار كأنه شنّ.

إن نطق، نطقَ حزنانَ منقطعاً،
وإن سكت، سكتَ حيرانَ مرتدعاً.
وإن قرُبَ، قَرُبَ خاضعاً،
وإن بعُد، بعُدَ خاشعاً.
وإن ظهر، ظهَر ذليلاً،
وإن توارى، توارَى عليلاً.
وإن طلب، طلبَ واليأس غالب عليه،
وإن أمسك، أمسكَ والبلاء قاصد إليه.
وإن أصبح، أصبحَ حائل اللون من وساوس الفكر،
وإن أمسى، منتهب السر من هواتك الستر.
وإن قال، قال هائباً،
وإن سكت، سكتَ خائباً.
قد أكله الخمول، ومصّه الذبول، وحالفه النحول.
لا يتمنى إلا على بعض بني جنسه، حتى يفضي إليه بكامنات نفسه،
ويتعلل برؤية طلعته ويتذكر لمشاهدته قديم لوعته.
وقد قيل:
الغريب من جفاه الحبيب.
وأنا أقول:
بل الغريب من واصله الحبيب.
بل الغريب من تغافل عنه الرقيب.
بل الغريب من نودي من قريب.
بل الغريب من هو في غربته غريب.

بل الغريب من ليس له نسيب،
بل الغريب من ليس له من الحق نصيب.
الغريب من غربت شمس جماله،
واغترب عن حبيبه وعذاله.
وأغرب في أقواله وأفعاله،
وغرّب في إدباره وإقباله،
واستغرب في طمره وسرباله.
الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة.
الغريب من إن كان حاضراً كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً.
الغريب من إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه.
أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه،
وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه.
الغريب من إذا ذكر الحق هُجِر،
وإذا دعا إلى الحق زُجر.
الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله.
الغريب من إذا زار أغلق دونه الباب،
وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب.
الغريب من إذا دعا لم يُجب، وإذا هاب لم يُهب.
الغريب من توجه إلى الله قالياً لكل مَن سواه.

*

إن الكلمة تطلب مقرها الموافق لها،
فإذا صادفت سكنت، وإذا لم تصادف جالت في آفاق النفوس دائبة إلى أن تجد مكانها اللائق بها.

وإذا نطق بها من لا ينتفع بها، فذاك أيضاً لتبرؤها عن صدر الناطق وقلة رضاها به وقلقها إلى غيره.

وأسرار الإنسان في نفسه،

وأسرار نفسه فيه غريبة بديعة، لا تُستوعب بتحصيل، ولا يوقف منها على تفصيل.

ولهذا يجب البحث والنظر على طول الزمن،

فإن الفائدة مع الزمان، بطول الإعسار وشدة الاحتيار.

*

يا هذا!

دعْ سكران الهوى حتى يتهادى في سكره،

ودع مقلِّد الحال حتى يتمادى في نكره،

ودع مدبِّر الخلق حتى يوصف بذكره.

ودع المحتاج حتى يموت على حاجته،

والمريض حتى يتناهى في دنفه،

والدنف حتى يفضي إلى تلفه.

فليس إلى البغية سبيل، وإلى درك الرضا دليل.

للعقل صلف شديد فإذا قدته إلى التقليد جمح،

وللحسّ برق ظاهر إذا أشرت له إلى التسمح ثاب وعاد وثبت واعتاد،

والإنسان بينهما أسير،

إن أراد طاعتهما حادّاه وشاقّاه.

فكيف يطيب عيش من يفيض صدره بهذه الحفائظ،

الحديث أطول من هذا،

ولكن في فمي ماء.

على أني قد سقت العبارة هكذا وهكذا شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، وأرضاً وسماء،

فلم أدع للكتابة قوة إلا عصرتها عند العثور عليها،

ولا للتصريح علامة إلا ونصبتها حين وصلت إليها.

وإشفاقي على من لا يفهم لكدر طباعه، أو لبلادة فهمه، أو لغالب جهله، أو لعصبة تعتريه شديدة،

لأنه يفسد وقد قصدت صلاحه، وينوي وقد أردت فلاحه.

*

الهوى مركبي،

والهدى مطلبي،

فلا أنا أنزل عن مركبي،

ولا أنا أصل إلى مطلبي.

*

يا هذا!

اعتاصت والله الغاية على الغاية،

وانتهت النهاية إلى النهاية،

وأدرجت الآية في الآية.

فلهذا صار الدواء داء، والأسْوُ جراحاً، والعطاء سلباً، والبلاغة عياً، والرشاد غياً، والنشر طياً، والقبول رداً، والوصال صداً، والتمام نقصاناً، والرجحان وكساً، والتوجه استدباراً، والتبسم استعباراً، والربح خسراناً، والزيادة نقصاناً، والرضا سخطاً، والمستقيم محالاً، والثابت مزالاً.

*

الجهات دوني منسدّة،
والوجوه أمامي مسودّة.
إن قلت، قيل:
هذا زور وبهتان.
وإن أشرت، قيل هذا بور * وعدوان.
وإن سكت، قيل:
هذا سهو ونسيان.
فليت من ابتلاني بما لا طاقة لي به،
رحمني بما لا غنى لي عنه.

*

والله يا رفيقي وشريك زادي،
لقد صحبت الليالي ستين عاماً، مذ عقلت،
فما غدرني إلا من استوفيته،
ولا كدّر علي إلا من استرعيته،
ولا قذيت عيني إلا بمن جعلته ناظرها.
ولا انحنى ظهري إلا بمن نصبته عماده.
ولا نجمت لي نجاة إلّا من حيث لم أحتسب،
ولا سبقت إليَّ مسرة إلا ممن أكتسب،
فهل بعد هذه الجملة قرار لنفس، أو قرة لعين، أو مهنأة لعيش، أو مرضاة لعقل، أو تسلية لحر، أو بقيا على فاضل؟!

*

* البَوْر: الهلاك.

إذا كان العقل تسعة أجزاء، احتاجَ إلى جزء من الجهل ليقدم على الأمور،

فإن العاقل أبداً متوان، متوقف، مترقب متخوف.

*

(...) واعلم أن الناظر في هذا الكتاب، رجلان:

رجل ينظر إلى الأشياء ورجل ينظر في الأشياء.

فالأول يحار فيها، لأن صورها وأشكالها وتحاليلها، تستفرغ ذهنه، وتستملك حسه، وتبدد فكره.

فلا يكون له منها ثمرة الاعتبار، ولا زبدة الاختبار.

وأما الناظر في الأشياء، فإنه يتأنى في نظره، وتأنيه يبعثه على التصفح البالغ، والتصفح البالغ يؤدي به إلى تمييز الصحيح من السقيم، والباقي من الفاني، والدائم من العارض، وما هو قشر مما هو لب،

وما هو شفاء مما هو دمار.

*

من خدم غير نفسه، فليس بحرّ.

*

- لِمَ صرت تسيء القول في الناس؟

- لأنه ليس يمكنني أن أسيء إليهم بالفعل.

*

- ما أحسن هذه الصحراء؟

- لو لم تحضرها أنت.

*

الدخان رماد لطيف،

والرماد دخان كثيف.

*

الإنسان جامع لكل ما تفرق في الحيوان:
جمع الحيل والطلب والهرب والمكايد والحذر،
وهذا بدل السرعة والخفة في الحيوان.
واتخذ بيده السلاح مكان الناب والمخلب والقرن. وزاد على ذلك بثلاث خصال:
العقل، والنظر في الأمور، والمنطق.

*

الناس في العلم على ثلاث درجات:
فواحد يُلهَم فيعلَّم فيصير مبدأ،
والآخر يتعلم ولا يُلْهَم، فهو يؤدي ما قد حفظ،
والآخر يجتمع له بين أن يلهم وأن يتعلم، فيكون بقليل ما يتعلم مكثراً بقوة ما يلهم.

*

ينبغي لمن علِمَ أن البدن هو شيء جُعل نافعاً للنفس مثل الآلة للصانع، أن يطلب كل ما يصير البدن به أنفع وأوفق لأفعال النفس، التي هي فيه، وأن يهرب من كل ما يصير البدن غير نافع ولا موافقٍ لاستعمال النفس به.

*

لا ينبغي لك أن تؤثر علم شيء إذا عيّرت به غضبت، فإنك إذا فعلت هذا كنت القاذف لنفسك.

*

من القبيح أن تتحرى في أغذية البدن ما يصلح له، ولا يكون ضاراً، ولا تتحرى في غذاء النفس، الذي هو العلم، لئلا يكون ضاراً.

*

من القبيح أن يكون الملاح لا يُطلق سفينته في كل ريح، ونحن نطلق أنفسنا في غير بحث ولا اختبار.

*

فيلسوف ورد مدينة، فيها فيلسوف، فأرسل هذا الأخير للأول كأساً ملأى، يشير بها إلى أن الاستغناء عنه، واقع عنده. فطرح القادم في الكأس إبرةً، يعلمه أن معرفته تنفذ في معرفته.

*

ليست الولاية تظهر الرجل، بل الرجل يظهر الولاية.

*

– من صديقك؟

– الذي إذا صرت إليه في حاجة، وجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها.

*

– ما أحسن بالمرء أن يتعلمه في صغره؟

– ما لا يسعه أن يجهله في كبره.

*

– ما أصبرك على عيب الناس!

– لأنا استوينا في العيب، فأنا عندهم، مثلهم، عندي!

*

– أي شيء أنت به أسرّ؟

– قُوّتي على مكافأة من أحسن إلي بأحسن من إحسانه.

*

إن إقبالك بالحديث على من لا يفهم عنك، بمنزلة من وضع مائدة على مقبرة.

*

الذهب والفضة في الدار، بمنزلة الشمس والقمر من العالم!

*

الفرح يكون بالنظر في محاسن الشيء دون مساوئه،
والترح يكون بالنظر في مساوئ الشيء دون محاسنه.
فإذا خلص النظر من شوب الغلط، في ما ينظر فيه، انتفى الطغيان والجزع.

*

العلم مدبِّر، والمال مدبَّر،
والعلم نفسي والمال جسدي،
والعلم أكثر خصوصية بالإنسان من المال، لأنك لا ترى عالماً سرق علمه.
والعلم يزكو على الإنفاق، ويصحب صاحبه على الإملاق، ويهدي إلى القناعة ويسبل الستر على الفاقة.

*

لا دواء لمن لا حياء له،
ولا حياء لمن لا وفاء له،
ولا وفاء لمن لا إخاء له،
ولا إخاء لمن يريد أن يجمع هوى أخلائه له حتى يحبوا ما أحب، ويكرهوا ما كره،
وحتى لا يرى منهم زللاً ولا خللاً.

*

المودة كلما كانت أخلص، كانت أغراضها المفسدة أكثر.

*

- أبالصديق أنت آنس أم بالعشيق؟
- يا هذا!

الصديق لكل شيء. للجد والهزل، والقليل والكثير، ولا عاذل عليه، ولا قادح فيه،

وهو روضة العقل، وغدير الروح.

وأما العشيق فإنما هو للعين،

وبعض الريبة، والعذل إليه من أجله سريع،

وفي الولوع به إفراط مزجور عنه، وحد موقوف دونه،

فأين هذا من ذاك؟

*

- ألك صديق؟
- نعم، ولكني قليل الطاعة له.
- لعله غير ناصح، فلذاك أنت على ذاك.
- لا بل هو غاية في النصح، نهاية في الشفقة.
- فلم أنت على دأبك هذا المذموم، مع إقرارك بفضل صديقك.
- لأن جهلي طباع، وعلمي مكسوب. والطباع سابق، والمكسوب تابع.
- فدلنا على صديقك هذا الناصح المشفق حتى نخطب وده، ونجتهد في الطاعة له، والقبول منه.
- صديقي، هو العقل، وهو صديقكم أيضاً. ولو أطعمتموه لسعدتم ورشدتم، ونلتم مناكم في أولاكم وأخراكم.

فأما الصديق الذي هو إنسان مثلك، فقلما تجده. فإن وجدته لم يف لك بما يفي العقل. ولم يبلغ بك، ما يبلغ بك العقل وربما أتعبك، وربما حزَنَكَ، وربما أشقاك،

فاكبحوا أعنّتكم عن الصديق الذي يكون من لحم ودم وعظم، فإنه يغضب فيفرط، ويرضى فيسرف، ويسيء فيحتج، ويشكك فيضل.

*

الأشرار يتتبعون مساوئ الناس، ويتركون محاسنهم كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد، ويترك الصحيح.

*

– ما رأيت ألأم من أصحابك. إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك.

– هذا من كرمهم. يغشوننا في حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا في حال العجز منا عنهم.

*

العين أنطق من اللسان،

وأوقد من النيران.

*

– من أصحب؟

– أخطأت. قل لي:

من لا أصحب،

فإني إن حصرت لك من لا تصحب فقد أرشدتك إلى من تصحب.

*

(...) من الناس من هو كالغذاء الذي يمسك رمقك، ولابد لك منه على كل حال، لأنه قوام حياتك وزينة دهرك.

ومنهم من هو كالدواء يُحتاج إليه الحين بعد الحين، على مقدار محدود.

ومنهم من هو كالسم الذي لا ينبغي أن تقربه فإنه سبب هلكتك.

*

المرائي له ظاهر يُحمد، وإن كان له باطن يُذم.
وليس كذلك الشنآن. فإنه ليس له باطن يحمد ولا ظاهر يقبل.

*

(...) الألفاظ يشملها السمع، والسمع حس، ومن شأن الحس التبدد في نفسه.

والمعاني تستفيدها النفس، ومن شأنها التوحد والتوحيد لها، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قنْية وملكة، وتبطل عن الحسّ بطولاً، وتمحى محواً.

والحسن تابع للطبيعة.

والنفس متقبلة للعقل.

وكانت الألفاظ على هذا التدريج والتنسيق من أمة الحسن، والمعاني المقولة فيها من أمة العقل،

فالاختلاف في الأول بالواجب، والاتفاق في الثاني بالواجب.

وبالجملة، فالألفاظ وسائط بين الناطق والسامع،

فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها، كان وشيها أروع وأجهر.

والمعاني جواهر النفس، فكلما ائتلفت حقائقها على شهادة العقل كانت صورتها أنصع وأبهر.

وإذا وفيت البحث حقه، فإن اللفظ يجزل تارةً، ويتوسط تارة، بحسب الملابسة التي تحصل له من نور النفس، وفيض العقل وشهادة الحق وبراعة النظم.

وقد يتفق هذا للإنسان بمزاجه الصحيح وطبيعته الجيدة واختياره المحمود،

وقد يفوته هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن سبق بهذه المعاني إليه،

فيكون اقتداؤه حافظاً عليه نسبة البيان على شكله المعجب، وصورته المعشوقة.

ومدار البيان على صحة التقسيم، وتخير اللفظ، وترتيب النظم وتقريب المراد، ومعرفة الوصل والفصل، وتوخي الزمان والمكان ومجانبة العسف والاستكراه، وطلب العفو كيف كان.

*

لِمَ قال صاحب كل علم:

ليس في الدنيا أشرف من علمي الذي أنظر فيه؟

هكذا تجد الطبيب والمنجم، والنحوي والفقيه، والمتكلم والمهندس والكاتب والشاعر.

قال:

وأنا لمكاني من النحو أقول هذا.

قال الشيخ عيسى بن علي:

هذا لأن صورة العلم في كل نفس واحدة، وكل أحد يجد تلك الصورة بعينها، فيمدح العلم بها، ويظن أن تلك الصورة، إنما هي لعلمه وحده، وكذلك صاحبه، وتلك صورة العلم الأول.

فأما إذا قسمت العلم، وتتبعت مراتبه، فإنك حينئذ، تجد علماً فوق علم، بالموضوع أو بالصورة، وعلماً دون علم بالفائدة والثمرة، وهذا المعنى الذي أشير إليه يصح لك.

ولو فرضت نفسك عالمة كل شيء، لكنت حينئذ لا يحضرك علم دون علم بل كنت تطّلع على جميعه بنوع الوحدة مع اختلاف مراتبه من نواحي مواده، وصوره، وفوائده وثمره، وكنت تجدها كلها واحدة.

*

– لِم، إذا قيل لمصنف أو كاتب أو خطيب أو شاعر، في كلمة من كلام وقد اختل شيء منه، وبيت قد انحل نظمه، ولفظ قلق مكانه:

هات بدل هذا اللفظ لفظاً، ومكان هذه الكلمة كلمة، وموضع هذا المعنى معنى؟ تهافتت قوته، وصعب عليه تكلفه، وبَعِل بمزاولة ذلك رأيه؟

ولو رام إنشاء قصيدة مفردة، أو تحبير رسالة مقترحة، كان عسرها عليه أقل، وكان نهوضه بها أعجل؟

- رقْعُ ما وَهى يحتاج إلى تدبير قد فات أوله من جهة صاحبه الأول ومن كان أولى به، وكان كالأب له، وذلك شبيه بعلم الغيب،

وقلَّ من ينفذ في حجب الغيب مع العوائق التي دونه.

وليس كذلك إذا هو افترع كلاماً، وابتدأ فعلاً، واقتضب حالاً. يستقل حينئذ بنفسه ولا يحتاج فيه إلى شيء كان من غيره، أو يكون تعلقه بيقظته يعطيه في كلام معروض عليه، لم يهجس قط في نفسه، ولا أعد له شيئاً من فكره، فقد يعجزه ما لم يتأهب له، ولم يرض نفسه عليه.

وفي الجملة:

كل مبتدئ شيئاً،

فقوة البدء فيه تمضي به إلى غاية ذلك الشيء.

وكل متعقب أمراً، قد بدأ به غيره،

فإنه بتعقيبه يفضي إلى حد ما بدأ به في تعقيبه، ويصير بذلك مبدأ له،

ثم تنقطع المشاكلة بين المبتدئ وبين المتعقب.*

*

- هل ما فيه الناس من السيرة، وما هم عليه من الاعتقاد، حقٌّ كله أو أكثره حق، أو كله باطل أو أكثره؟

- المسألة هائلة، والجواب هين.

- أفدنا أفادك الله، فإن ركية العلم لا تنزح، وإن اختلفت عليها الدلاء، وكثر على حافاتها الواردة.

* الحوار بين أبي بكر الخوارزمي وأبي إسحاق الصابي.

- صدقتم، واعلموا أنه إذا لحظ استيلاء الطبيعة عليهم، وغلبة آثارها فيهم، في الرأي المعتقد، والسيرة المؤثرة، فأكثر ذلك باطل، لأن سلطان العقل في بلاد الطبيعة غريب، والغريب ذليل.

وإن لحظ حكم العقل وما يجب به، ويليق بجوهره، فأكثر ذلك حق، كان الملحوظ رأياً وسيرة وعادة أو خليقة، وعلى حسب هاتين القبيلتين، يكون القضاء، ويقع الحكم.

والحق لا يصير حقاً بكثرة معتقديه، ولا يستحيل باطلاً بقلة منتحليه، وكذلك الباطل.

*

المرض والعافية في الأبدان، بمنزلة الغنى والفقر في الأحوال.
والغنى والفقر في الأحوال، بمنزلة العمل والجهل في القلوب.
والعلم والجهل في القلوب، بمنزلة العمى والبصر في العيون.
والعمى والبصر في العيون، بمنزلة الشك واليقين في الصدور.
والشك واليقين في الصدور، بمنزلة الغش والنصح في المعاملات.
والغش والنصح في المعاملات، بمنزلة الطاعة والمعصية في الأعمال.
والطاعة والمعصية في الأعمال، بمنزلة الحق والباطل في المذاهب.
والحق والباطل في المذاهب، بمنزلة الخير والشر في الأفعال.
والخير والشر في الأفعال، بمنزلة الكراهة والمحبة في الطباع.
والكراهة والمحبة في الطباع، بمنزلة الهجر والوصل في العشرة.
والهجر والوصل في العشرة، بمنزلة الرداءة والجودة في الأشياء.
والرداءة والجودة في الأشياء، بمنزلة الصلاح والفساد في الأمور.
والصلاح والفساد في الأمور، بمنزلة الضعة والرفعة في المراتب.

والضعة والرفعة في المراتب، بمنزلة القبح والحسن في الصورة.
والقبح والحسن في الصورة، بمنزلة العي والفصاحة في الألسنة.
والعي والفصاحة في الألسنة، بمنزلة الاعوجاج والاستقامة في الأعضاء.
والاعوجاج والاستقامة في الأعضاء، بمنزلة الموت والحياة في الأجساد.
والحياة والموت في الأجساد، بمنزلة الشقاء والسعادة في العواقب.

*

قال أفلاطون:
إن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه،
بل أصاب منه كل إنسان جهة.
ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل وأخذ كل واحد منهم جارحة منه فجسَّها بيده ومثلها في نفسه.
فأخبر الذي مسَّ الرِّجل أن خلقة الفيل طويلة مدورة، شبيهة بأصل الشجرة وجذع النخلة.
وأخبر الذي مسَّ الظهر بأن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة.
وأخبر الذي مس أذنه، أنه منبسط دقيق، يطويه وينشره.
فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك،
وكل يكذب صاحبه ويدّعي عليه الغلط والخطأ والجهل في ما يصفه من خَلْق الفيل.
فانظر إلى الصدق كيف جمعهم،
وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرّقهم.

*

نزلت الحكمة على رؤوس الروم،
وألسن العرب،
وقلوب الفرس،
وأيدي الصين.

*

- فلان لا يعرف شيئاً من الشر!
- إذاً هو لا يعرف شيئاً من الخير.

*

نحن نساق بالطبيعة إلى الموت،
ونساق بالعقل إلى الحياة.
لأن الذي هو بالطبيعة قد أحاطت به الضرورة،
والذي بالعقل قد أطاف به الاختيار.
ولهذا الفرقِ الذي استبان وجب أن نستسلم لأحدهما،
ونتحرّم للآخر.
ولا يصح الاستسلام إلا بطيب النفس، فيما لا حيلة في دفعه ولا يتم التحرّم إلا بإيثار الجد فيما لا ينال إلا به.
والضروري لا يسعى له لأنه واصل،
والاختياري لا يكسل عنه لأنه غير حاصل لديك.
فانظر أين تدع توكلك في ما ليس إليك ومن أين تطلب ثمرة اجتهادك فيما هو متعلق بك.*

*

(...) أنا سامع مطيع،** وخادم شكور،

* من كلام لأبي سليمان المنطقي.
** من رسالة رد بها على صديق.

لا أشتري سخطك بكل صفراء وبيضاء في الدنيا،
ولا أنفر من التزام الذنب، والاعتراف بالتقصير.
ومثلي يهفو ويجمح،
ومثلك يعفو ويصفح.
وأنت مولى وأنا عبد،
وأنت آمر وأنا مؤتمر.
وأنت ممتثَل وأنا ممتثِل،
وأنت مصطنِع وأنا صنيعة.
وأنت منشّئ وأنا منشّأ،
وأنت أول وأنا آخر، وأنت مأمول وأنا آمل.

ومتى لم تغفر لي الذنب البكر والجناية العذراء، والبادرة النادرة، فقد أعنتني على ما كان مني ودللت على مللك لي، وأنك كنت مترصداً لهذه الهفوة، ومعتقداً في مقابلتها هذه الجفوة. وكرمك يأبى عليك هذا ومثولي بين يديك، خدمة لك، يحظره عليك.

*

(...) كانوا إذا ولّوا عدلوا،* وإذا ملكوا أفضلوا، وإذا أعطوا أجزلوا، وإذا سئلوا أجابوا، وإذا جادوا أطابوا، وإذا عالوا صبروا، وإذا نالوا شكروا، وإذا أنفقوا آسَوا، وإذا امتحنوا تأسَّوا.

وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة، وإلى ضرائب مأمونة، وكان لهم أسرار طاهرة، وعلانية مقبولة، ومعاملة جميلة، ورحمة واسعة، ومَعْدِلة فاشية،

---

* يصف الناس يوم كانوا صالحين، من رسالة إلى أبي الوفاء المهندس.

وكانت تجارتهم في العلم والحكمة.

وكانوا إذا تلاقوا، تواصوا بالخير، وتناهوا عن الشر، وتنافسوا في اتخاذ صنائع الشكر، وادخار بضائع الأجر.

فذهب هذا كله وتاه أهله،

وصار المنكر معروفاً، والمعروف منكراً،

وعاد كل شيء إلى كدره وخاثره، وفاسده وضائره.

وحصل الأمر على أن يقال:

فلان خفيف الروح، وفلان حسن الوجه، وفلان ظريف الجملة، حلو الشمائل، ظاهر الكيس، حسن اللعب في النرد، جيد في الاستخراج، مدير للأموال.

لا يغضي عن دانق، ولا يتغافل عن قيراط. مما يأنف العالم من تكثيره، والكاتب من تسطيره.

*

انظر إلى زينة الكون مستطرفاً،

وفكّر في دواوين مملكته مستعرفاً،

وانتبه عن رقدتك متخوفاً،

ثم انتبه في انتباهك متوقفاً،

ثم احكم على نفسك مترفرفاً.

*

ذهبتُ والله قبلَ أن جئتُ

وهلكت قبل أن سلِمت

وبطلت قبل أن حققت

وبِدْت قبل أن كنتُ

وفقدت قبل أن وجدت
واعوججت قبل أن استقمت
وهبطت قبل أن علوت
وثكلت قبل أن متّعت
وغيّبت قبل أن شهدت
وعزلت قبل أن ولّيت
وأمسيت قبل أن أصبحت.

*

اللهم زدنا طمأنينة إلى ذكرك
واغمسنا في بحر نعمتك وشكرك
وأعللنا بعد النهل من حبك
ولا تُغْرنا بخلقك في خَلقك
وصلنا بتأييدك في معرفتك ووصفك
واقطع بيننا وبين العادلين بك
والشاكين فيك
والناكثين لعهدك
والمكذبين بوعدك.

*

(...) وقبل هذا كله فأَنسِنا يا رب خلقك
فقد أشجونا فيك،
وكذبونا في وصفك لك،
وأجلبوا علينا بسببك.
لأني مع طيٍّ مستور بيقين،
وضمير محشوٍّ بفتون،

وقلب مقلَّب على فنون.

*

(...) بالله أما تراني كيف أتراءى لك عياناً، وكيف أتوارى عنك خبراً؟
فلا عِياني يُخبرك عنِّي،
ولا خبري يصدُقُك منّي.
خفيتُ في بدوّي لأنّي متقلّب في حالي،
وبدوتُ في جفائي لأني متقلّبٌ إلى أمر عال.
فإذا كلّمتك بلسان الظاهر وفيْتُ لك وخنتُ نفسي.
وإذا ترنّمتُ لك بلسان الباطن جنيْتُ لك وظلمْتُ نفسي.
لأنّي في الأول هازلٌ كجادّ، وفي الثاني قابلٌ كرادّ.
فارحمني إذا قلتُ وارحم نفسك إذا سمعت.

*

(...) إن قلت:
المعنى أصل فالاسم فرعٌ عليه.
وإن قلت:
الاسمُ أصلٌ فالمعنى غير مشار إليه.
وإن قلت:
المعنى والاسم أصلان فأيُّهما يُعوّل عليه؟
وإن قلت:
الاسم والمعنى فرعان فأين الأصل الذي تقف لديه؟
هيهات أن يكون مُخْبراً بلسان، أو مُضمراً بجنان، أو مطويّاً بقلب، أو ملويّاً بلبّ، أو موهوباً بحدْس، أو مهموساً بهمس، أو ملموساً بنفس، أو محسوساً بحس، أو معقولاً بعقل، أو موجوداً بعيان، أو مفقوداً بمكان أو موسوماً بزمان، أو محرّفاً بنعت، أو معرّفاً بوقت، أو مصرّفاً بلفْت،

حشو القلوب منه التخيل المحض، ونهاية الإنسيّة منه التمثيل البحت، والحقّ من وراء ذلك على التحصيل الصرف.

*

انثرْ عن كاهلك كل ما أثقلك في مقصدك،
وكن لنفسك بنفسك
تجد أنسك في أنسك.

*

(...) أما حالي فسيّئة كيف قلّبْتها،
لأنّ الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها،
والآخرة لم تغلِبْ عليّ فأكون من العاملين لها.
وأمّا ظاهري وباطني فما أشدّ اشتباههما لأنّي في أحدهما متلطّخ تلطُّخاً لا يقْرَبُني من أجله أحد،
وفي الآخر متبذِّخٌ تبذُّخاً لا يُهتدى فيه إلى رشَد.
وأما سرّي وعلانيتي فممقوتان بعين الحقّ لخُلوِّهما من علامات الصّدق، ودنُوّهما من عوائق الرقّ.
وأمّا سكوني وحركتي فآفتان محيطتان بي،
لأني لا أجد في أحدهما حلاوة النّجوى،
ولا أعْرى في الآخر من مرارة الشكوى.
وأمّا انتباهي ورقدتي فما أفرّق بينهما إلا بالاسم الجاري على العادة.
ولا أجمع بينهما إلا بالوهم دون الإرادة،
وأما قراري واضطرابي فقد ارتهنني الاضطراب حتى لم يدع فيّ فضْلاً للقرار. وغالبُ ظنّي أنّي علقتُ به لأنه لا طمع لي في الفكاك، ولا انتظار عندي للانفكاك.
وأمّا يقيني وارتيابي فلي يقين ولكن في درك الشقاء.

فمن يكون يقينه هكذا كيف يكون خبره عن الارتياب؟

*

(...) لا سرّ إلا وهو متّهم،
ولا قائل إلّا وهو متوهِّم،
ولا سامع إلا وهو كظيم،
ولا عاملَ إلا وهو مليم،
ولا قلب إلا وهو سقيم،
ولا لائم إلا وهو ملوم،
ولا واجد إلا وهو عديم،
ولا غنيّ إلا وهو فقير،
ولا عظيم وإلا هو حقير،
ولا كثير إلا وهو قليل،
ولا صحيح إلا وهو عليل،
ولا قريب إلا وهو بعيد،
ولا هيّن إلا وهو شديد.
فهل رأيتَ ناراً كلّما أطفئت اشتعلت،
وهل رأيت كبداً كلّما بُلّتْ جفّت؟
وهل رأيتَ سقماً كلما عولج أعْضل؟
وهل رأيتَ بياناً كلما وضحَ أشكل،
وهل رأيْت مطلوباً كلّما دنا بعُد،
وهل رأيتَ صداًً كلّما جُلي زاد؟
وهل رأيتَ شيئاً كلّما كوِّن فسد؟
وهل رأيت مهجِّراً كلما استظلّ أضحى؟
وهل رأيتَ وضعاً كلّما استقام عُكس؟

هيهات...!

*

يا هذا!

الحديث ذو شجون،

والقلبُ طافحٌ بسوء الظنون، بما لعلّه يكون أو لا يكون.

فكرٌ يخالطهُ جهلٌ وجنون، ويفارقُهُ علمٌ ويقين.

ولكن بقيَ أن تملك زِمام الفكر، كما تملك عنان الذّكر.

لأنّ القلْب هدف، والهدف لا يزول عن تُجاه الرامي ولا ينحرف، إلى غير جهة المسدّد.

فمن لك الآن بقوّةٍ بها تدبِّر فكرك أو تكرِّر ذكرك، أو تأمن في أضعاف مكرك ونُكرك.

إنّك ربّما اعوججت في طيٍّ مستقيم،

واستقمْتَ في مخيلة المعوجّ.

وذلك لأنّك مملوك، والمملوك لا يكون مالكاً،

والأوّل لا يكون ثانياً، والصّاعد لا يكون نازلاً.

*

هذا، فديتك! نبأ غريب استنبط من الغيب المكنون والسرّ المخزون،

فإذا كان هذا خبراً عن بعض ما تراهُ العين، فأين تجدك في ما يجدُهُ القلب!

ثمّ أين أنت عما وراء ذلك مما لا يبدو إلا بإذْن الحق الذي أخفى الخوافي في البوادي،

وأبدى البوادي في الخوافي.

ثم حكم بالبوادي على أنها الخوافي،

وعكس الخوافي على أنّها البوادي،

لتكون ملكوته محفوفة بالعبرة بعد العبرة،
ولينقلب المتصفّحون عنها بالحسرة بعد الحسرة؟
ذلك سرٌّ لا سبيل إلى السّؤال عنه، لأنّه جرأة عليه. والجرأة موجبةٌ للمقت،
والمقْتُ بابٌ للسُّخط، والسُّخط جالبٌ للبعاد.
ولا سبيل أيضاً إلى الجواب عنه،
لأنّه محوٌ للكلّ، وتطويحٌ للعقل،
وكبْسٌ على التحصيل، وطمْسٌ على الدليل،
واغتراب في الوطن، واجتذابٌ للحزن،
واختلاطٌ للقبيح في الحسن،
فسُبحان من وارى منافع ما جُهِل من سرِّه في عُرْض ما عُرف من علانيته،
وسبحان من لو شاء لأرانا في الذي أرانا غيْرَ ما أرانا،
وأتانا من لدُنْه سوى ما أتانا.

*

إخوان الصفاء*

مَثَلُ النّفس مع الجسد كعابد صنم يعبدهُ بالليل والنهار.

*

الجسد كأنه كافر محجوب عن الله لا يعرفه،

ولا يدري من خلقه ورزقه. ومن وجهٍ آخر كأنه صاحب بدعة، يدعو إلى هواه ويريد أن تكون الأمور بمراده.

أو كأنه جاهل عجول، لا ينظر في العواقب،

وأيضاً كأنه عدو للنفس يُظهر الصداقة ويكتم العداوة،

وأيضاً كأنه شيطان من كثرة الوساوس،

وأيضاً كأنه إبليس يدعو إلى العداوة،

وأيضاً كأنه ميت على جنازة حملتها النفس على كتفها لا تستريح منه... حتى إذا دفنته في التراب.

*

وكأن الجسد غيم بين أبصار الناظرين ونور الشمس،

لأن ظلمات أخلاط الجسد تمنع عن النظر إلى النور العقل، وهو يمطر الآمال

ويُنسي الآجال.

*

---

* تألقت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري في البصرة وكان لها فرع في بغداد.

(...) ومثل هذه النفس الجزئية، مع شرفها وشرف جوهرها وما هي عليه من غربتها في هذا العالم الذي تحت الكون والفساد، وما ابتليت به من آفات هذا الجسد، وفساد هيولاه، كمثل رجل حكيم خبير في غربة، وقد ابتلي بعشق امرأة رعناء فاجرة ومن شدة محنته بمحبتها، وعظم بلائه بصحبتها وقد صرف كل همته إلى إصلاح أمرها حتى نسي أمر نفسه وصلاح شأنه فكأنه قد قُرِن بشيطان مريد.

*

كثير من الناس يظنون أن العشق لا يكون إلا للأشياء الحسنة.

ليس الأمر كما ظنوا، فقد قيل:

يا رُبّ مُسْتَحسنٍ ما ليس بالحسن.

العلة في ذلك هي الاتفاقات بين العاشق والمعشوق وهي كثيرة منها:

أن الاتفاقات بحسب المناسبات التي بين أجزاء المركبات.

فمن تلك المناسبات، ما هي بين كل حاسة ومحسوساتها،

وذلك أن القوة الباصرة لا تشتاق إلا إلى الألوان والأشكال، ولا تستحسن منها إلا ما كان على النسبة الأفضل.

وهكذا القوة السامعة،

لا تشتاق إلا إلى الأصوات والنغم ولا تستلذ منها إلا ما كان على النسبة الأفضل.

*

إن الموجودات لما كان بعضها عللاً، وبعضها معلولات، ومنها أوائل ومنها ثوان، جعلت في جِبِلَّة المعلولات نزوعاً نحو علاتها واشتياقاً إليها،

وجعلت في جِبلّة علّاتها رأفة ورحمة وتحنّناً على معلولاتها... كما يوجد ذلك في الآباء والأمهات على الأولاد ومن الكبار على الصغار.

*

(...) لطائفة الفقراء وأهل البلوى، فضائل كثيرة،

ولله في إيجادهم حكمة جليلة تخفى على كثيرٍ من العقلاء، والمترفهين من أبناء الدنيا، فمنها:

أشد الناس يقيناً بالآخرة من غيرهم من المترفهين،

وأنهم أسرع الناس إجابة لدعوة الأنبياء من غيرهم من المترفين وأرباب النعم،

وأنهم أخف مؤونة، وأقل حوائج، وأقنع باليسير، وأرضى بالقليل، وأرق قلوباً في الفكرة والتذكر.

*

كثير من العقلاء المترفين إذا نظروا (لطائفة الفقراء) يظنون بالله ظن السوء:

فمنهم من يرى أن الذي نالهم من ذلك، من سوء اختيارهم وشؤمهم وخذلانهم.

ومنهم من يرى أن الصواب لو أنهم لم يُخلقوا لكان ذلك خيراً لهم،

ومنهم من يرى أنهم معاقبون بما سلف منهم في الأدوار الماضية من الذنوب،

وهذا رأي أصحاب التناسخ.

ومنهم من يرى أن الله ليس يفكر بهم ولا يهمه أمرهم وإلا كان قادراً على أن يُغنيهم أو يميتهم ويريحهم مما هم فيه من الجهد والبلوى.

ومنهم من يرى أن هذا ليس يجري بعلم عالم أو حكم حكيم، بل هو بحسب سوء اتفاق رديء.

ومنهم من يرى أن هذه موجبات أحكام من غير قصد قاصد، ولا صنع صانع،

ومنهم من يرى أن هذا إنما يُفعل بهم ليُجازوا به ويثابوا عليه.

ومنهم من يرى أن هذه الحال أصلح لهم وأنفع من غيرها.

ومنهم من يرى أن هذا كان في سابق العلم والقدر المحتوم لم يكن بدٌّ من كونه.

ومنهم من يرى أنه إظهار القدرة وتحكم في الملك، وإنفاذ المشيئة.

ومنهم من يرى أن هذه موعظة ووعيد وتهديد وتخويف لغيرهم.

ومنهم من يرى أن هذا هو الأحكم والأتقن، وإن كان لا يدري ما وجه الحكمة في ذلك،

فليس إلا الإيمان والتسليم والصبر والرضا بما يجري به القضاء والقدر.

*

كل مسألة تنازع فيها اثنان، أو جماعة، فلا يخلو من أن يكونوا من أهل تلك القناعة التي المسألة منها، أو يكونوا من غير أهلها.

فإن كانوا من غير أهلها فكلامهم فيها على غير أصل مقرر منهم. وكلّ كلام أو منازعة في شيء على غير أصل مقرر منهم، فلا تحصيل لكلامهم فيه، ولا حجة لدعاويهم.

وإن كان أحدهما من غير أهلها، فإن منازعته لصاحبها تعدٍّ وظلم، وكلام صاحبه معه تخلف منه، لأنه يجادل من ليس من أهل صناعته.

وإن كان من أهل تلك القناعة، فلا يخلو من أن يكونا متساويي الدرجة فيها أو متفاوتين،

فإن كانا متفاوتين، فحكمهما مثل ما تقدم ذكرهما من ذكر حكم الأولين،

وإن كانا متساويي الدرجة في تلك القناعة، فسبيلهما أن يؤخذا فيما اختلفا فيه إلى قوانين تلك القناعة وأصولها ويقيسا عليها تلك المسألة وإن كانت من فروعها.

*

وإن لم يكن في قوة نفوسهما استخراجها، فسبيلهما أن يتحاكما إلى من هو أعلى درجة منهما في تلك القناعة.

فإن لم يجدا من يحاكم بينهما فيرضيان بحكمه ولا في قوة نفوسهم استخراجها من الأصول، فليس لهما إلا الترك لتلك المسألة والسكوت عنها.

*

فإن لم يفعلا ما وصفنا في الجدال والخصومة، فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما.

وكلما ازداد إلحاحاً، ازداد خلافاً على خلاف، وعداوة على عداوة إلى يوم القيامة.

وهذا أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب.

*

صناعة الموسيقى، استخرجتها الحكماء بحكمتها، وتعلمها الناس منهم، واستعملوها كسائر الصنائع في أعمالهم ومتصرفاتهم، بحسب أغراضهم المختلفة.

(...) فاستعملوها في الهياكل وبيوت العبادات، وعند القراءة في الصلوات، وعند القرابين والدعاء، والتضرع والبكاء،

كما كان يفعل داوود النبي، عند قراءة مزاميره،

وكما يفعل النصارى في كنائسهم، والمسلمون في مساجدهم، من طيب النغمة ولحن القراءة،

فإن كل ذلك لرقة القلوب، ولخضوع النفس ولخشوعها.

وكانوا يستعملون عند الدعاء ألحاناً تسمى «المُحْزِن» وهي التي ترقِّق القلوب إذا سُمعت، وتبكي العيون، وتكسب النفس الندامة... وإخلاص السرائر، وإصلاح الضمائر.

واستخرجوا أيضاً لحناً آخر، يقال له «المشجّع» كانت تستعمله قادة الجيوش في الحروب والهيجاء، يكسب النفوس شجاعة وإقداماً.

واستخرجوا لحناً آخر يستعملونه في المشافي، وقت الأسحار، يخفف ألم الأسقام والأمراض، ويكسر سورتها، ويشفي الكثير منها.

واستخرجوا أيضاً لحناً آخر، يستعمل عند المصائب والأحزان والغموم في المآتم،

يعزي النفوس، ويخفف ألم المصائب، ويسلي عن الاشتياق، ويسكّن الحزن.

واستخرجوا أيضاً لحناً آخر يستعمل عند الأعمال الشاقة، والصنائع المتعبة مثل ما يستعمله الحمالون والبناؤون، وملاح الزواريق، وأصحاب المراكب،

يخفف عنهم كدّ الأبدان وتعب النفوس.

واستخرجوا ألحاناً أخرى، تُستعمل عند الفرح واللذة والسرور في الأعراض والولائم وهي المعروفة المستعملة في زماننا هذا.

وقد تستعمل هذه الصناعة للحيوانات أيضاً، مثل ما يستعمله الجمالون من الحداء في الأسفار، وفي ظلم الليل، لينشط الجمال في السير ويخفف عنها ثقل الأحمال.

ويستعملها رعاة الغنم والخيل والبقر، عند ورودها الماء، ترغيباً لها في شرب الماء.

ويستعملون لها أيضاً ألحاناً أخرى عند هيجانها، للنّزْوِ والسفاد، وألحاناً أخرى عند حلب ألبانها لتدرّ.

ويستعمل صياد الغزلان والدراج والقطا وغيرها من الطيور، ألحاناً في ظلم الليل، يوقعها بها، حتى تؤخذ باليد.

فصناعة الموسيقى يستعملها كل أحد من الأمم،
ويستلذها جميع الحيوانات التي لها حاسة السمع.
وإن للنغمات تأثيرات في النفوس،
كما أن لسائر الصناعات تأثيرات في الأجسام.
فنقول الآن: إن الموسيقى هي الغناء، والموسيقار هو المغني،
والموسيقات آلة الغناء، والغناء ألحان مؤلفة، واللحن نغمات متواترة،
والنغمات هي أصوات متزنة،
والصوت هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها ببعض.
واعلم أن كل صوت له نغمة وصفية، وهيئة روحانية، خلاف صوت آخر،

وأن الهواء من شرف جوهره ولطافة عنصره، يحمل كل صوت بهيئته وصفته ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض، فيفسد هيأتها، إلى أن يبلغها إلى أقصى مدى غاياتها عند القوة السامعة لتؤدِّيها إلى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ.*

*

(...) الجسد لهذه النفس بمنزلة دار لساكنها،
بنيت وأحكم بناؤها،
وقسمت بيوتها وملئت خزائنها،
وسقفت سطوحها،
وفتحت أبوابها،
وعلقت ستورها،

---

* من رسالة تتحدث عن الموسيقى والأصوات.

وأعد فيها كل ما يحتاج صاحب المنزل في منزله من الفراش والأواني والأثاث والمتاع على أتم ما يكون وأكمله وأتقنه.

فرجلاه وقيام الجسد عليهما كأساس الدار،

ورأسه في أعلى بدنه كالغرفة في أعلى الدار،

وظهره من خلفه كظهر الدار،

ووجهه أمامه كصدر الدار،

ورقبته وطولها كرواق الدار،

وفتح حلقومه وجريان الصوت فيه كدهليز الدار،

وصدره في وسط بدنه كصحن الدار،

والأوعية التي في صدره كالبيوت والخزائن في الدار.

ورئته وبردها كالبيت الصيفي،

وقلبه مع الحرارة الغريزية كالبيت الشتوي،

ومعدته ونضج الغذاء فيها كالمطبخ،

وكبده وحصول الدم كبيت الشراب،

ومجاري عروقه، وجريان الدم والنبض إلى سائر الأطراف كمسالك الدار،

وطحاله وحصول عكر على الدم فيه كخزانة الأثاث،

ومرارته وحدة الصفراء فيها كبيت السلاح،

وجوفه والحجب التي فيه كبيت الحُرم،

وأمعاؤه وثقل الطعام فيها كبيت الخلاء.

وعظامه وقوام الجسد عليها كحيطان الدار،

والعصب الممدودة على المفاصل كالعوارض على الحيطان، ولحمه في خلل العظام والعصب كالملاط.

ثم إن هذا الجسد لهذه النفس من جهة أخرى بمنزلة دكان الصانع،
وإن جميع أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع في دكانه،
وإن النفس بكل عضو من أعضاء الجسد تظهر ضروباً من الأفعال، وفنوناً من الأعمال،
كما أن الصانع بكل أداةٍ يعمل ضروباً من الأعمال، وفنوناً من الحركات،
كالنجار فإنه ينحت بالفأس، وينشر بالمنشار، ويثقب بالمثقب.

*

وهكذا النفس، تبصر بالعينين، وتسمع بالأذنين، وتشم بالمنخرين، وتذوق باللسان، وتتكلم بالشفتين، واللسان، وتمس باليدين، وتعمل الصنائع بالأصابع، وتمشي بالرجلين، وتبرك على الركبتين، وتقعد على الإليتين، وتنام على الجنبين، وتستند بالظهر، وتحمل الأثقال على الكتفين، وتتفكر بوسط الدماغ الأشياء، وتتخيل بمقدم الدماغ المحسوسات، وتحفظ بمؤخر الدماغ المعلومات، وتصوِّت بالحلقوم، وتستنشق الهواء بالخياشيم، وتقطع الطعام بالأسنان، وتزدردُ بالمري وما شابه ذلك.
ثم إن هذا الجسد، لهذه النفس الساكنة فيه، يشبه مدينة عامرة بأهلها، مأنوسة بسكانها،
وحالات الجسد تشبه حالات المدينة،
وتصرّف النفس يشبه تصرف أهل المدينة فيها.*

*

* من الرسالة التاسعة. فصل في تركيب الجسد، وقد قابل إخوان الصفاء كل عضو أو وظيفة في الجسد بما يشابهه في المدينة بتفصيل دقيق.

(...) فينبغي لك إذا أردت أن تتخذ صديقاً أو أخاً، أن تنتقده، كما تنتقد الدراهم والدنانير، والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس. وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك، والأمتعة التي يشترونها.

واعلم أن الخطب في اتخاذ الإخوان، أجلّ وأعظم خطراً من هذه كلها،
لأن إخوان الصدق، هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعاً،
وهم أعز من الكبريت الأحمر،

وإذا وجدت منهم واحداً، فتمسك به، فإنه قرة العين ونِعم الدنيا، وسعادة الآخرة.

لأن إخوان الصدق نصرة على دفع الأعداء وزين عند الأخلاء، وأركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى، وظهر يستند إليهم عند المكاره في السراء والضراء.

(...) وإنهم إن غبت حفظوك، وإن تضعضعت عضدوك، وإن رأوا عدواً لك قمعوه.

والواحد منهم كالشجرة المباركة،
تدلت أغصانها إليك بثمرها،
وسترتك بجميل فيئها.
فإن ذكرت أعانك، وإن نسيت ذكرك،
يأمرك بالبر ويسابقك إليه،
ويرغبك في الخير ويبادرك إليه،
ويدلك عليه، ويبذل ما له ونفسه دونك.

*

واعلم أن أعمال الناس في ظاهر أمورهم، تكون بحسب أخلاقهم التي طبعوا عليها وبحسب عاداتهم التي نشأوا عليها، أو بحسب آرائهم التي اعتقدوها.

فإذا رأيت الرجل معجباً صلفاً، أو نكداً لجوجاً، أو فظاً غليظاً، أو مماحكاً ممارياً أو حسوداً حقوداً، أو منافقاً مرائياً، أو بخيلاً شحيحاً، أو جباناً مهيناً، أو مكاراً غداراً، أو متكبراً جباراً أو حريصاً شرهاً،

أو كان محبّاً للمدح والثناء، أكثر مما يستحق،

أو كان مزرياً لنظرائه،

أو كان مستحقراً لأقرانه والناس، ذامّاً لهم، أو متكلاً على حوله وقوته،

فاعلم أنه لا يصلح للصداقة وصفوة الأخوة، لأن هذه الأخلاق والآراء والعادات مفسدة لاعتقاده لإخوانه:

ذلك أن من يختر المطالبة بما لم يجب له، لا تسمح نفسه ببذل ما يجب عليه.

وهكذا الحسود واللجوج والغضوب،

تمنعه هذه الأخلاق من الإذعان للحق،

وهكذا اللجاج والتكبر يمنعان عن قطع الجدال والخلاف، وكذلك الفظاظة والغلظة تمنعان من العذوبة والسهولة،

والشراسة والغضب يهيجان على المكابرة.

واعلم أن الصداقة لا تتم بين مختلفين بالطبع، لأن الضدين لا يجتمعان، مثال ذلك:

السخي والبخيل، فإنهما متضادان في الطبع، لا تتم بينهما الصداقة، ولا تصفو لهما المودة ولا يهنيهما العيش، لأنه إذا فعل السخي شيئاً مما يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف رآه البخيل بصورة المضيع، قد فعل ما لا ينبغي ولا يجوز.

وإذا فعل البخيل شيئاً بطبعه، من إمساك المال مما يوجبه بخله، رآه السخي بصورة من أتى منكراً، لا يحسن فعله، فيصير ذلك سبباً لعيب كل

واحد منهما على صاحبه، حتى يعتقد البخيل في السخي سخف الرأي وتضييع المال وترك النظر في العواقب. ويعتقد السخي في البخيل، النذالة والدناءة، وصغر النفس وقصور الهمة، فإذا وقع بينهما ودام، وصار وحشة وتواترت، حتى تصير عداوة، وتصير العداوة إلى الصرامة وهذا القياس في كل خلقين مختلفين متضادين، فإنهما يوجبان المنازعة،

والمنازعة توجب المغالبة،

والمغالبة تنتج المغايظة،

والمغايظة توجب المباغضة،

والمباغضة ضد الصداقة.

واعلم يا أخي، أن الإنسان كثير التلون،

قليل الثبات على حال واحد.

وذلك لأنه قل من الناس من تحدث له حال من أحوال الدنيا، أو أمر من أمورها، من غنىً إلى فقر، ومن حضر إلى سفر، أو من عزوبة إلى زواج، أو من ذل إلى عز، أو من عطلة إلى شغل، أو من بؤس إلى نعمة، أو من رفعة إلى ضعة، أو من ضعة إلى رفعة، أو من صناعة إلى تجارة، أو من صحبة قوم إلى صحبة آخرين، أو من رأي مذهب إلى مذهب، أو من شباب إلى شيخوخة، أو من صحة إلى مرض،

إلا ويحدث له خلق جديد، وسجية أخرى، ويتغير خلقه مع إخوانه، ويتلون مع أصدقائه.

إلا إخوان الصفاء الذين ليست صداقتهم خارجةً عن ذاتهم. وذلك أن كل صداقة تكون لسبب ما. فإذا انقطع ذلك السبب، بطلت تلك الصداقة، إلا صداقة إخوان الصفاء، فإن صداقتهم قرابة رحم،

ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض، ويرث بعضهم بعضاً. وذلك أنهم يرون ويعتقدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، فكيفما تغيرت حال الأجساد بحقيقتها، فالنفس لا تتغير ولا تتبدل.

وحقيقة أخرى، أن أحدهم إذا أحسن إلى أخيه إحساناً، فلا يُمن عليه لأنه يرى ويعتقد أن إحسانه إلى نفسه،

وإن أساء إليه أخوه، لم يستوحش منه، لأنه يرى ذلك كان منه إليه.

فمن اعتقد في أخيه مثل هذا، واعتقده أخوه فيه مثل ذلك، فقد أمن كل واحد من أخيه غائلته، أن يتغير في يوم من الأيام.

*

الراغب الأصفهاني*

بين العقل والشرع تظاهر، ويفتقر أحدهما إلى الآخر.

*

الإنسان مفطور على إصلاح النفس.

*

النظر في العواقب من خاصية الإنسان.

*

الذين ينطقون، ولكن عن الهوى،
ويتعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم،
ويعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا،
ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق،
ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون،
ويدعون مع الله إلهاً آخر وإن كان بالصور المحسوسة ناساً، فهم أشباه رجالٍ ولا رجال.

*

---

* أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل توفي سنة 402 هـ.

أبو المغيرة بن حزم*

(...) وليس في الحيوان أخبث من الإنسان.
فالاحتراس كل الاحتراس والمعاشرة الجميلة للناس،
ولا تُلْدَغن من جحر مرتين.
العاقل من حمله كل بلد،
ونفق عند كل أحد،
وأعقل منه من عرف الناس ولم يعرفوه،
فاستراح من أجنبي متكلف إلى قريب غير منصف.

*

لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا.
وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يلعن،
يتعب أحدنا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه والزمان بمضائه،
ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره مخطوبة.
إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً،
وإن رأوا فضيلة وجموا لها ترحاً.

*

---

* هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن، فارسي الأصل، عاش في أواخر القرن الرابع وفجر الخامس. مات شاباً.

ابن مسكويه*

يا طالب الحكمة! طَهِّر لها قلبك، وفَرّغ لها لُبّك، واجمع إلى النظر فيها هِمّتك. فإن الحكمة أعظم المواهب التي وهبها الله لعباده، وأفضل الكرامة التي أكرم بها أولياءه. هي المال الذي مَنْ أحرزه استغنى به، ومَنْ عَدِمَه لم يغنه شيءٌ سواه. والصاحب الذي من صحبها لم يستوحش معه ومَنْ فارقه لم يسكن إلى أحدٍ بعده.

هي للقلوب كالقطرة للنبات، ومن العقول بمنزلة الضياء من الأبصار. بطنت الحكمة لكل شيء، وظهرت عليه، وعَلَتْ فوقه، وأحاطت به. فلها بكل شيء خبر، وعندها على كل شيء شهادة. ومِنْ أعظم شأنها أنه ليس أحد إلا وهو منتحل اسمها، ومزيّن بها، ولا حاجة بها إلى انتحال شيء غيرها، ولا التزيّن بغير زينتها:

فإن كُنْتَ من جملتها ففرّغ لها قلبك، وارفع إلى النظر فيها فهمك، فإنها أطهر من أن تجامع دَنِساً، وأنزه من أن تخالط قَذِراً. وقد رأينا من أراد الغَرْسَ في أرضه يبدأ فيقلع ما فيها من غرائب النبت، ثم يأتي بكرائم الغرس فينصبه فيها.

وكذلك من طلب الحكمة وهبّ في اقتنائها فهو حقيق بأن يبدأ بما في قلبه من أضدادها فيمحقها ويطهره منها: مثل الهوى والشهوات المُرْدية،

* أحمد بن محمد بن يعقوب، الملقّب مسكويه. توفي سنة 421 هـ. قال عنه أبو حيان التوحيدي: كان أحد متكلمي زمانه، عملَ حاجباً لابن العميد وخازناً لكتبه.

ومثل الحقد والحَسَد، ومحبة الكرامة والتسرّع إلى الغضب، وأشباه هذه الأشياء. فإذا تطهّر عنها، استقبل الحكمة فأخذ منها ما استطاع.

فإذا أظفرك الله بالحكمة وزرع فيك بذرها، فلا يكُوننَّ زارعٌ أوْلى بالقيام على زرعه منك. ولا يمنعنّك بُعْدُ غورها وكثرة أشباهها منها، فإنه من المعونة على نفسها مثل الذي بالشمس للأبصار على استثباتها والاستبانة لها. فمن صحّ بصر نفسه ثم وصل بما صحّ منه إلى ما يرد عليه من الحكمة أو رابه شيء من الأمور، لم يمنعه ما فاته منها أن يسمى حكيماً، ويُلْحقه ما ظفر به بالحكماء، كما لا يمنع البصر ما فاته من المبصرات من أن يُدْعى بصيراً ونلحقه بالبصراء.

فإذا صحّ لك من عقلك ما تعرف به وجوه الحكمة وترغب به في الخير وتميّز بينه وبين الشرّ، فليس بشهادة الناس، ولا بما يسمونه حكمة تكون حكيماً، ولا بعقولهم تعدّ من العقلاء، ولا بسائر ما يثنون عليه من ودّهم ونصائحهم تكون فاضلاً. وإنما الناس رجلان: رجلٌ لا خير فيه جاهل بحقيقة الحكمة فليس ملتفتاً إليه، ورجلٌ من أهل الحكمة لا يمنعك ما سهّل الله له به سبيل الخير، بل يبذله لك، لأنه ليس يباع بثمن ولا يمنع من طالب ولا يكتم كاكتتام الذنوب.

واعلمْ أن العقل متوجه أينما وجّه له، وله غناء أينما صُرِف. وبعض مصارفه أنفعُ من بعض. فإذا صُرف إلى الدين أحكمه وتفقّه فيه، وإذا صُرِف إلى الدنيا أغنى بها واختال فيها. فليس مستودعاً شيئاً إلا حفظه، ولا مصبوغاً بصبغٍ إلاّ قَبِله، ولا محمّلاً رشداً ولا غيّاً إلا تحمّله. فإياك أن تعدل عن رشد، أو تصرف إلى غَيّ عامداً أو مخطئاً، فإنك لست محكماً به شيئاً من أمر دنياك إلا أضعت به أكثر منه من نافع الأدب.

غير أنك مجمع إلى ضياع العناية بما لا ينفعُ استيجاب التبعة في ما أضعتَ. وليس شيء من أمر الدنيا صرفت إليه عقلك فأحكمته، إلاّ سيعود محكمه عن وشيكٍ ضائعاً وصالحه فاسداً؛ لا يصحبك شيء منه في آخرتك، ولا يوثق ببقائه لك في دنياك. وإنما وهن أمر صاحب الدنيا وبطل سعيه لأنه بنى في غير داره، وغَرَس في غير أرضه ولم يكن له حين جاء من شخصه إلاّ أن يبغضه ويدعه لغيره. ومَن أخطأه الحق، ظهر به الحمق والبَلَه. ومَنْ صَرَف عقله إلى غير الحق ظهر به الوهي؛ وبعض الوهي أبلغ في الشرّ من كثير من الحمق. وإنما القصد في ذلك أن يصاب الحق، ثم لا يصرف به عن جهته.

اعلمْ أنه من غابت الحكمة عن عقله، عجز عن إنفاذ الأمور. كما تعجز العين الصحيحة عن رؤية الأشياء عند فقد الضياء؛ لا يُسَلَّم له حق، وإن حسنت ولايته، وذلك أنه إن كان جواداً أفسد جوده التبذير، وسوءُ موضع الصنيعة بصرف العطيّة إلى من لا حقّ له، مع منع ذوي الحق. وإن كان غليظاً، أفرط في القول وأخطأ البغية. وإن كان عالماً أفسد علمه الذل والمهانة. وإن كان صموتاً، أضرّ بصمته العِيّ. وإن كان ليّناً، بلغ لينُه الضعفَ.

فمن فقد الحكمة من أهل الخصال الحسنة ضاعت خصاله. ومَنْ فقدها من غيرهم هَلَكَ كلّ الهلاك.

وأمّا أنت فلا تمدّن نفسك على صدق في غير دين، ولا تمكن غاية الصدق في نفسك أن تقول بما رأيت وسمعت، فإن أكثر ما ترى غير نافع، وجُلّ ما تسمع كذب.

لا تكتفينّ مع ذلك من القول بالحق في الدين دون صدق النية وصواب المواضع. وأعني بصواب المواضع أن ترغب في الأجر وتحرص على

الحظوة، فتنطق في غير موضع النطق، أو تعطي من ينبغي أن تحرمه. فإن إعطاء الفاجر تقوية له على الفجور، والنطق عند الجاهل إغراءٌ له بجهله، وحمل له على عداوتك. وكذلك جميع الفضائل إذا لم تستعمل في مواضعها ضَرّت.

*

لا تُرْضِك من نفسك براءتك من ذنوبٍ تركتها عجزاً عنها أو حياءً منها أو رغبة عن أشباهها. ولا تعدنَّ مع ذلك تركك لها على تلك الوجوه تركاً، ولا براءتك منها براءة، فإنه ليس بينك وبين مفارقة ما تركت إلاّ أن يمكنك أو يخفى لك. واعلمْ أنه لا حمد لك في تركها إلاّ بعد القدرة عليها والاستمكان منها، فإنه مَنْ كان من شأنه تركُ الذنوب مع القدرة عليها، حُمِد على البراءة منها. ومَنْ لم يقدر عليها أو تركها لبعض ما ذكرناه من الحياء، أو لنزاهة، وكان من نيته ركوبها إذا زالت تلك الأعراض، لم يبرأ من مذمّته. وإن استطعت مع ذلك أن تكون في ما امتنع منك من عمل الخيرات على حالٍ يعلم الله أنك قدرت عليه، أمضيت العمل به، فافعل. فإنك إذا كنت كذلك ثبت لك العذر بما تركت، وحُقّ لك الأجر بما نويت. إن عجزت عن إصلاح نفسك بجميع الوصايا الحكيمة، فلا تدع أن تأمر به غيرك. (...) وإن عصيت، لم يخطئك ثواب ما نويت. واعلم أن نفس الانسان قد وضعت حيث تكثر آفاته بين أعدائه. فإن هاج به الحرص أهلكه الطمع؛ وإن هاج به الغضب، أهلكه الغيظ. وإن عَرَض له الخوف، شغله الجد. وإن أصابه نعيم، دخلته العزمة. وإن كُفيَ بالغنى، أطغاه المال. وإن عضّته الفاقة، شغلته المهانة. وإن رزق الكفاية، عَرَض له الكسل. وإن أجهده الجوع، قعد به الضعف. وإن أفرط في الشبع، كظّته البطنة. فكل

إفراط مفسد، وكل تقصير به مضر. فخير أحواله أن يقصر به عن الغنى، وتُدْفَع عنه الفاقة ويُصْرَف عنه الطمع، ويبذل له الكَفَاف، ويمنع من الكظّة ويقتصر به على القوت. ولا يزال من أمره على قصد من الغلوّ والنقصان.

إن كنت عرفت الهوى وعداوته للعقل، فقد علمت أنه بعد درك العلم والتعب بالأدب الصالح، تأبى إلا ركوب ما تشتهي، والتثاقل عمّا لا تشتهي. فإذا رأيت منازعته إلى مضارّك، وتثاقله عن منافعك . فقابله بالورع فإن الورع من قِبَل النية الثابتة والتمسك بالدين القيّم. ومَنْ عَرَف نفسه بالنية السيئة، فليس يأمن الانقياد للهوى. والانقياد للهوى استسلام. والاستسلام هلكة، ولكن الرأي له إصلاح النيّة بالورع والدين، وأن يجاهد بأحسن أخلاقه أسوأها، جهاداً شديداً حتى يظفره الله بها وينتاشه منها، إن شاء الله عز وجل.

*

من ضل قلبه مخافة خالقه لا يزال عن أكثر خلائقه مرغوباً.

*

من كان ميله إلى غير رضا الله عز وجل، فإن ذلك الشيء هو الذي يهلكه.

*

ينبغي للعاقل أن يحفظ ما يحكم عليه عقله ويبتغيه حتى لا يتسلط عليه النسيان بأن يديم تعهده. وقد سمى قوم إدامة نظر العقل إلى ما حصّله: ذهناً. وقال: إن الذهن لا ينام، ولا يغفل، ولا يسكن، ولا يغيب عنه عقله ولا يحتاج إلى تذكير. وهي هذه الدرجة العليا التي بها يشبه من كانت فيه الملائكة والأرواح، لأن العقل للبشر، والذهن للملائكة. فلذلك لا يعقل

الإنسانُ الشيءَ إلا بعد التفكر والتطلب والتمييز. وأما الملائكة فإنها تنظر بالذهن، كما ننظر نحن بالعين بلا حاجة إلى تفكير وتمييز وتطلّب.

*

قال حكيمٌ من العرب لابنه:

يا بُنَي، إني مُؤدٍ إليك حق الله في التأديب، فأَدِّ إليّ حق الله في حسن الاستماع.

كُفّ الأذى، واقض الندى، واسْتعن على الكلام بطول الفكر، في المواطن التي تدعوك نفسك إلى القول فيها، فإن للقول ساعاتٍ يضرّ فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصَواب.

احذرْ مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً.

لا بد للجواد من كبوةٍ، وللسَيف من نبوةٍ، وللحليم من هفوة.

من لم يصبر على كلمة، سمع كلمات.

عليك بإصلاح المال، فإنه يُنوّهُ بالكريم،؛ ويُستغنى به عن اللئيم.

*

(...) الجاهل إن جاورك أنصبَكَ، وإن ناسبَك جنى عليك، وإن ألفكَ حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك. مع أنه عند الجوع سَبعٌ ضار، وعند الشبع مَلِك فظ.

*

المصيبة واحدة: فإن جزعتَ فهي اثنتان.

*

ليس كل أنس مودة، ولا كل انقباض وحشة.

*

إخفاء العلم هلكة، وإخفاء العمل نجاة.

*

الليل والنهار يعملانِ فيك، فاعمل فيهما.

*

الوجوهُ إذا كثر تقابُلها، اعتصرَ بعضها ماءَ بعض.

*

إذا عظمت القدرة قلت الشهوة.

*

الموت شيء خُوِّف به العالم، فمن خاف منه فهو محجوبٌ عن الحق.

*

إذا ازدحمَ الرأي، خفَّ الصواب.

*

هذا ما عاهد عليه، أحمد بن محمد (...)
على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره، فيعف، ويشجُع، ويحكِم، وعلامة عفته:
أن يقتصد في مآدب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه، أو يهتك مروءته،
وعلامة شجاعته:
أن يحارب دواعي نفسه الذميمة، وحتى لا تقهره شهوة قبيحة، ولا غضب في غير موضعه،
وعلامة حكمته:
أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة، ليصلح أولاد نفسه* ويهذبها، ويحصل له من هذه

* أولاد النفس: كناية عن الأماني والآمال.

المعاهدة ثمرتها، التي هي العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة، ويجتهد في القيام بها، والعمل بموجبها، وهي خمسة عشر باباً:

إيثار الحق على الباطل في الاعتقادات،

والصدق على الكذب في الأقوال،

والخير على الشر في الأفعال،

وكثرة الجهاد الدائم، لأجل الجهاد الدائم، بين المرء وبين نفسه.

ومحبة الجميل، لأنه جميل، لا لغير ذلك،

والصمت في أوقات حركات النفس للكلام، حتى يستثار فيه العقل.

وحفظ الحال التي تحصل في شيء حتى تصير ملكة، ولا تفسد بالاسترسال،

والإقدام على كل ما كان صواباً،

والإشفاق على الزمان الذي هو العمر، ليستعمل في المهم دون غيره.

وترك الخوف من الموت والفقر، لعمل ما ينبغي،

وترك التواني، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد، لئلا يشتغل بمقاتلتهم،

وترك الانفعال لهم، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان، بجهة وجهة،

وذكر المرض وقت الصحة والهم وقت السرور، والرضا عند الغضب، ليقل الطغي والبَغْي.

*

الثعالبي*

الكريم إذا قدر غفر، وإذا أوثق أطلق، وإذا أسر أعتق.

*

الحرُّ كريم الظفر، إذا نال أقال، واللئيم إذا نال استطال.

*

زللْتُ، وقد يزل العالم الذي لا أساويه، وعثْرتُ وقد يعثر الجواد الذي لا أجاريه.**

*

* أبو منصور عبد الملك بن محمد. مولده بنيسابور، توفي سنة 429 هـ.

** من رسالة اعتذار.

أبو الفضل الميكالي*

أشكو إليك زماناً، سلب ضعف ما وهب،
وفجع بأكثر مما متَّع،
وأوحش فوق ما آنس،
وعنف في نزع ما ألبس فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق،
ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رهن التلهف والاشتياق.

*

(...) وأذم زماناً،
يفرق فلا يحسن جمعاً،
ويخرّق فلا ينوي رقعاً.
ويوجع القلب بتفريق شمل ذوي الوداد،
ثم يبخل عليهم بما يشفي الصدور والأكباد.
قاسي القلب فلا يلين لاستعطاف،
جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف.

*

كتابك تميمة فضل، ويتيمة مجد.**

*

* أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي المتوفى سنة 436 هـ. من أسرة لها عز وسلطان على مدى ثلاثة قرون، من الثالث إلى الخامس الهجري. وقد مدحهم الكثير من الأدباء والشعراء.

** كان مشهوراً بوصف الكتب التي ترده.

كتاب سلب الماء رقته، والنحل ريقته.

*

إذا نطق لسان الاعتذار، فليتسع نطاق الاستغفار.

*

قد تجاريت* والدهر في الظلم إلى غاية واحدة،
واخترعت في العقوق كل بدعة وآبدة،
لعلك تزيد عليه وطئاً في الظلم ثقيلاً، وسبحاً في التحيل طويلاً،
بل أنت أبعد منه في الإساءة غوراً.

*

* يذمُّ رجلاً.

هبة الله بن موسى*

(...) الشيخ الناطق بلسان الفضل والأدب، الذي ترك من عداه صامتاً، مشهودٌ له بهذه الفضيلة، من كل من هو فوق البسيطة غير أن الأدب الذي هو جالينوس طبه، وعنده مفاتيح غيبه ليس مما يفيده كبير فائدة، في معاشه أو معاده، سوى الذكر السائر به الركبان، مما هو إذا تسامح المذكور به، علم أنه له بمكانة الجمال والزينة، مادام حياً،

فإذا رمت به يد المنون، من ظهر الأرض إلى بطنها، فلا بِحُسْنِ ذِكْره ينتفع، ولا بقبيحه يستضرّ.

فيمكث إذا ذهب الزبد جفاء من غيره،

(...) والدليل على كونه ناظراً لمعاده، سلوكه سبيل العيش والتزهد، وعدوله عن الملاذ، من المأكول والمشروب والملبوس، وتعففه من أن يجعل جوفه للحيوان مدفناً أو أن يذوق من درّها لبناً، أو يستطعم من استبدت عليه في حرثه وإنشائه.

(...) أليس النبات موضوعاً للحيوان يمتاز منه؟ وبوجوده وجوده. وبقوّةٍ في الحيوان حساسة استولى على الانتفاع بالنبات ولو لم يكن الحيوان، لكان موضوع النبات باطلاً لا معنى له.

---

* هبة الله أبو نصر بن أبي عمران داعي الدعاة بمصر. كان مجايلاً لأبي العلاء المعري، وقد جرت بينهما مكاتبة في تحريم أكل الحيوان وتحليله. وهنا رسالة أبي عمران يبدأ بها الحوار. اقرأ رسالة أبي العلاء في موقعه من هذا الكتاب.

وعلى هذه القضية، فإن القوة الإنسانية، مستولية على الحيوان، استيلاء الحيوان على النبات، لرجحانها عليه بالنطق والعقل، فهي مسخرة له على أنواع من التسخير.

ولولا ذلك، لكان موضوع الحيوان باطلاً، فتجافي الشيخ، من الانتفاع بما هو موضوع له، مخلوق لأجله، إبطال لتركيب الخلقة.

ثم امتناعه عن أكل الحيوان، ليس يخلو القصد به من أحد أمرين:

الأول، إما أنه تأخذه رأفة بها، فلا يرى تناولها بالمكروه، وما ينبغي له أن يكون أرأف بها من خالقها،

فإذا ادعى أن تحليلها وتحريمها، إنما كان من بعض البشر يعني به أصحاب الشرائع،

وأن الله لم يُبح إراقة دم الحيوان وأكله، كان الدليل على بطلان قوله وقوع المشاهدة على السباع، وجوارح الطير، التي خلقت على صيغة لا تصلح، إلا لنتش اللحوم وفسخها، وتمزيق الحيوانات وأكلها.

وإذا كان هذا الشكل قائم العين في الفطرة، كان جنس البشر، وسيع العذر في أكل اللحوم وكان من أحلّ لهم ذلك محقاً.

والثاني، أنه يرى سفك دماء الحيوان خارجاً عن أوضاع الحكمة، وذلك اعتراض منه على خالقه، الذي أوجده.

وإذا أنعم الشيخ، وساق إلي حجة أعتمدها، رجوت كشف الغرض الذي وقع اعترافي به.

*

ابن زرعة*

الزمان، من قبل، كان ذا لبوسٍ من الدين رائع،
وذا يد من السياسة بسيطة،
فأخلقَ اللبوس، وضعفت اليد، بل شلّت وقطعت.

*

الناس أهداف لأغراض الزمان،
ومقلبون بحوادث الدهور،
ولا فكاك لهم من المكاره،
ولا اعتلاق لهم بالمحاب.
واختيارهم للتوجه إلى محبوبهم، أو الإعراض عن مكروههم ضعيف طفيف.
ولولا ذلك لكانت الحسرات تزول في وقت ما يراد،
والغبطة تملك بإدراك ما يتمنى.
وهذا شأو محكوم به بقوة النفس،
غير مستيقظ إليه بقوة الحس.

*

إني لأعجب من ناسٍ يقولون:

---

* أبو علي عيسى بن إسحاق، عالم نصراني من علماء بغداد، توفي سنة 398 هـ.

كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد، ومنهاج واحد، وهذا ما لا يستقيم ولا يقع به نظام.

*

ربما خلوت بنفسي كثيراً،

وخلعت بدني فصرت كأني جوهر مجرد، بلا بدن،

فأكون داخلاً في ذاتي وخارجاً من سائر الأشياء،

فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجباً باهتاً، فأعلم أني جزء من العالم الشريف وأني ذو حياة فعالة.

فلما بقيت كذلك ترقيت بذهني من ذلك العالم إلى العوالم الإلهية فصرت كأني موضوع فيها، معلق بها،

فأكون فوق العالم العقلي فأرى كأني واقف في ذلك الموقف الشريف،

وأرى هناك من البهاء والنور ما لم تقدر الألسنة على صفته، والأسماع على قبول نعته،

فإذا استعزَّ الشأن وغلبني ذلك النور والبهاء، ولم أقوَ على احتماله،

هبطت من العقل إلى الفكرة،

وحجبت الفكرة عني ذلك النور،

فأقضي عجباً أني كيف انحدرت من هذا العالم،

وعجبت أني كيف رأيت نفسي ممتلئة نوراً، وهي مع البدن كهيئتها.

*

كل من فكر فكراً رديئاً في غيره،

فهو نفسه يقبل الرديء.

*

الشقي من لا يذكر عاقبته.

*

أبو العلاء المعري*

تخبو النار ولو هجَم لهبُها على النجوم.

*

رُبَّ وَرْدٍ في وَجَناتٍ، صاحبهُ يسمع ويُبْصر
يسقيه، صباحَ مساءَ، طَلَّ الدَمع،
وهو لا يشعرُ به،
وَوردة أخرى في شجرة ينتَثر ورقها ذبولاً وعطشاً،
والماءُ في أصل قضيبها جارٍ.

*

إن كان النعيبُ من شواهد الرَحيل،
فالغرابُ يعلم الغيب .

*

مَنْ أجالس وجُلسَاء الصدق قليل؟ وَبمن أثق، ونفسي الغادرة الخؤون!

*

الأعمارُ تُولَدُ طِوالاً ثم تقصر،
والآمال تُولَدُ قصاراً ثم تطول،
ولن يفقد الحازمُ هُموماً.

---

* أحمد بن عبد الله التنوخي المكنى بأبي العلاء. ولد في معرة النعمان من أعمال حلب، وإليها نسب، وكانت ولادته سنة 363 هـ ووفاته سنة 449 هـ.

ولو كانت الدنيا امرأة، لكانت ذات راية،
ولو كان العقل رجلاً، لكان سِكّيتاً،
ولو كان عمر اللبيب ماء، لكان أجاجاً ملحاً.

*

ما أقلّ العالم وأقلّني فيه.

*

صُرُوف الأيام تُريكَ الجَدْيَ على الثدي!

*

الرجل مع الرجل عصبةٌ، والحجر فوق الحجر جدار.

*

لو أن للرزق لساناً لهتف بمن رقد، أو يداً لجذب المضطجع باليد، أو قدماً لوطئ على الجسد.

*

ليت أنفاسي أعطين تمثلاً، فتمثل كل نفس رجلاً قائماً يدعو الله تبتلاً، يمنع جفنه لذيذ الإغفاء.

*

لو كانت الذنوب سوداً، صارت بشرتي كحلك الغراب، وأصبح دمي كالحبر المستنعت للكتاب، وأعْدَيْتُ مما جاورني من وقتٍ ومكان، حتى يكون مقعدي في الشمس الصافية مظلماً، وأنا في رأد الضّحاء.

*

كيف يتكبر من في الغد يُقْبر
ارتحل بذخر ليس فيه من سخرٍ،
ومال من حسن الأعمال، وأجْرٍ يطفئ حرارة الهجر.

*

سكنى التربة أغرب الغربة.

*

ضنَّ المرءُ بما ملك، فهلك وأهلك.

*

يا نفس تحذرين ولا تعتذرين،
أنتِ شرٌّ من جسدك، وجسدك شرٌّ منك.
أشتاق، وإلى من اشتاق؟ لا الأرواح متكلمة ولا الأجساد ملتئمة.

*

اتّقِ الله، فإنه جعلكَ عبدَ واحدٍ فلا تكنْ عبدَ جميع.
تنصب وتجهد، ولا يرضى منهم أحد.

*

أيها الجامح، لا يغنيك الجماح.

*

ويمر ملك من الملائكة، فيقول:*
يا عبد الله: أخبرني عن الحور العين:
أليس في الكتاب الكريم؟ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾**
فيقول المَلَكُ:
هنَّ على ضربين:
ضرب خلقه الله في الجنة، لم يعرف غيرها. وضرب نقله الله من الدار العاجلة، لما عمل الأعمال الصالحة،

---

* صاحب القول «ابن القارح» الذي يطوّفه أبو العلاء في الجنة ويريه عجائبها.

** سورة الواقعة:35، 37.

فيقول وقد هكِرَ * مما سمع:

فأين اللواتي لم يكنَّ في الدار الفانية؟ وكيف يتميزن من غيرهن؟

فيقول المَلَك:

اقْفُ أثري لترى البديء من قدرة الله.

فيتبعه، فيجيء إلى حدائق، لا يعرف كنهها إلا الله، فيقول المَلَك:

خذ ثمرة من هذا الثمر، فاكسرها، فإن هذا الشجر يعرف بشجر الحور. فيأخذ سفرجلة، أو رمانة، أو تفاحة، أو ما شاء الله من الثمار، فيكسرها، فتخرج منها جارية حوراء، عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان، فتقول: من أنتَ يا عبد الله؟

فيقول:

أنا فلان بن فلان.

فتقول:

إني أُمَنّى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة، فعند ذلك يسجد إعظاماً لله القدير ويقول:

هذا كما جاء في الحديث: «أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، بله ما أطلعتهم عليه».

ويخطر في نفسه، وهو ساجد، أن تلك الجارية، على حسنها ضاوية، فيرفع رأسه من السجود، وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان عالج، وأنقاء الدهناء، وأرملة يبرين، وبني سعد ** فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير ويقول:

---

* هَكِرَ: عَجِبَ.

** أسماء أماكن في شبه جزيرة العرب مشهورة بكثرة رمالها.

يا رازق المشرقة سناها، ومبلغ السائلة مناها، والذي فعل ما اعجز وهال ودعا إلى الحِلْم الجهال، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية على ميلٍ في ميل، فقد جاز بها قدرك حد التأميل، فيقال له: أنت مخير في تكوين هذه الجارية كما تشاء، فيقتصر من ذلك على الإرادة.

*

(...) فيطّلع، فيرى* إبليس لعنه الله، وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل، ومقامع الحديد تأخذه من أيد الزبانية،

فيقول الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه! لقد أهلكت من بني آدم طوائف، لا يعلم عددها إلا الله، فيقول: من الرجل؟

فيقول:

أنا فلان بن فلان، من أهل حلب** كانت صناعتي الأدب، أتقرب به إلى الملوك، فيقول:

بئس الصناعة! إنها لمزلة بالقدم وكم أهلكت مثلك!

فهنيئاً لك إذ نجوت، فأولى لك ثم أولى! وإن لي إليك لحاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون، فيقول:

إني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت في أهل النار: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾***

فيقول:

إني لا أسألك في شيء من ذلك، ولكن أسألك عن خبرٍ تخبرنيه:

* الضمير يعود إلى ابن القارح الذي قام المعري بتطويفه في الدار الآخرة.

** ابن القارح من حلب.

*** سورة الأعراف، آية: 5.

إن الخمر حرمت عليكم في الدنيا، وأحلت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات؟* فيقول:

عليك البهلة! أما شغلك ما أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.**

فيقول:

وإن في الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر، فما فعل بشار بن برد؟ فإن له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم: كان يفضلني دون الشعراء، وهو القائل:

إبليس أفضلُ من أبيكم آدم فتبيّنوا يا معشرَ الأشرار

النار عنصره وآدم طينة والطين، لا يسمو سموَّ النار

لقد قال الحق، ومازال قائله من الممقوتين.

فلا يسكت عن كلامه، إلا ورجل في أصناف العذاب، يغمّض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم، فيفتحها الزبانية بكلاليب من نار، وإذا هو بشار بن برد، قد أعطي عينين لينظر ما نزل به من النكال.

*

قال العبد الضعيف العاجز، أحمد بن عبد الله، بن سليمان:

أول ما أبدأ به، أني أعد سيدنا الرئيس الأجل*** ممن ورث حكمة الأنبياء، وأعد نفسي من الأغبياء، وهو بكتابه إليَّ متواضع ومن أنا حتى يكتب مثله إلى مثلي.

---

* القريات: جمع قرية، مواطن أهل لوط.

** سورة البقرة، آية: 25.

*** الرسالة إلى أبي نصر بن أبي عمران، داعي الدعاة، بمصر، في عهد الفاطميين وكانت قد جرت مكاتبة بينهما حول تحريم أبي العلاء أكل اللحوم. وقد كان داعي الدعاة صاحب المبادهة، وقد بدا المعري أمامه قاصر الحجة.

مثله في ذلك، مثل الثريا، كتب إلى الثرى،

وقد علم الله أن سمعي ثقيل، وبصري على الإبصار نقيل. قضي علي وأنا ابن أربع. لا أفرق بين النازل والطالع.

ثم توالت محني، فأشبه شخصي العود المنحني. ومنيت في آخر عمري بالإقعاد.

وأما ما ذكره سيدنا الرئيس الأجل، المؤيد في الدين فالعبد الضعيف العاجز، يذكر له مما عَايَاهُ طرفاً، فأقول:

إن الله جلت عظمته، حكم علي بالإزهاد، فطفقت من العَدم في جهاد.

وأما قول العبد الضعيف (يريد نفسه):

غدوت مريض العقل والدين فالقني.

فإنما خاطب به من هو في غمرة الجهل، لا من هو في الرياسة علم وأصل. وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم، وقد سمع العبد الضعيف من اختلاف القدماء.

وأول ما يبدأ به، لو أن قائلاً من البشر قال:

إذا بنينا القضية البتّية المركبة من المسند والمسند إليه، ولها واسطتان، إحداهما نافية، والأخرى استثنائية، فقلنا:

الله لا يفعل إلا الخير. فهذه القضية صادقة أم كاذبة؟

فإن قيل:

صادقة، فقد رأينا الشرور غالبة، فعلمنا أن ذلك أمر خفي، ولم يزل من ينسب إلى الدين، يرغب في هجران اللحوم، لأنها لم يوصل إليها إلا بإيلام حيوان، يفر منه في كل أوان، وأن الضائنة تكون في محل القوم، وهي حامل، فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً، أو نحوه، اعتبطوه فأكلوه، ورغبوا في

اللبن، وباتت أمه ثاغية، ولو تقدر سعت له باغية. وقد ورد في كلام العرب، ما يلحق الناقة من الوجد، إذا فقدت الفصيل.

وللسائل أن يقول:

إن كان الخير لا يريد ربنا سواه، فالشر لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يكون قد علم به أولاً، فإن كان عالماً به، فلا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يكون مريداً له، أو لا. فإن كان مريداً له، فكأنه الفاعل، كما أن القائل يقول:

قطع الأمير يد السارق، وإن لم يباشر ذلك بنفسه.

وإن كان غير مريد، فقد جاز عليه، ما لا يجوز على أمير مثله في الأرض، أنه إذا فُعِل في ولايته شيء لا يرضاه أنكره، وأمر بزواله، وهذه عقدة اجتهد المتكلمون في حلها، فأعوزهم.*

وقد ذكرت الأنبياء، أن الباري، جلت عظمته، رؤوف رحيم. ولو رأف ببني آدم، وجب أن يرأف بغيرهم من أصناف الحيوان، الذي يجد الألم بأدنى شيء، وقد علم أن الوحوش الراتعة يبكر إليها الفارس، فيطعن العير أو الأتان، وهنَّ ما أسدين إليه ذنباً ولأي حال استوجب من يفعل بها هذا؟

وقد رأيت الجيشين المنتسب كل واحد منهما إلى الشرع المنفرد، يلتقيان وكلاهما في مدد، ويقتل بينهما آلاف عدداً، فهذا محسوب من أي الوجهين؟ فليس عند النظر بهيّن.

*

إن ابن آدم لا يدري ما يقضى عليه،

فيجوز أن تتغير نيته في الإيمان فيدخل النار،

---

* أعْوَزهم: أعجزهم.

ويمكن أن يؤمن الكافر، قبل الموت بلحظة فيستوجب بذلك العفو.

وقد ورد مثل هذه الأشياء في الحديث المأثور: «إن ابن آدم ليعمل أعمال أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا قيد الظفر،

ثم يرجع عن ذلك فيدخل النار. وإنه ليعمل أعمال أهل النار، حتى لا يبقى بينه وبينها إلا قيد الظفر، ثم يرزق التوبة فيدخل الجنة».

*

ما آمل وقد فقدت أبوي،

وأخذت الشبيبة من يدي.

ومشيت إلى الأجل على قدمي،

حتى كدت أطؤه بأخمصي.

ووقع كلّ الأيام عليَّ، ونظرت عين المنية إليَّ.

آن اشتغال الوضح بمفرقي،

وأنا لا أفارق الغي، وأصبح أخا السلامة الحي.

وأعلم أن الملحد آخر منزلي،

وأن جسدي مزايل للحوباء.

*

العمل وإن قل يستكثر إذا اتصل ودام،

ولو نطقت كل يوم لفظة سوء لاسودت صحيفتك في رأس العام.

ولو كسبت كل يوم حسنة عددت بعد زمن من الأبرار. إن اليوم ائتلف من الساع، والشهر اجتمع من الأيام، والسنة من الشهور، والشهر يستكمل بالسنين.

الرجل مع الرجل عصبة، والشعرة مع الشعرة ذؤابة، والحجر فوق الحجر جدار، والنخلة إلى النخلة حائش.

كم حيٍّ بلغ الدرك، وارتحل إلى الرمس فأرَّك*. من بالشح أمرك، وعلى الدنيا أمّرك؟

*

أنت أيها الإنسان أغرّ من الظبي المقمر،

لست بالعامر ولا المعتمر،

ولا في الصالحات بالمؤتمر. أحسبتَ الخير ليس بمثمر؟ بلى! إن للخير ثمرة لذت في المطعم، وتضوعت لمن تنسم، وحسنت في المنظر والمتوسم، وجاوزت الحد في العظم.

*

لو أن للرزق لساناً هتف بمن رقد،

أو يداً لجذب المضطجع باليد،

أو قدماً لوطئ على الجسد،

لا يزال الرزق مرنقاً على الهامة ترنيق الطير الظِّماء على الماء المُطمع.

*

يا نفس تحذرين ولا تعتذرين،

وإذا أعرض الطمع فما تذرين.

أنت شر من جسدك، وجسدك شر منك،

لو قدرت لانتفيت عنك أبلغ انتفاء.

*

ربِّ أعنِّي واعن بي، حتى تغنيني عن أمي وأبي.

زحل زنجي بين يديك،

---

* أرّكَ: أقام في المكان.

والمشتري عبد لك مطيع،
والمريخ يتصرف بين أوامرك ونواهيك،
والشمس والزهرة أَمتان تتصفانك،
وعطارد والقمر مستخدمان لا يصلان إلى الاعتفاء.

*

أيتها الحشاشة فرطت فأوبقت، حتى خلّفت وسُبقْت ثم قيِّدت بعد ذلك وربقت، فانظري هل لك من متاب.

*

أطعِم سائلك أطيب طعامك، واكس العاري أجد ثوبيك، وامسح دمع الباكية بأرفق كفيك.

*

لم أر كالدنيا عجوزاً قد اشتهر خبرها بقتل الأزواج، وهي على ما اشتهر، كثيرة الخطاب.

*

أبصر آدم القمر، وطلعت عليه الشمس، ففني وبنوه، وبقيا على ممر الأحقاب.

*

كذبت النحاة أنها تعلم لِمَ رُفع الفاعل ونصب المفعول، إنما القوم مُرجِّمون، والعلم لعالم الغيوب، خالق الأدب والأُدّاب.

*

الناس إذا طلبوا سباع، وإذا جاء الموت فرباع*، وكلهم إلا من شاء ربك أجهل من الضباع.

*

* رِباع جمع رُبَع، ولد الناقة في أوّل الرّبيع.

ألتفت إلى ذنوبي فأجدها متتابعة كحركات الفاصلة الكبرى، وأستقبل جرائم تترى طوالاً كقصائد الكميت الأسدي، مختلفة النظم كقصيدَتي عبيدٍ وعدي، وأجدني ركيكاً في الدين، ركاكة أشعار المولدين.

*

أسبّ نفسي وتسبّني،
وأريد الخير لا يجبُّني.
أحب الدنيا كأنها تحبني،
والحرص يوضعني ويخبُّني،
والغريزة عن الرشد تذبني،
والخالق يغذوني ويربُّني.
كان في الشبيبة يشبني
وتفضُّلُهُ ما بقيت لا يغبني،
أرتفع والقدر يكبني، يألبني دائماً ويلبني،
كم أستنسر وأنا من البغاث.

*

يا جوّاب الأرض،
هل مررتم بقُطر لا يصوب فيه القَطر، نعم!
فهل سمعتم بمكان، ليس فيه للموت استمكان؟
هيهات هيهات.

*

كنْ حراً وانزل حيث شئت ولو بحرّة نار.

*

مَثل طاعة الله، مثل الثروة، من وجدها فعل فيها ما أراد.

*

أبو محمد بن حزم الأندلسي*

(...) وإني لأطيل العجب من كل من يدّعي أنه يحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدقه،

ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة.

وما لصق بأحشائي حب قط، إلا مع الزمن الطويل،

وبعد ملازمة الشخص لي دهراً، وأخذي معه في كل جدٍّ وهزل.

*

تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلا واحداً، وهو طرد الهمّ. فلما تدبّرته، علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم، لا يتحركون حركة أصلاً إلا في ما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا في ما يعانون به إزاحته عن أنفسهم. فمن مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب، وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره.

*

لا تبذل نفسك إلا في ما هو أعلى منها.

*

العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودة، وتصفّيه من كل آفة، وتهلك ذا العقل الضعيف.

*

---

* علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب صاحب «طوق الحمامة» ولد سنة 382 في قرطبة، وتوفي سنة 456.

لا آفة على العلوم وأهلها، أضرّ من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها. فإنهم يجهلون ويظنّون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدّرون أنهم يصلحون.

*

كنا نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو في الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بَلهاً.

*

الحلاوة دقة المحاسن، ولطف الحركات، وخفة الإشارات، وقبول النفس لأعراض الصورة وإن لم تكن هنالك صفات ظاهرة.

*

القِوامُ جمال كل صفة على حِدتِها. وربّ جميل الصفات على انفراد كل صفة منها، بارد الطلعة، غير مليح ولا حسن، ولا رائع ولا حلو.

*

الروعة بهاء الأعضاء الظاهرة، مع جمال فيها، وهي أيضا الفراهة والعتق.

*

الحسنُ هو شيء ليس له في اللغة اسم يُعبَّرُ به، غيره. ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه، وهو بُرْدٌ مكسوّ على الوجه، وإشراق يستميل القلوب نحوه، فتجتمع الآراء على استحسانه، وإن لم يكن هنالك صفات جميلة. فكل من رآه، راقه واستحسنه وقبله، حتى إذا تأملت الصفات أفراداً لم تر طائلاً، وكأنه شيء في نفس المرئي تجده نفس الرائي. وهذه أجل مراتب الصباحة. ثم تختلف الأهواء بعدها، فمن مفضل للروعة، ومن مفضل للحلاوة. وما وجدنا أحداً قط يفضل القوام المنفرد.

*

إذا تكاثرت الهموم، سقطت كلها.

*

أشبه ما رأيتُ بالدنيا، خيال الظلّ، وهي تماثيل مركّبة على مطحنة خشب، تُدار بسرعة، فتغيب طائفة وتبدو أخرى.

*

طال تعجبي في الموت،

وذلك أني صحبت أقواماً صحبة الروح للجسد من صدق المودة. فلما ماتوا رأيت بعضهم في النوم، ولم أرَ بعضهم. وقد كنت عاهدت بعضهم في الحياة على التَزاوُرِ في المنام، بعد الموت إن أمكن ذلك. فلم أرهُ في النوم بعد أن تقدمني إلى دار الآخرة. فلا أدري، أنسِي أم شُغِل؟

*

أبلغَ في ذَمّكَ من مدَحك بما ليس فيك، لأنه نبّه على نقصك. وأبلغ في مدحكَ مَن ذمّك بما ليس فيك لأنه نبّه على فضلك. ولقد انتصر لك من نفسه بذلك وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة.

*

لو علم الناقص نقصه، لكان كاملاً.

*

إذا نام المرء خرج عن الدنيا، ونسيَ كلّ سرور وكلّ حزن. فلو رتّبَ نفسه في يقظته على ذلك أيضاً، لسعد السعادة التامة.

*

الحبُّ (...) دَقّت معانيه، لجلالتها عن أن تُوصفَ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. (...) اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة، في أصل عنصرها الرَفيع. (...)

وأما العلة التي توقع الحبّ أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسَنة، فالظاهر أنّ النفس تولعُ بكل شيء حسن، وتميل إلى التصاوير المتقنة. فهي، إذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها، اتصلت وصحّت المحبة الحقيقيّة. وإن لم تميّز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصّورة، وذلك هو الشهوة. وإنّ للصُّوَرِ لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية.

*

(...) جُبلتُ على طبيعتين لا يهناني معهما عيشٌ أبداً. وإني لأبْرمُ بحياتي، باجتماعهما، وأود التغيّبَ من نفسي أحياناً، لأفقدَ ما أنا بسببه من النكد من أجلهما، وهما: وفاءٌ لا يشوبه تلوّنٌ قد استوت فيه الحضرة والمغيب، والباطن والظاهر (...) وعزّةُ نفس لا تقرّ على الضّيم، مهتمّة لأقلِّ ما يَردُ عليها من تغيّر المعارف، مؤثرةٌ للموت عليه. فكلّ واحدةٍ من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها، وإني لأجْفى فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة، والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد. فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي، تصبّرت، وفي القلب ما فيه.

*

(...) إني ما رويت قط من ماء الوصل، ولا زادني إلا ظمأ. ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وجدتني إلا مستزيداً.

ولقد طال بي ذلك، فما أحسست بسآمة، ولا رهقتني فترة.

*

(...) ما في الدنيا حالة تعدل محبّين إذ عدِما الرقباء، وأمنا الوشاة وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل، وفقدا العزال. وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة.

*

(...) وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه وقَصَ، فما استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك.

وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر، فما أحب طويلة بعد هذا.

وأعرف أيضاً من هوى جارية في فمها فَوَةٌ لطيف، فلقد كان يتقذر من كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة.

*

(...) دعني أخبرك أنني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر،

فما استحسنت من ذاك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس، أو على صورة الحُسن نفسه،

وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت لا تؤاتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة.

وهذا العارض بعينه عرض لأبي.

*

لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري،

لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن،

ولم أعرف غيرهن،

وهنَّ علمنني القرآن وروّينني كثيراً من الأشعار، ودربنني في الخط.

ولم يكن وكدي، وإعمال ذهني، مذ أول فهمي، وأنا في سن الطفولة إلا تعرّف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئاً، مما أراه منهن.

وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها، وسوء ظن في جهتهن فُطرت به، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل.

*

للحب علامات يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي.

فأولها إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقبة عن سرائرها، والمعبرة لضمائرها، والمعربة عن بواطنها.

فترى الناظر لا يطرف. يتنقل بتنقل المحبوب، وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال، كالحرباء مع الشمس.

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته، والتباطي في الشيء عن القيام عنه.

ومنها اضطراب يبدو على المحب، عند رؤية من يشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأة.

*

إنما طلب المال طلابه ليطردوا به عن أنفسهم همَّ الفقر. وإنما طلب الصّوت من طلبه ليطرد به عن نفسه همَّ الاستعلاء عليها.

وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه همَّ الجهل، وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه همَّ التوحد ومغيب أحوال العالم عنه.

وإنما أكل من أكل، وشرب من شرب، ونكح من نكح، ولبس من لبس، ولعب من لعب، واكتنز من اكتنز، وركب من ركب، ومشى من مشى، وتودّع من تودع، ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم.

*

لا مروءة لمن لا دين له.

*

العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة.

*

رُبَّ مُمتنعٍ عن فعل خير خوفَ أن يظن به الرياء.

*

مَن سُرّ بشجاعته التي يضعها في غير موضعها لله، فليعلم أن النمر أجرأ منه، وأن الأسد والفيل والذئب أشجع منه.

ومن سُرَّ بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه.

من سُرَّ بسرعة عدوه، فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع منه.

ومن سر بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن منه صوتاً وأن أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته.

فأي فخر وأي سرور في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه؟

*

من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر.

*

انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك.

*

لا تسرَّ غيرك بما تسوء به نفسك.

*

وقف العلم عند الجهل بصفات الباري عز وجل.

*

من طلب المال والجاه واللذات لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة والثعالب المراوغة.

*

من جالس الناس لم يعدم هماً يؤلم نفسه.

*

مقرِّب أعدائه قاتل نفسه.

*

كثرة وقوع العين على الشخص يسهّل أمره ويهوِّنه.

*

وجدت المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم. هذا شيء طال اختباري إياه، ولم أجد قط على طول التجربة سواه، فأعيتني معرفة العلة في ذلك حتى قدرت أنها طبيعة في البشر.

*

نوّار الفتنة لا يعقد.

*

أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك.
وأبلغ من مدحك من ذمك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك.

*

قد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه.

*

من امتحن بقرب من يكره، كمن امتحن ببعد من يحب.

*

إذا ارتفعت الغيرة، فأيقنْ بارتفاع المحبة.

*

الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره وأن يتعدى غيره إلى حرمته. ومن كانتْ النجدة له طبعاً حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام.

*

الروعة بهاء الأعضاء الظاهرة.

*

أصول الفضائل أربعة، عنها تتركب كل فضيلة وهي: العدل والفهم والنجدة والجود. وأصول الرذائل أربعة، عنها تتركب كل رذيلة وهي أضداد الذي ذكرنا: الجور والجهل والجبن والشح.

*

النزاهة في النفس فضيلة، تركبت من النجدة والجود، وكذلك الصبر.

*

الحلم نوع مفرد من أنواع النجدة.

*

القناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل.

*

الحرص متولد عن الطمع، والطمع متولد عن الحسد، والحسد متولد عن الرغبة، والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل.

*

لقد طالَ همٌّ من غاظه الحق.

*

العاقل الرفيع النفس، العالي الهمة، إنما يغالب أكفاءه في القوة ونظراءه في المنعة.

وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة، فسقوط في الطبع ورذالة في النفس والخلق وعجز ومهانة.

ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ أو بعقر برغوث، وحسبك بهذا ضعة وخساسة.

*

العاقل هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزه.

*

الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع، فهو يظنه خبيثاً مثله.

*

قد يخونك من لا يستهين بك، ومن استهان بك فقد خانك، فكل مستهين خائن، وليس كل خائن مستهيناً.

*

الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع.

*

من العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة، والرذائل مستقبحة ومستخفة.

*

كأن نظر العين إلى العين يصلح القلوب، فاللقاء يذهب السخائم.

*

حُمِدت حالة التغافل، وذُمت الغفلة.

*

الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد*

صبحتنا اليومَ خيلُ البرد مغيرةً**، فانقبضتُ إلى أخريات الإيوان، وقد كدسني بصارم وسنان. فجعلت مِجَنّي حطباً دل على نفسه. وتشظّى من يبسه فسلّطت عليه صاحب الشّرر ورميتهُ منها ببنات الحديد والحجر. فواقعه قليلاً. وعاركه طويلاً فكان لها عجيج، وله من حرّها ضجيج. ثم خرّ لها صريعاً، واستولت عليه صعباً منيعاً. فبددت شمله وألفت شملها. واستحالت حية لا يُستلذُّ قتلها. ترمي بألوان وتتهدَّد بلسان، فلذعت البرد لذعة. ونكزته على فؤاده نكزة. خرّ لها على جبينه. ومات بها من حينه. وغَشِيَنا من فائض حمّتها حرٌّ كان لنا حياة ولذلك وفاة.

*

أسود زنجي، وأهلي وحشي***.
ليس بوان ولا زمّيل،
وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل، (...) أو نقطة مداد، أو سويداء قلب فؤاد.
شربه عب، ومشيه وثب.
يكمن نهاره، ويسير ليله.

---

* أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد (382 – 426 هـ = 992 – 1035 م)، من بني الوضاح، من أشجع، من قيس عيلان، أبو عامر الأشجعي: وزير، من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً. مولده ووفاته بقرطبة.

** من رسالة يصفُ فيها البرد والنار والحطب.

*** يصف برغوثاً.

يدارك بطعن مؤلم،
ويستحل دم كل كافر ومسلم.
مساور للأساورة، ومجرد له على الجبابرة.
يتكفن بأرفع الثياب، ويهتك كل حجاب، ولا يحفل ببواب.
يرد مناهل العيش العذبة، ويصل إلى الأحراج الرطبة.
لا يمنع منه أمير، ولا ينفع فيه غيرة غيور.
وهو أحقر حقير، شره مبثوث، وعهده منكوث، وكذلك كل برغوث.
كفى بهذا نقصاناً للإنسان. ودلالة على قدرة الرحمن.

*

مالكة لا حس لها سواها*، تحقرها عين من رآها.
تمشي إلى الملك بندبها، وتضرب بحبوحة داره بطلبها.
تؤذيه بإقبالها، وتعرفه بإراقة دمه مالها.
فتعجز كفه، وترغم أنفه وتضرج خده، وتفري لحمه وجلده.
زجرتها تسليمها ورمحها خرطومها.
تذلل صعبك إن كنت ذا قوة وعزم.
وتسفك دمك وإن كنت ذا حلقة وعسكر ضخم.
تنقض العزائم وهي منقوضة.
وتعجز القوي وهي بعوضة.
ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته.

*

إذا رأى الفرصة انتهزها**، وإن طلبته الكماة أعجزها. وهو مع ذلك بقراط في إدامه، وجالينوس في اعتدال طعامه. غذاؤه حمام ودراج، وعشاؤه بذرح ودجاج.

*

---

* يصف بعوضة.

** يصف ثعلباً.

كأنه عصير صباح*، أو ذوب قمر لياح. له من إنائه، انصباب الكوكب الدريّ من سمائه. العين كانونه، والقمر عفرينه. كأنه خيط من غزل قلق، أو مخصرة ضُربت من ورق، يترفّع عنك فتردى، ويصْدعُ به قلبك فتحيا.

*

وما أرقني إلا ليلة أضحيانة دخلتُ فيها الجامع**، ووقفتُ موقف الساجد والراكع، حتى إذا قضيتُ من حق الله أمراً، وانبعث الشفع وتراً. جلتُ في أكنافه، وانعطفتُ في أعطافه، فإذا أرضه تباهي السماء، وغبراؤه تضاهي الخضراء. زجاجة نورية، كأنها الكواكب الدرية. ورعد قراء لله تعالى وخيرته، كالرعد يسبح بحمده والملائكة من خيفته. فصحت واويلاه، واحرَّ قلباه. أين منك المفر، وأين دونك المقر. (...) ثم خرجت في تتمة من الأصحاب، وفيهم فقيه كان ذا لقم وألم أشعر به، فلما طالعتنا الحلوى صاح: هذا وأبيكم الروض. فناديته اسكت فضحتنا. فقال: لا وأبيك، قلت: مالك وما تريد، قال: ذلك الشهيد العتيد، واضطرب به الألم واستخفه الشره فدار في ثيابه، وأسال من لعابه. وازورَّ جانبه، وخفق شاربه، ثم نهض في كرّ، وصدر بحرّ، ونظر إلى الفالوذج. فصاح هذا اللص كأنه تألى بحاجة الزنابير. حدثت على شوابير. وخالطها لباب الحبة، فجاءت أطيب من ريق الأحبة، ثم نظر إلى الخبيص فصاح بأبي الغالي الرخيص، انظر فيه ذا التماع، أكرم به من شعاع! هذا جليد سماء الرحمة، تمخّضت به فأبرزتْ منه زبد النعمة، تجرحه اللحظة، وتُدميه اللفظة بماء أبيض.

قالوا: بماء البيض البض.

---

* يصف ماءً.

** من رسالة يصف فيها الحلوى.

فقال: غض من غض. انظروه له إشراق. هذا وأبيكم بقية العشاق. ما أطيب خلوة الحبيب لولا حضرة الرقيب.

ثم نظر إلى الزلابية فصاح ويل لأمه الزانية، أبأحشاء نسجت، أم صفاق قلبي ألفت؟ بأبي أجد مكانك من نفسي مكيناً، وجبل هواك على كبدي متيناً، من أين خلصتْ كفُّ طابخك إلى باطني، فأقطعك مني دواجني؟ والعزيز الغفار لأطلبن بالثأر.

وتلمّظ له لسان الميزان، فجعل يصيح: الثعبان الثعبان!

فلما عاينته قد ألبس، وهو ينظر نظر المفلس، حنّتْ له ضلوعي. وعلمت أن الله فيه غير مضيعي. وقد تحل الصدقة على ذي الوفر، وفي كل كبد رطبة أجر. فأمرت الغلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التي أنطقته، وتحتوي على ضروبها التي أخرعته. فجاء بها فوضعها بين يديه. فلما عاينها انحنى عليها بليانه، وألقى عليها بجرانه، وجعل يركل برجليه. ويجاحش بفخذيه ممانعاً، ومدافعاً عنها. فصحت به لا عليك حكمها، فجعل يقطع ويبلع، ويوجر فاه ويدفع. وعيناه تبضان كأنهما جمرتان، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان. وأنا أقول: على رسلك يا فلان، البطنة تذهب الفطنة وهو يقول (أكلها دائم وظلها) حتى التهم جماهرها، وألحق أولها بآخرها. وهبت منه ريح عقيم (...) فرقتنا شذر مذر، وسربتنا في كل شعب شغر بغر، فانتحينا منه الطرفان، وصدق الخبر فيه العيان. نفخ ذلك فبدد النعام. ونفح هذا فبدد الأنام. فلم نجتمع بعد هذا.

*

أخت نعمة،* وربيبة نعمة.

---

* يصف جارية.

كأن شعرها على غرتها الغراء غراب يسفد حمامة بيضاء.
وكأن خدها على جيدها المشرق، تفاحة قدم بها إبريق من راووق.
تكلمك بألحاظها، وتأسوك بألفاظها.
تقابلك من خدها بوردة، ومن عينها بنرجسة.
كأنما ثغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر.
وتقبل إليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان.
وتنفتل عليك بكفل مائج، كأنه كثيب عالج.
تنطوي بقبطية، وتقوم على أنبوب بردية.
(...) فإن كنت شافعياً سددتك.
وإن كنت مالكياً قلدتك.
المنظر غلام، والمخبر فتاة،
إن علوتها تدفعت إليك، أو علتك تداركت عليك.
وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت خمرة أو رضاب،
أو أجاعك عراكها، أطعمتك من لسان، يصل إليك وصول الإيمان.
فنثره في غاية الملاحة، ونظمه في غاية الفصاحة.

*

الوهراني*

إلى كل ذي جناح**، وإلى كل ذي اجتراء من الطير واجتراح، وإلى كل ذي صيال منه ، وإلى كل ذي صياح (...).

نرى أن يشكر للورق حسن سجعها وعفاف طبعها، ومساعدتُها للخليّ بغنائها في دَوْحها ، وللحزين بترجيع ندبها ونوحها (...)

وأن نصف الهدهد بحسن اعتذاره في خبثه ودهائهِ، وأن نثني على حسن خطبته وجميل خطابه (...).

... إلى ملائكة الملوك من الحمام (...)، وإلى لقالق تنطق وكأنما ألبست ملابس أهل الجنان، وإلى ديكة مباركة يؤذن آذانها بورود ملك من الملائكة، وإلى نسر عظيم، وإلى نعام كاد يطير.

*

(...) ذكرنا في بعض ذوات الأجنحة جنساً حقير السمات، أسود الوجه والقفا والصفات، لا يألف إلا قبور الأموات (...) ذا أُذُن ناتئة. ما هذه الصفة من صفات الطيور، يُولد والطير لا تعرف إلا أنها تحضن بيضها في الأعشاش والوكور، ولا يقع في الشباك ولا في الفخوخ (...) وإن كان شيطاناً فالظاهر أنه ممسوخ، لا يُسمع منه هديلٌ ولا هدير، ولا يصبر حيث يصير (...) لا يحسن به الانبساط، ولا يمكن معه الاحتياط، وهو المسمَّى بـ «الوطواط».

*

---

* توفي سنة 575 هـ.

** رسالة إلى الطير.

(...) أمرنا أن يفوَض أمرهُ للإمام شرف الدين غراب (...) إذ هو كأبيه منطيق مفوّه، فليترك في أمره النعيق والنعيب، وليعلن بلغتهِ إعلانا فصيحاً يستوي في سماعه البعيد والقريب. وليقرأ هذا المرسوم على رؤوس الأشهاد، عند الآبار المعطلة، والبراري الخراب (...)

*

خرجتُ ليلة الجمعة إلى القرافة من درب الصَفا. فلما كنت بين تلك الأكوام، لقيت هناك شيخاً طويلاً في زيّ الصوفية عليه أثر السَفر. فقلت له: من أين أقبلت أيها الشيخ؟ فقد اشمأزت نفسي منك. فقال: كنت عند يغبور ملك الصين. بلغني أنه قد مالت نفسه إلى دين الإسلام، فخرجت إليه من بلاد الزنج بعد الظهر فثنيته عن رأيه. ورحتُ أطلبُ مدينة قرطبة في هذه الليلة، أتمّم الفساد بين أولاد عبد المؤمن، وأرجع كما أنا إلى بلاد خراسان. فاقشعر جلدي من هذا الكلام، وقلت له: من أنت، عافاك الله؟ فقال: أو ما تعرفني يا وَهْرانيّ؟ فقلت: لا والله، ما أعرفك. فقال: عجيب، أنا شيخك ومعلمك إبليس. (...)

*

(...) ثم توجه إلى ناحية المغرب. فلما همَّ بالطيران، التفت إليَّ وقال: إن عثرت على الشيخ ابن الصابوني، سلم عليه عني، وعرِّفه شكري له، وعتبي عليه، وقل له: ترضى لنفسك أن تكون مثل العنكبوت. نصبت الشبكة على زاوية قبر الشافعي، وقعدت تنتظر من يقع فيها (...) البس مرقعتك الملونة، وعباءتك الصوف، واركب حمارك القصير، وشُقَّ أسواق مصر والقاهرة، واخدع الناس بلطف سلامك وكلامك (...) وعلمهم بلطيف احتيالك كيف يكون النصب والمحال.

وإلا، وحياة أبي القسم الأعور، الذي هو خليفتي على بني آدم، وقريني في نار جهنّم، محوتك ... (...)

ثم غاب عن عيني، فما رأيت إلا دخاناً صعد إلى السماء.

*

أبو العبَّاس أحمَد بن يُوسُف التيفَاشي*

إن الليل والنهار لا يخلو إما أن نعتبر وجودهما بالإضافة إلينا أو بالإضافة إلى العالم نفسه.

فإن كانا بالإضافة إلينا، كانا في منزلة المُضاف في المنطقِ كالأبِ والابن،

وإذا كانا كذلك لم يكن أحدهما متقدماً على الآخر.

فإنا لا نعرف الليلَ إلا وقبله نهار، ولا النهارَ إلا وقبله ليلٌ.

كما لا نعرف الأبَ من حيث هو أبٌ إلا ومعه الابن، والابن إلا ومعه أب.

وسأل الاسكندر بعضَ الحكماء عن ذلك فقال:

هما في دائرةٍ واحدةٍ، والدائرة لا يُعرف لها أول ولا آخر.

وإن اعتبر وجودهما بالإضافةِ إلى العالم نفسه، فلا يخلو أن يكونَ الاعتبارُ بالإضافة إلى العالم العلويّ،

وهو من الفلك إلى مقعَّر فلك القمر، أو إلى العالم السفلي، وهو من مقعّر فلكِ القمر إلى كرةِ الأرض.

فإن كان بالإضافة إلى العالم العلويّ (...) كان ذلك باطلاً.

إذ العالمُ العلويُّ لا ليل فيه ولا نهار، إذ لا ظلامَ يتعاقبُ عليه فيسمَّى نوره نهاراً،

---

* أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون، شرف الدين القيسي التيفاشي: عالم بالحجارة الكريمة، غزير العلم بالأدب، من أهل تيفاش، من قرى قفصة بإفريقية، ولد بها، وتعلم بمصر، وولي القضاء ببلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها.

بل الأجرام العلوية أجسامٌ شفّافة مضيئة نيّرة بطبعها على الدوام، نوراً لا ظلمةَ تشوبُهُ ولا عتمة تتعاقبُ عليه. كما في هذا العالم.

وإن كنّا نرى الشمسَ والقمر يُكْسَفَانِ عندنا فإنما ذلك لحائلٍ يحولُ بين أبصارنا في هذا العالم وبين إدراكِ نوريهما، وإلا فهما في عالمهما على وتيرةٍ واحدة من النور والضياء والبهجة، لا تبديلَ لها ولا تغيير، إلى أن يشاء العزيزُ القدير.

وإن اعتبر وجود الليل والنهار بإضافتهما إلى هذا العالم السفليّ، وهو من كرة الأرض إلى مقعّر فلك القمر، كان اعتباراً حقاً، وهو موضعُ البحث، إلا أنه يجبُ أن يوجدَ اسما الليل والنهار ههنا دالين على النور والظلمة، كما قال الخليل:

إن الليلَ عند العرب الظلام، والنهار الضوء، حتى لا يكونَ مدلولُ اسمي الليل والنهار على ما نفهمه نحن الآن من تعاقب الضياء والظلام عندنا. فإن كان ذلك كان الليل متقدماً على النهار بالطبع والذات، على رأي المشرّعين والفلاسفة.

*

– كيف كان سيرك؟*

– قتل أرضاً عالمها، وقتلت أرضٌ جاهلها.

بينا أنا أسيرُ ذات ليلةٍ إذ عصفت ريحٌ شديد ظلماؤها (...)،

لا أسمعُ لواطئ همساً،

ولا لنابح جَرَساً.

تدلّتْ علي غيومها،

وتوارتْ عني نجومها،

* سؤال طرحه هشام بن عبد الملك على خالد بن صفوان.

فلا أهتدي بنجم طالع، ولا بعَلَمٍ لامع.

أقطعُ مَحَجَّةً، وأهبط لجَّةً، في ديمومةِ قفر، بعيد القعر.

فالريحُ تخطفني، والشوكُ يخبطني، في ريح عاصف، وبرقٍ خاطف، فبينا أنا كذلك قد ضاقتْ عليَّ معارجي، وَسُدَّت مخارجي، إذ بدا نجمٌ لائح، وبياضٌ واضح.

فقرَّتِ العين، وانكشفَ الرَّيْنُ.

*

في الليل تجمّ الأذهان، وتنقطع الأشغال، ويصحّ النظر، وتؤلف الحكمة، وتدرّ الخواطر، ويتسع مجال القلب.

والليلُ أجرى في مذهب الفكر، وأخفى لعمل البر، وأعون على صدقة السر، وأصحُّ لتلاوة الذكر.

وأرباب الأمر يختارون الليل على النهار لرياضة النفوس، وسياسة التقدير في دفع الملمّ، وإمضاء المهمّ، وإنشاء الكتب ونظم الشعر وتصحيح المعاني، وإظهارِ الحجج وإصابة غرض الكلام، وتقريبه من الإفهام.

وفي الليل تتزاور الأحباب، وتتهنأ بالشراب، وتكمل الأطراب. وتغيب الرقاب، وتغلق في أوجه الأضداد الأبواب،

ولا يمكنُ فعل شيءٍ من ذلك كله في النهار، لاستجلاب الظنة بالاستتار.

*

لما كانت محاسنُ الأشجار، وما تشتمل عليه من الأزهار، وما يتخللها من الجداول والأنهار، إنما تظهر للأبصار بالنهار،

وكان في ضيائه أنسُ القلوب وتنفيس الكروب، وانتشارُ الحرارة الغريزية في الأبدان، ونزهة العيون في محاسن الألوان، كان الشربُ فيه تجاهَ الرياض المشرقة، وتحت ظلال البساتين المونقة، وعلى حافات البرك والأنهار المتدفقة، ألذَّ من الشرب في الليل الحائل بين الناظر وبين إدراك حُسْنِ المناظر،

إلا أنّ ذلك مقصور على فصل الربيع لتزيُّنِ الأرضِ بأنواع الزخارف، ولما تلبسه من خُضْر المطارف،

حتى تُبْدي لمبصرها من أزهارها ما هو أبهى من الجوهر، ويهدي أرَجُهَا ما هو أطيبُ من المسكِ الأذفر.

ففي هذا الفصل خاصةً ينبغي لمن ألانَتْ له الدنيا أعطافَهَا، ومهَّدَتْ له أكنافها، وأدرَّتْ عليه النعم أخلافَها، أن يغتنمَ صَبوحه قبل الشروق، ويواصلَ قائلته بالغبوق.

فأما العرب ومن هو في طبقتهم فإنما آثروا الصَّبوح فراراً من العواذل على الخلاعة، ليسبقوا من يعذلهم قبل أن يغدوا عليهم، لأن من شأن العواذل أن يُبَكروا على من يريدون عَذلَهُ على الشرب في أمسه. لأنّ ذلك وقتُ صحوةٍ وإفاقة، فاستعملوا الاصطباح ليسابقوا عذّالهم بمباركة صبوحهم.

*

ومن أعاجيب الخفاش أنه طائر، وهو مع أنه طائر من عرض الطير، شديد الطيران كثير التكفي في الهواء سريع التقلب فيه،

ولا يجوز أن يكون طعامه إلا من البعوض وقوتهُ إلا من الفراش وأشباهِ الفراش.

ثم لا يصيدُهُ إلا في وقت طيرانه في الهواء في وقت سلطانه، لأن البعوض إنما يتسلط بالليل فلا يجوز أن يبلغ ذلك إلا بسرعةِ اختطافٍ واختلاس، وشدة طيران ولين أعطاف، وحسن تأتٍّ ورفق بالصيد.

وهو ليس بذي ريشٍ وإنما هو لحمٌ وجلد، وطيرانه بلا ريشٍ عجب.

ومن أعاجيبه أنه لا يطير في نور ولا ظلمة.

وهو قليل شعاع العين، ولذلك لا يظهر في الظلمة لأنها تكونُ غامرةً لضياء بصره، غالبةً لمقدار شعاع ناظره.

ولا يظهر نهاراً لأن ضعف ناظره يلمعُ في شدة بياض النهار، ولأنّ الشيء المتلألئ ضارٌّ لعيونِ من يوصف بحدَّةِ البصر،

ولأن شعاعَ الشمس لمخالفة مخرج أصوله ومذاهبه يكون رادعاً لشعاع ناظره ومفرقاً له،

فهو لا يبصرُ ليلاً ولا نهاراً.

فلما علم ذلك واحتاج إلى الكسب والطعم، التمس الوقت الذي لا يكونُ فيه من الظلام ما يكون قاهراً غالباً ولا من الضياء ما يكون مُعشياً مانعاً،

والتمس ذلك في وقت غروب الشمس وبقية الشفق، لأنه وقت هيج البعوض، وهو وقت ارتفاعها في الهواء وانتشارها وطلب أرزاقها.

فالبعوض يخرج للطعم وطعمه دماء الحيوان.

والخفافيش تخرج للطعم، فيقع طالب رزق على طالب رزق.

وزعموا أن السُّكَّ الآذانِ والممسوحةَ من جميع الحيوان أنها تبيض بيضاً، وكل أشرف الآذان يلد ولا يبيض، ولا يُدْرى علة ذلك.

ولآذان الخفافيش حجمٌ ظاهر، وهي وإن كانت من الطير فإن هذا لها، وهي تحبل وتلد وتحيض وترضع.

وزعم صاحب المنطق أن ذوات الأربع كلها تحيض على اختلافٍ في القلة والكثرة والزمان والخضرة والصفرة والغلظ والرقة، وليس في سائر الطير ما يحيض ولا يبيض إلا الخفافيش.

وبلغ من ضنِّ أنثى الخفافيش بولدها وخوفها عليه أنها تحمله تحت جناحها،

وربما قبضت عليه بفيها قبضاً رفيقاً،

وربما أرضعته وهي تطير،

وتقوى من ذلك ويقوى ولدها على ما لا يقوى عليه الحمام وسباع الطير.

وربَّما أتأمتِ الخفّاش فتحملُ معها الولدين جميعاً، فإن عظما عاقبت بينهما.

ومن أعاجيب الخفاش أنه من الطير وليس له منقار مخروط، وله فمٌ في ما بين مناسرِ السباع وأفواهِ البوم.

وفيه أسنانٌ حِدادٌ صلاب مرصوفة من أطراف الحنك إلى أصول الفك إلا ما كان في نفس الخطم.

وقد عرفت ذرب أسنانها فإذا عضت على الفرخ جعلته أزماً لا عضّاً.

ومن أعاجيبها تَرْكهَا البراري والقفارَ وقصدها منازل الناس وأرفعَ مكانٍ وأحصنه من البيوت فتوطنه،

وأنها على ضؤولةِ جسمها طويلة العمر حتى تجوزَ حدَّ العُقاب والورشان إلى النسر.

وتجوز حدَّ الفيلة والأسْدِ وحميرِ الوحش إلى أعمار الحيّاتِ.

وأن أبصارها تصلحُ على طول العمر، فيقال إن التي يَطِرْنَ في القمر من المسنّات المعمِّراتِ،

وأن أولادهنّ إذا بلغنَ لم تقوَ أبصارهن على ضياء النور،

وأنها تصبرُ على فَقْدِ الطعام،

وأنها تضخمُ وتجسمُ وتقبل اللحمَ على الكبر والسن.

*

العالم عند الفلاسفة عبارة عن كلِّ مخلوق لله عز وجلَّ في السموات والأرض، وهما عالمان:

العالم العلوي، وهو من دورة الفلك الأعلى المحيطِ المسمى بالفلك الأطلس إلى مقعَّر فلك القمر،

والعالم السفلي وهو من فلك النار المتصل بمقعّر فلك القمر إلى مركز الأرض.

وهذا العالم السفلي يسمى عندهم عالم الكون والفساد. وهو أربعة أجرام تسمى الأركان والاسطقسات والعناصر،

أعلاها النار ثم الهواء ثم الماء ثم الأرض،
وحركتها مستقيمةٌ من الوسط وإلى الوسط،
يستحيل بعضها إلى بعض على الدوام والاستمرار،
فمتى كيفت النار استحالت هواء،
ومتى كيف الهواء استحال ماءً،
ومتى كيف الماء استحال أرضاً.
وبالعكس متى لطفت الأرض استحالت ماء،
ومتى لطف الماء استحال هواء،
ومتى لطف الهواء استحال ناراً.

*

قال محمد بن موسى:

دخلت على المأمون، وعنده جماعة من المنجمين، وعنده رجل تنبأ ودعا له القضاة والفقهاء، ولم يحضروا بعد، ونحن لا نعلم، فقال لي ولمن حضر من المنجمين:

خذوا طالعاً لدعوى رجلٍ في شيء يدعيه، وعرفوني ما يدلُّ حاله عليه، من كذبه في دعواه أو صدقه. ولم يعلمنا المأمون أنه متنبئ.

فأخذنا الطالع وأحكمنا موقعَ الشمس والقمر في دقيقة واحدة مع دقيقة الطالع، والطالع الجدي، والمشتري في السنبلة ينظر إليه، وعطارد والزهرة في العقرب ينظران إليه،

فقال من حضر من القوم:

كل ما يدعيه صحيح، وأنا ساكت،

فقال لي المأمون: قل، فقلت:

هو في طلب تصحيحه، وله به حجة زهرية عطاردية، وتصحيح الذي يدعيه لا يتمُّ له ولا ينتظم.

فقال لي:

من أين قلت؟

قلت:

لأن صحة الدعاوى من المشتري، والمشتري ينظر إليه نظر موافقة. إلا أنه كاره لهذا البرج، فلا يتمُّ له التصديقُ والتصحيح. والذي قالوا من حجة عطاردية زهرية فإنما هو من جنس الخداع، والمنجمون يتعجبون منه.

فقال المأمون:

أحسنت، لله درك! أتدرون من الرجل؟

قلت: لا، قال:

هذا يدعي النبوة.

فقلت له:

يا أمير المؤمنين، معه شيء يحتجُّ به؟

فسأله فقال:

نعم معي خاتم ذو فصّين ألبسه فلا يتغير مني شيء. ويلبسه غيري فيضحك ولا يتمالك من الضحك حتى ينزعه.

ومعي قلمٌ شامي أكتب به، ويأخذه غيري فلا تنطلق به يده. فقلت له:

هذه الزهرة وعطارد قد عملا عملهما.

فأمره المأمون بعمل ما ادعاه، فعمله.

فقلنا:

هذا ضرب من الطلسمات.

فما زال به المأمون أياماً كثيرة يستنزله عن دعواه ويرغبه ويعده بالإحسان حتى أقرَّ بصورة عملت في الخاتم والقلم، وتبرأ من دعوى النبوة. وأعلمه أنه إنما جعل ذلك سبباً للوصول إليه، فوهبه المأمونُ ألفَ درهم، ووجدناه أعلمَ الناسِ بعلم النجوم، وهو من أصحاب عبد الله بن السري، وهو الذي عمل طلسمَ الخنافس في دور كثيرة من دور بغداد.

*

قال أبو معشر:

نزلت في خانٍ ببعض قرى الريّ في قافلةٍ، ومعنا كاتبٌ من أهل بغداد، فلما استقر بنا المجلس أكلنا وأخرجتُ شراباً كان معي، فعرضت على الكاتب فشربنا، وذكرنا النجوم،

فإذا هو قد نظر في شيءٍ منها، فسألني عن القمر أين هو في الغد؟

فقلت:

في تربيع المريخ فهل لك أن نقيم غداً؟

قال:

نعم إن ساعدنا المكارون على ذلك، فكلمناهم فأجابوا على أن نعطيهم العلف.

وسألنا أهلَ القافلة أن يقيموا فأبوا وسخروا منا وأنكروا ما قلنا. فأقمنا وارتحلوا، ونظرت في الارتفاع عند رحيلهم فإذا الطالع الثور وفيه المريخ، والقمر في الأسد.

فقلت لهم:

الله الله في أنفسكم. فامتنعوا من المقام ومضوا. وأقمت أنا والكاتب، فلم يبعدوا حتى رأينا جماعةً من القافلة دخلوا علينا مجردين، وقد قطع عليهم الطريق على فرسخين من الموضع، وقد قتل بعضهم وأخذ ما كان معهم، فلما رأوني أخذوا لي الحجارة والعصيّ، وقالوا:

يا ساحر يا كافر، قتلتنا وعاملت علينا وقطعت علينا الطريق!! فخلصت منهم بعد جهد، والتزمت أن لا أكلم أحداً من العوام والسوقة بشيء من أسرار النجوم.

*

الخريف ثمرة الربيع، كالشجرة التي تُثمر ولولا الثمرة لم تكنْ في الأرض منفعة.

وفي الخريف تحصلُ أصنافُ ما يتمول، وتدَّخَرُ أقواتُ الخلائق الممسكة لأرواحها إلى الخريف القابل.

وفيه يكونُ الزعفران،

وله على جميع أنوار الربيع فضل.

وله وردٌ يطلع كنصل السهم وقرنِ الخشف، في لون الياقوت الأزرق واللازورد المشُوف كالعيون الشهل وأعراف الطواويس، يتفتح عن شعرٍ كخطوط الذهب وكشررِ نارٍ تلوحُ من حدائق البنفسج كألسن الحيات المنضنضة. ويطلع وردُ الزعفران البريّ في السنة مرتين. غير أن البريّ ليس له زعفران ولا حشيش. وفيه يُجْتنى النخلُ وتحرز أعمالُ النحل وتقطف الأعيان التي فيها المنافع. وتُجْنى الأقطان التي فيها لباس الناس وزينتهم أحياء وسترتُهمْ أمواتاً. وفيه يقطف اللوز والجوز والعناب والزعرور وغير ذلك. وفيه تتناكح ذوات الأظلاف الأنسيّة والوحشية. وفيه مطارحُ البزاة وسائر الجوارح. وفيه الأترجُّ وأوراقه، وله ورد كالفاغية وينفتق عن مثل خَرز الزبرجد، ويعظم وتُشْرَبُ خضرته صفرةً، فإذا خلصت الصفرة صار كقلالٍ ظاهرها ذهبٌ وباطنها فضة، فيها حبّ كاللؤلؤ والمرجان، وقشره ينفع الممعود. وله إذا عُرِكَ أريجٌ ذكي، ويستخرج منه دهنٌ أذكى من الند. وله حماض لذيذٌ يطيبُ للمقرور وينفع المحرور، وإذا تصرمت الرياحين في البساتين فالأترجُّ غضٌّ طريٌّ، وقد اجتمع فيه وفي العنب الطبائع الأربع.

وقال أبو محمد ابن المقتدر: وفيه يكال الأرز، وهو أحد الأقوات المحتاج إليها. ولا يقوم مقامَهُ شيء لأنه أولى أغذيةِ بني آدم صغاراً وكباراً. وقد يُستغنى به عن الحنطة ولا يستغنى بها عنه، لأنه يغذو المراضيعَ في الأوقات التي لا يصلح لهم أكلُ الخبز فيها. وبِغلّته وعظمها وكثرة ريعها يضرب المثل.

وفي الخريف يبلغ قصبُ السكر الذي هو قوام أبدان الناس، وحاجتهم إليه ماسة، ولا يعتاضون بغيره. فهو أطعمة الأصحاء وحلواهم، وفيه شفاءُ

المرضى وأقواتهم، لأنه أصلُ سائرِ الأشربة والمعاجين الحارة والباردة والمزوّرات والأغذية. وهو قوامُ الناس في صحتهم وغَنَاؤهم في أمراضهم. وفيه تخرجُ الجوارح من قرنصتها وَيُستْحَبُّ الصيدُ وتكثر محاليف الدراج، ويمكنُ الصيادين من جهات كثيرة: أحدها أنّ الغلات تكون قصاراً لم تطل فتمنعُ وتسترُ ما يستتر بها من الطير والوحش، وأخرى أنَّ الجوارح لا تعملُ في الحرِّ إلا ساعة في برد الهواء، وقد تعمل في الخريف والشتاء طولَ نهارها، والكلابُ فلا تعمل في الحرِّ بوجهٍ ولا سبب ولا تطعم نهاراً، والملوك والمترفون الذين يخرجون إلى الصيد بالجوارح لا يعرَضون بنفوسهم لحرِّ الهواجر، ولا يخاطرون بمهجتهم من أجل الصيد، ولا ينشطون له إلا في البردِ وطيب الهواء والزمان.

وفي الخريف يقدم طير الشتاء من الجبال والبلاد الباردة، مثل الكراكي والإوز واللغالغ مما يُتَصيّد بالجوارح وسائر آلات القنص والرمي بالبندق وغيره.

وفيه تُقْطعُ أنابيب الأقلام وتجلب من كلِّ مكان، وهو أوانُ إدراكها وصلابتها واستقامتها. ولولا الأقلام وقفت أمورُ الناسِ ولم تتمَّ لهم شهادة ولا قضيّة ولا بيع ولا شراء. ولا تُضْبَط العلوم وتقيّد الأخبار إلا بها.

وفي الخريف يكون الدرُّ الذي جعله الله زينةً للعباد، وحبِّبَ للناس وتجمَّل بلبسه سائر الأمم. وفُضّل على سائر الأحجار النفيسة من الذهب وغيره. مع ما فيه من المنافع والبرء من الأمراض الصعبة وإدخاله في الأكحال، وهو أنفسُ ذخيرة وأخفُّها محملاً، وقد يمكنُ الإنسانَ أنْ يحمل معه من الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف درهم لا تعييه ولا تؤذيه. ولا يمكنه حملُ ألفِ درهم إلا بمشقة ولا يستتر ولا يخفى، ولذلك ادّخره الملوك وجعلوه عدّة للشدائد.

والخريف أصحُّ السنة زماناً وأسلمها أواناً، والشمس فيه بالميزان، وهو أحدُ الأعدلين المتوسطين حين أطلعتِ السماء حوافلَ أنوائها، وتأذَّنتْ بانسكابِ مائها، وَصَفَتْ المواردُ من كدرها، وتهذَّبت من عكرها، وخلصت الأرض من حمارة قيظها ورمضائها. وإجماعُ الناسِ على محبة ريح الشمال وإيثارها على الرياح الأربع مشهورٌ لا اختلاف فيه، وإنما تحمد في الخريف لا في الربيع لأنها في ذلك الزمان تقوي النفوس، وتجذب للناس النشاط والظرف، وتصلح عليها المرضى وتقوى أجسامهم، وكل علة يطولُ مكثها إنما تحدث في إقبال الصيف وتُقْلِعُ في إقبال دخول الشتاء، وهي تستحيلُ في الربيع بخلاف هذا لأنها تُتلف الغلاتِ وتفسدها، ولا يكون سقوط البَرَدِ فيه إلا في الشمال ولا تكون الزلازل والصواعق إلا معها.

وفي الخريف إقبالُ كلِّ خير، وفيه المطر الوسميُّ الذي يتباشر به الناس ويتبركون به، وتكثر عليه العمارة وتزيدُ فيه الأنهار، ويكره المطر في الربيع لأنه يُفْسِدُ الغلات ويهدمُ المنازل، فهو في الخريف سقياً وشراب، وفي الربيع صواعق وعذاب، وفي هذا غيثٌ يرجى صلاحه، وفي ذاك غيثٌ يخشى فساده. وبرد ماء الخريف مستطاب دون ماءِ سائر السنة. وكانت العرب تقول في من مات في أول الخريف: مات ولم يشرب ماء الخريف. وكان ابن الرومي يفضِّلُ الخريفَ على سائر فصول السنة.

*

دخل أعرابيٌّ خراسانَ فلحقه الشتاء فأقام بسمرقند، فلما طاب الزمانُ عاد إلى وطنه، وكان ينزل البصرة، فسأله أمير البصرة عن خراسان فقال: جنة في الصيف وجهنم في الشتاء.

فقال له: صف ليَ الشتاء بها،

فقال: تهبُّ الرياح، وتضجرُ الأرواح، وتدومُ الغيوم، وتكثر الغموم، وتسقط الثلوج ويقلُّ الخروج، وتغور الأنهار، وتجفّ الأشجار. فالشمسُ

مريضـة، والعـين غضيضـة، والوجـوهُ عابسـة، والأغصـانُ يابسـة، والميـاهُ جامـدة، والأرض هامـدة. يفترشـون اللبـود، ويلبسـون الجلـود. نيـرانهم تثـور، ومـراجلهم تفـور. لحـاهم صُـفر مـن النيـران، وثيـابهم سـود مـن الـدخان. والمواشي من البرد كالفراش المبثوث، والجبالُ من الثلج كالعهن المنفوش. فأما من كثرت نيرانـه، وَثَقُلَ ميزانـه، فهو في عيشة راضيةٍ، وأما من قلت نيرانـه، وخفَّ ميزانـه، فأمّه هاوية، وما أدراك ما هيه، نارٌ حاميه. فقال لـه الأمير: ما تركت عذاباً في الآخرة إلا وصفته لنا في الدنيا.

*

أمّا البخارُ فإنَّ ما تصاعدَ منه ومادَّتُهُ ضعيفةٌ والحرُّ عليه غالبٌ فإنه يستحيلُ إلى الهواء، وقلَّ ما يتكوَّنُ منه شيء. وما تصاعدَ منه مستعلياً وله مادة وصادفه بردُ الليل قبل ترقّيه إلى الطبقة الباردة من الهواءِ تكاثف ونزل طـلًّا، وهو ما يُحَسُّ به من الأنداء وقت الأسحار. وإن اشتد البردُ على الطَّل بعد تكاثفه بحيث يجمده نزلَ صقيعاً، وهو ما تشاهده على وجه الأرض وقت الغدوات كالصّقاع اللامعة. وما تصاعدَ منها إلى الطبقة الباردة تكاثفَ بالبرد سحاباً منضغط الأجزاء، وهو ما تشاهدُهُ في الجوِّ كالجبال السائرة. فإن غلب عليه البَردُ بحيثُ جمَّده قبل انعقاده، صار ملحاً متحللا أبيضَ لمخالطة الهواء لأجزائه، وقلَّ ما يكون في غير الشتاء، وإن انعقد ما نزل هابطاً لثقله من سعة محيط إلى ضيق مركز على خطوطٍ مستقيمة فتجتمع أجزاؤه وتتشكل بقطرات المطر فينزل مطراً، وعلى حسب التفاوتِ في القرب والبعد والاجتماع يكون كثير القطرات. وأكثرُ ما يكونُ في الربيع لبعد المسافة التي ينعقدُ السحاب فيها، وإن قوي البرد عليه بعد تشكله بقطراتِ المطر جمد ونزل بَرَداً، وربما استولى على قطرات المطرِ من الجوّ حر أوجب حصر البرودة الشديدة في باطنها، فانعقد منه برد،

ومثل هذا إنما يكون في أيام الربيع. ولهذا قد تشاهد البردَ في الربيع وباطنُ حبّاتِهِ أشدُّ جموداً من ظاهرها؛ وربما كانتْ مادةُ هذه الأشياء أيضاً الهواء، إلا أن تكاثف البخار واستيلاءَ البرد عليه لتلطفه بالحرّ يكون أسرعَ وأشدَّ. ولهذا كان تكاثف بخار القدْر وانعقاده بإضافة البرودة أسرعَ من بخار الحمّام، لتفاوتهما في التلطف بالحرارة، وعلى حَسَبِ تفاوتِ المواضع في صُعود الأبخرة منها وشدّة البرد وضعفه في جوّها يكون التفاوت في زيادة هذه الأشياء وقلتها، حتى أن ما كثُرَت أبخرته من البقاع كالبحار كان أكثر مطراً، وما قلت أبخرته كان أقلّ، وما كان برد جوّه أشدّ، كان ثلجه وبرده وصقيعه أكبر، كقلل الجبال والمواضع المرتفعة.

*

وألوانُ لهبِ النيران على قدر ألوان الدخان. وكلما مال الدخانُ إلى البياض مال لونُ اللهبِ إلى الشقرة. وكلما كان الدخانُ أشدَّ سواداً كان اللهبُ أشدَّ حُمْرةً، حتى إذا اشتدّ سوادُ الدخانِ اكماتَّ اللهبُ. وبين دخان الحطب الواحدِ في أوّل ما تشتعلُ النار فيه وبينه إذا توسطت الحال وإذا تناهى حَمْيُ الحطبِ وقهرتْهُ النارُ اختلافٌ كثير. فإن النار في أوّلِ ما تأخذُ في الحطب يكونُ لهبها أقربَ إلى السواد، ولا سيّما إن كان الحطبُ رطباً. ثم ترى اللهبَ يصفو ويميلُ إلى الشقرة على قدْر احتدام الحطبِ ورقة دخانه، حتى إذا كان آخراً ودكتِ النار ورقَّ الدخانُ اشقارَّ اللهب، حتى إذا انقطعَ الدّخانُ الغليظ البتةَ وصار الحطبُ جمراً ذاكياً متوهجاً رأيتَ له لهَباً لطيفاً قليلَ الشُّقْرةِ قريباً من البياض، وذلك هو الأوار، وما بقي له من لونٍ حينئذٍ فهو من قِبَل جنْسِ الجمر. ألا ترى أنّ أوَارَ الحُمَمِ أخضرُ، وذلك لغلبة السواد على الفحم. وإنما اللهبُ دخانٌ حَميَ فآضَ ناراً. وكلُّ شيء يحمى حتى يتناهى في الحرارة تحوَّلَ ناراً، وإنّما النار دخانٌ انتهى في الحرارةِ أو جمرٌ، ألا ترى أنَّ كلَّ شيءٍ لا دخانَ له فإنك إذا أحْمَيْتَه آضَ

جمراً من غير أن يكون له لهب، كالحجارة والحمم والحديد وما أشبه ذلك. وإن كان في الحمم بقيةٌ من الصنف الذي يصيرُ من الحطب دخاناً صارتْ تلك البقية أواراً، وهو أرقُّ من الدخانِ وألطف، وكذلك أيضاً يكونُ لونُ الأوارِ أضعفَ وأرقَّ من لونِ اللهب.

فإن عريتِ النار من أنْ تكونَ من أوارٍ أو دخانٍ أو جمر كانتْ بيضاءَ خالصةَ البياضِ كلون نارِ المهاة التي توجدُ عنها النارُ فتقومُ مقامَ القدَّاحة. وكلونِ نار المرآة المحرقة، فإنَّ هاتين النارين بيضاوان من أجل أنه لا دخانَ هناك ولا جمر، وإذا ألهبنا الريَّة المدخّنة كان اللهب الساطعُ من الريّة أحمرَ من أجْلِ الدخان، وإنما ألهَبَتْها نارٌ بيضاءُ كالبَرَدَةِ.

ونيران الأدهانِ والصموغ والكباريت والزفوتِ شديدةُ اختلافِ الألوانِ، منها الأسودُ وقريبٌ من السواد. ومنها الأخضرُ والأصفر والأزرق والأشهبْ في ألوانٍ غير محدودة. وكذلك أرْمِدَتُها وأرمدةُ الأحطاب وَحُرَّاقات الأشياء فإن منها الأسودَ والأخضرَ والأصفر والأحمر. فترى رمادَ النار العظيمة أصنافاً وهو رمادُ ساعته. فترى ظاهره بخلاف وسطه، ووسطهُ بخلاف أسفله، وأسْفَلهُ فيه ألوانٌ متعددة، ولذلك قيل للرماد أخْرج. والخُرْجَةُ لونان يختلطان وقيل له أيضاً أوْرَقُ وخصيفٌ.

ورمادُ الحجارةِ وهو الكِلسُ أشدُّ شيء بياضاً، وعلل ذلك وأسبابه لا تحصر، يدلُّ مذكورها على ما لم يُذْكَر. ويقال رماد رِمْدِدٌ على وجه المبالغة، وتجمعُ أرمدةٌ وأرمداء.

فأما الجمرُ فلونُ جمرِ جميع الحَطبِ واحدٌ أو قريبٌ قالوا: وقد يختلفُ لونُ الجمر باختلاف الأوقاتِ المنظور إليه فيها. فهو في الشمس أكهبُ، وفي الفيء أشْكلُ، وفي الليل أحمر.

*

وقوله: (لا شرقية ولا غربية) فيه ستة أقوال: أحدها يعني أنها ليستْ من شجرِ الشرق دون الغرب ولا من شجر الغرب دون الشرق، لأن ما اختص بأحدِ الجهتين كان أقلَّ زيتاً وأضعف ضوءاً، ولكنها من شجر ما بين الشرق والغرب كالشام لاجتماع القوتين فيه.

الثاني: ليست بشرقية تستتر عن الشمس في وقت الغروب، ولا بغربية تستتر عن الشمس في وقت الطلوع، بل هي بارزةٌ للشمس من وقت الطلوع إلى وقت الغروب، فيكون زيتها أضوأ وأقوى.

الثالث: يعني أنها وَسْط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت، وذلك أجود لزيتها.

الرابع: يعني أنه ليس في شجر الشرق ولا في الغرب مثلها.

الخامس: يعني ليستْ من شجر الدنيا التي تكون شرقيةً أو غربية وإنّما هي من شجر الجنة.

السادس: يعني أنها مؤمنة لا شرقيةٌ أي ليست بنصرانيةٍ تصلي إلى المشرق، ولا غربية أي ليست يهوديةً تصلي الى المغرب.

*

محمد بن أبي طالب الأنصاري*

الأرض جسم بسيط، طباعه أن يكون بارداً يابساً، متحركاً إلى الوسط. وإنما خُلقت بسيطة باردة للغلظ والتماسك، إذ لولا ذلك، لما أمكن قرارُ الحيوان عليها، ولا حدث النبات والمعدن فيها.

وهي في الوسط من الفلك، ولا نسبة لها إليه، ومَثلها فيه كمثل النقطة في الدائرة، أو كالمحّ من البيضة.

(...) وذهب آخرون إلى أن الأرض بطبعها هاربة من الفلك إلى ذاتها على ذاتها. وإذا زال الفلك يوم القيامة، وانتثرت كواكبه، وطُوي طيّ السجل، ذهب عنها الموجب لهروبها، فامتدت وانتشرت واهتزّت وتساوت بالانفراش إلى قريب من أذيال السماء.

*

(...) والعنبرُ ينبعُ من عيونٍ من جبال بقعر البحر (...) فيركب بعضه بعضاً. وهو، في حين خروجه، شديد الفوران والحرارة، فإذا لاقى بَرْدَ الماء، جمدَ على أحجار، وصار جماجمَ صغاراً وكباراً، فيبقى لاصقاً بتلك الصخور، إلى أن يهيج البجر في زمن الشتاء، فيقتلعه قطعاً قطعاً، ويخرجه إلى سطحه، فترمي به الأمواج إلى الساحل.

(...) والعنبرُ إذا ألقاه الموج إلى الساحل، لا يأكله حيوان إلا مات، ولا ينقر منه طائر إلا انفصل منقاره، وإذا وضع عليه رجليه، فُصلت أظفارهُ.

*

* المعروف بـ «شيخ الربوة»، توفي سنة 1327م\727 هـ .

(...) المسك فضل دموي يجتمع من جسد دابة المسك إلى سُرّتها، في وقتٍ من السنة. وهذه السرة جعلها الله تعالى موطناً للمسك. وهي مثمرة في كل سنة، كالشجرة التي تؤتي أكلها في كل حين بإذن ربها. فإذا حصل الدم في سرّته، وَرَمَت وعظمت، فإذا بلغت وتناهت، حكتها بأظلافها، وتمرغت في التراب والنبات الذي يوافق حكها به، فيسقط عنها ... فيخرج الجلابون، فيأخذون ذلك.

*

أشتات لكتّاب مجهولين

أنعم الناس عيشاً من عاش غيره في عيشه.

*

مَن اسْتَثْقَل سماعَ الحقّ، فهو للعمل به أكثر استِثقالاً.

*

كثرةُ الخلافِ حَرْبٌ، وكثرة الموافقةِ غشّ.

*

العطلة موتُ الحال.

العِلّة سكونٌ والحياة حركة.

إذا كان الشغل مَجْهدَةً، فالفراغ مَفْسَدة.

*

التقى حكيمان، فقال أحدهما للآخر:

- إنّي لأحبّك في الله.

فقال له الآخر:

- لو علمتَ مني ما أعلمه مِن نفسي، لأبْغضَتني في الله.

- لو علمتُ منكَ ما تعلمهُ من نفسك، لكانَ لي في ما أعلَمُهُ مِن نَفْسي، شُغْل.

*

يُرْضي الكِرامَ الكلامُ،

ويُصادُ اللئامُ بالمال،

ويُسْبَى النبيلُ بالإعظام،
ويُسْتَصْلحُ السِّفَلَةُ بالهوان.

*

في مُجاوَزتك من يكفيكَ فقرٌ لا مُنتهى له حتى تنتهيَ عنه.

*

العقلُ يأمركَ بالأنفع، والمروءةُ تأمركَ بالأجمل.

*

لولا أنّ الشّمس تُحرِق، والمطرَ يُغْرِق،
لما كان في الدّنيا
أحسنُ مِن شرْبٍ في الفضاء، على وجه السّماء.

*

مرض آدم قبل أن يموت، لم يطل مرضه أكثر من أحد عشر يوماً. قبيل موته أوصى بعلمه كله لابنه شيث، أوصاه كذلك أن يخفي هذا العلم عن قابيل وأبنائه، لأنه قتل هابيل.

عاشت حواء بعد آدم سنة واحدة. فلما ماتت دُفنت معه في غارٍ في جبل أبي قبيس، يقال له غار الكنز. بقيا معاً حتى جاء الطوفان. أخذهما نوح. وضعهما معاً في تابوتٍ وحملهما في السفينة. لما غاضت الماء وانتهى الطوفان ردهما نوح إلى الغار.

وكانت حواء قد غزلت ونسجت وعجنت وخبزت وعملت أعمال النساء.

*

قيلَ لِكذوبٍ: أصدقتَ قَط؟
قال: أكره أن أقولَ لا، فأصدق.

*

مَن ثَقُلَ على صديقهِ، خَفَّ على عدوه،
ومَن أسرع إلى الناس بما يكرهونَ، قالوا فيه ما لا يعلمون.

*

البحرُ كثير العَجائب، وأهله أصحابُ تَزَيُّد،
فأفسدوا بقليل الكذبِ كثيرَ الصّدق،
وأدخلوا ما يكون في ما يكاد لا يكون،
وجعلوا تصديق الناس لهم في غريب الأحاديثِ سُلّماً إلى ادعاء المُحال.

*

أمسُكَ ماضٍ، ويومك مُنتقل، وغدَكَ مُتهم.

*

ما رَدَدْتُ أحداً عن حاجةٍ،
إلا تَبَيَّنْتُ العزَّ في قَفاهُ، والذلّ في وجهي.

*

السّفلة إذا تعلموا تكبّروا، وإذا تمولوا استطالوا،
والعِلية إذا تعلموا تواضعوا، وإذا افتقروا صالُوا.

*

السخيُّ شُجاع القلب،
والبخيل شجاع الوجه.

*

- ما هذا؟*
- شيء مُغطّى، وقد نادَى الأميرُ ألا يُكشَفَ مُغَطّى. فمن خالف الأميرَ جَلده.

---

* حوار بين سكران وشرطيّ.

- اكشفْ عن رأسِكَ، ليس عليكَ بأس.
- ليس لي رأس.
وَيْلكَ، فمن أين تكلمني؟
- ليس هذا عليك، تَسمعُ وتُطيع نداء الأمير، وإلا فاكشفْ إن جَسرْت.

*

- أيَسرّك أن تُصلب في صَلاح هذه الأمة؟*
- لا، ولكن يسرّني أن تُصلبَ الأمة في صلاحي.

*

بِمَ يَبْذلُ الرّجل عندكم.
- بتَرْكِ الكذب، فإنّه لا يَشْرُف إلا مَن يُوثَق بقوله.
وبقيامه بأمر أهله، فإنه لا ينبلُ من يحتاج أهلهُ إلى غيره.
وَبمُجانَبة الرِّيب، فإنّه لا يعزّ من لا يؤمَن ألا يُصادَفَ على سَوْأة.
وبالقيام بحاجات الناس، فإنّه مَنْ رُجيّ الفَرَج لديه، كثرت غاشيتُه.

*

- ما خيرُ ما يُرْزَقُه العبد؟
- عقل يعيش به.
- فإن عَدِمه؟
- فأدبٌ يَتحلى به.
- فإن عَدِمه؟
- فمالٌ يستره.
- فإن عَدِمه؟

---

* حوار بين مجنون وعاقل.

– فصاعقة تحرقه، فَتريح منه العبادَ والبلاد.

*

– متى يكون العِلم شرّاً من عدمه؟
– إذا كثُرَ الأدب ونَقَصتِ القريحة.

*

قيل لليلى:
– حبّكِ للمجنون أكثر، أم حبّه لكِ؟
– بلُ حبّي له.
– وكيف؟
– لأنّ حبه لي كان مشهوراً، وحبّي له كان مستوراً.

*

رأى رجل في يد امرأةٍ كانت تأتيه، خاتم ذهب. فقال لها:
– ادفعي إليَّ خاتَمكِ أذكركِ به.
فقالت:
– إنه ذهب، وأخافُ أن تذهب. ولكن خذ هذا العودَ، لعلك تعود.

*

– وَيْحكَ، أمَا لَكَ زاجِرٌ مِن عَقْلٍ، إذ لم يكنْ لك ناهٍ من دين؟*
– والله، ما يرانا شيء إلا الكواكب!
– وَيْحكَ، وأين مُكوْكِبُها؟

*

إنّ في الجنةِ غُرفاً، يُرى ظاهرها من باطنِها، وباطنِها من ظاهرها.

*

إنّ في الجنّة نهراً يُقال له البَيْذَخ،

---

* حوار بين رجل وامرأة.

عليه قبِابُ من ياقوتٍ. تحته جوارٍ نابتات،
يقول أهل الجنّة: انطلقوا بنا إلى البَيْدخ،
فإذا أعْجب رجلٌ منهم بجاريةٍ، مَسَّ مِعْصَمها،
فتتبعُه، وتنبتُ مكانَها أخرى.

*

إنّ في الجنّة شجرةً،
يخرج أهل الجنّة يتحدّثون في ظِلها،
فيشتهي بعضهم، ويَذكرُ لهوَ الدنيا،
فيرسل الله ريحاً من الجنّة
تحرّك تلك الشّجرة بكلّ لهوٍ كان مع الدّنيا.

*

في الجَنّة ما لاعينٌ رأت،
ولا أذنٌ سمعت،
ولا خطرَ على قلب.

*

في الجَنّة قَصْر، والقَصْرُ مِن وَرَقة وَرْدٍ خضراء.

*

الدّنيا والآخرة ضرّتان، متى أرخيتَ إحداهما أسْخَطتَ الأخرى.

*

(...) مَثِّلْ* لنفسكَ مثالَ ما تَسْتحسنُ لغيركَ، ثم اتخذهُ إماماً، وما تَسْتقبحُ من غيركَ فَاجْتنِبْهُ.

إيّاكَ والبخلَ بمالكَ والجودَ بِدينكَ.

---

* من وصيّة امرأة لابنها.

الغَدرُ أقبحُ ما يُعامَلُ به الإخوان، وكفى بالوفاءِ جامعاً لما تَشَتَّتَ من الإخاء.

الغيبة جهدُ العاجز.

*

كل شيء فاتَكَ من الدّنيا، فهو غنيمة.

*

قَلّما يُمنعُ القلبُ من القول إذا تردَدَ عليه،

فإنّ الماء أليَنُ من القَول، والحجرَ أصلبُ من القَلب.

وإذا انْحَدرَ عليه وطالَ ذلك أثّر فيه.

وقد تُقطع الشجَرة بالفؤوسِ فتنبُت،

ويُقطع اللحمُ بالسيوف فيَندمل.

واللسان لا يَنْدمِل جرحُه

والنّصول تغيبُ في الجَوْفِ فتُنْتزَع،

والقول إذا وَصَلَ إلى القلب لم يُنزَع.

ولكلّ حريقٍ مُطفِئ:

للنار الماء،

وللسمِّ الدواء،

وللحزن الصّبر،

وللعشق الفرقة،

ونار الحقد لا تخبو.

*

كلُّ عزّ دخَل تحت القدرة فهو ذليل.

*

كل مقدورٍ عليه مَمْلولٌ مَحْقُور.

*

النّاسُ سَيْلٌ،
وأسرابُ طيْرٍ يتبع بعضها بعضاً.

*

شرارُ الأمراء أبعدهم عن العلماء،
وشرار العلماء أقربهم إلى الأمراء.

*

قيّدوا العلمَ بالكتابة،
العلم عقود، فاجعلوا الكتبَ لها نظاماً.

*

من أسرع إلى الناسَ بما يكرهونَ، قالوا فيه ما لا يعلمون.

*

الحبرُ كثير العَجائب، وأهله أصحابُ تَزَيُّد،
فأفسدوا بقليل الكذبِ كثيرَ الصّدق،
وأدخلوا ما يكون في مَا يكاد لا يكون،
وجعلوا تصديق الناس لهم في غريب الأحاديث سُلّماً إلى إدّعاء المُحَال.

*

لو صُوِّر العقلُ لأضاءَ معه الليل،
ولو صُوِّر الجهلُ، لأظلمَ معه النّهار.

*

كلُّ شيء إذا كثرَ، رخُصَ إلا العَقْل:
كلما كثر كان أغنى.

*

قطيعة الجاهلِ تعدلُ صحبةَ العاقل.

*

يمكنكَ أن تحفظ الأحمقَ مِن كلّ شيءٍ إلا من نَفسه،
وتداويه إلا من حمقِه.

*

العقل صديقٌ مقطوع، والهوى عدوٌّ مَتْبوع.

*

أفضلُ العَقْل،
معرفة المرءِ بنفسه.

*

إن اتّسعَ لكَ المنهج،
فاحَذر أن يضيقَ بك الخروج.

*

من أعجب الأشياء، جاهِلٌ يَسْلمُ
بالتهور،
وعاقِلٌ يهلكُ بالتوقي.

*

أعظمُ الخطأ العجَلة قبل الإمكان،
والتأني بعد الفُرْصة.

*

العقلُ كالسيّف والتجربة كالمسن.

*

التجارِبُ مَرائي الغُيوب، ونواظر العيوب.

*

من لم ينتفع بظنهِ،
لم ينتفع بيقينِهِ.

*

بوحشة الشك، يُنَالُ أنسُ اليقين.

*

الهيبةُ خيبة،
والفرصةُ تمرّ مَرّ السّحاب.

*

العطلة موت الحال.

*

العلة سكون والحياة حركة.

*

إذا كان الشغل مجهدة، فالفراغ مفسدة.

*

من استثقل سماع الحق، فهو للعمل به أكثر استثقالاً.

*

كثرة الخلاف حرب، وكثرة الموافقة غشّ.

*

أنت في هدم عمرك،
مذ سقطت من بطن أمك.

*

رَوّحوا الأذهانَ كما تروّحون الأبدان،
فإنّ العقلَ المكدودَ ليس لرؤيتهِ لِقاحٌ، ولا لرأيه نَجاح.

*

نفسُكَ مطيّتَكَ،
إن رَفَّهْتَها اضْطلعتْ،
وإن تحامَلتَ عليها انقطعَتْ.

*

الرأيُ نائِمٌ والهوى يقظان،.

*

الجاهل لا يكون منصفاً،
والعالم لا يكونُ معانداً.

*

السّلطان سُوق، والناسُ يجلبون إليها ما يَنْفُقُ فيها.

*

ما عَزّ ذو باطل، ولو طلع القمر من بين عينيه،
ولا ذَلّ ذو حق ولو اتفق العالم عليه.

*

تَنْدَمِلُ من المظلوم جراحهُ،
إذا انكسر من الظالم جناحه.

*

الفتنةُ عرسْ الظالم.

*

أعوذ بكَ من غَضبِ مَنْ لا يكاد يغضب.

*

إياك وعزّة الغضب، فإنها تصيرُ بكَ إلى ذلة الاعتذار.

*

عَفو العزيز أعزّ له، وعفو الذليل أذلّ له.

*

الآثام تَدرسُها الأيام.

*

لا عتبَ مع إقرار، لا ذنْبَ مع استغفار.

*

الإغراقُ في العذرِ يحقق التهمة، كما أنّ الإفراط في النصيحة يُوجب الظنة.

*

الموسيقى* حكمة عجزت النفس عن إظهارها في الألفاظ المركبة، فأظهرتها في الأصوات البسيطة، فلمّا أدركتها عشقتها، فاسمعوا من النفس حديثها.

(...) تستدرج أبناءَ الفلسفة إلى عالم العقل، لأن ظاهره لهْوُ الحواس، وباطنه لهو الحق. يعني أن الموسيقى تحدث في النفس الفاضلة، بالفعل ما كان عندها بالقوة.

*

فضل الغناء على الكلام، كفضل الناطق على الأخرس.

(...) الصوت الحسن والنغم الصحيح يجري في الجسم ويَسْري في العروق، فيصفو له الدّم، وتنقاد له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف الحركات.

(...) منافع الصوت الحسَن والأنغام الشجية أنها يُتوصل منها إلى نعيم الدنيا والآخرة، لأنّ منها ما يبعث الشجاعة، ويُحدث النشاط، ويُؤنس الوحيد، ويُريح التعبان، ويُسلّي الكئيب، ويبسط الأخلاق، ويحضّ على الورع والعبادة والتجريد عن تبعات الدنيا وعلائقها.

---

* من كتاب «الشجرة ذات الأكمام، الحاوية لأصول الأنغام»، القرن الحادي عشر الهجري، لكاتب مجهول.

(...) وأمّا ما يسلي الكئيب، فإنا نرى العاشق إذا ذكر أحبابه، استشاط وكادت الحسرات والزفرات أن تحرق كبده، فيغني ويترنم، فيبردَ ما يجده، حتى أنه لو دامَ ذلك مدة نهاره وليله، وتعلل به لتلك الآلام، لبرئ.

*

(...) إني لأسمع الغناء، فيقع عليّ البكاء، وأمثل في نفسي الملكوت.

*

أهي ليلة الموت، اللّيلة التي لا أختَ لها؟

*

الإنسان من حيث يوجد، لا من حيث يُولَد.

*

الوجهُ كتابٌ يُقرأ.

*

خرجتُ مرّةً على فرسٍ لي،
فإذا أنا بظلمةٍ شديدةٍ
فيمَّمْتُها حتّى وصلتُ إليها
فإذا قطعةٌ من الليل لم تنتبه،
فما زلتُ أحملُ عليها بفرسي حتّى أنبهْتُها،
فانجابت.

*

رميتُ ظَبْياً مرّةً بسهم،
فعدلَ الظَّبْيُ يمنة، فعَدلَ السّهم خلفه،
فتياسر الظّبي، فتياسر السَّهم.
ثم علا الظبي، فعلا السّهم خلفَهُ،
ثم انحدرَ، فانحدرَ حتّى أخذه.

*

الفهرس

المصادر

الآبيّ، الوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين، **نثر الدرّ**، تحقيق: محمد عبد الرحمن ابراهيم، راجعه: علي محمد البجاوي، القاهرة، 1990.

ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**.

ابن خَلّكان، شمس الدين أبو العبّاس أحمد، **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948 – 1949.

ابن طباطبا، محمد بن علي، **عيار الشّعر**، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، 1956.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، 1953.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، **الإمامة والسياسة**، تحقيق: محمد طه الزيني، القاهرة، 1963.

ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، القاهرة، 1963.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، **الفهرست**، تحقيق: غوستاف فلوغل، بيروت، 1964.

ابن كثير، الحافظ، **البداية والنهاية**، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، 1958.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1958.

ابن المقفّع، عبد الله أبو عمر زوربة، **المجموعة الكاملة لمؤلفات عبد الله بن المقفّع**، بيروت، 1978.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، **السيرة النبوية**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1990.

ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر الكاتب، **تاريخ بغداد**، بيروت، 1968.

الأًصبهاني، أبو الفرج، **الأغاني**، بيروت، بدون تاريخ.

ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي، **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**، بيروت، بدون تاريخ.

الأعسم، عبد الأمير، **موسوعة ابن الريوندي الملحد**، دار التكوين، دمشق، 2010.

أخوان الصفا، **الرسائل لأخوان الصفا وخلّان الوفا**، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1980.

الأشعري، أبو الحسن، **مقالات الإسلاميين**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1969.

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي ثابت، **تاريخ بغداد**، بيروت، بدون تاريخ.

البخاري، محمد بن اسماعيل، **صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

التوحيدي، أبو حيان، **البصائر والذخائر**، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، 1984.

التوحيدي، أبو حيان، **الصداقة والصديق**، تحقيق: إبراهيم كيلاني، دار الفكر، دمشق، 1964.

التوحيدي، أبو حيان، **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

التوحيدي، أبو حيان، **الرسالة البغدادية**، تحقيق: عبود الشالجي، دار الجمل، 2010.

التوحيدي، أبو حيان، **الإشارات الإلهية**، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1995.

التنوخي، أبو علي المحسِّن بن علي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

التنوخي، أبو علي المحسِّن بن علي، **الفرج بعد الشدّة**، اختيار وتقديم: عبد الإله نبهان، وزارة الثقافة، دمشق، 1995.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1956.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، 1965.

الجاحظ، عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**، تحقيق: طه الحاجري، القاهرة، بدون تاريخ.

الجاحظ، عثمان عمرو بن بحر، **كتاب الحيوان**، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، بيروت، 1992.

الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق: حسن السندوبي، القاهرة، 1947.

الجاحظ، عثمان عمرو بن بحر، **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1964.

الجهشياري، **تاريخ الوزراء والكتّاب**، طبعة لا يبتزغ.

الحصري، أبو اسحاق ابراهيم بن علي، **زهر الآداب**، تحقيق: قاسم محمد وهب، وزارة الثقافة، دمشق، 1996.

الرازي، أبو بكر، **رسائل أبي بكر الرازي**، تحقيق: بول كراوس، دار بدايات، جبلة، 2005.
الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، **الفائق في غريب الحديث**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1945.
السجستاني، أبو سليمان المنطقي، صِوان الحكمة، حقّقه وقدّم له: عبد الرحمن بدوي، طهران، 1974.
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **تاريخ الخلفاء، القاهرة**، 1964.
السدوسي، **كتاب الأمثال**، تحقيق: رمضان عبد التواب، القاهرة، 1971.
الشهرستاني، عبد الكريم، **كتاب نهاية الإقدام في علم الكلام**، حرّره وصحّحه ألفرد جيوم، طبعة أوربا.
صفوت، أحمد زكي، **جمهرة رسائل العرب**، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك**، بيروت، 1978.
عبد الجبار المعتزلي، القاضي أبو الحسن، **المغني في التوحيد والعدل**، تحقيق: عبد الحليم محمود وسليمان دنيا، مراجعة: ابراهيم مدكور، إشراف: طه حسين، القاهرة، 1966.
عبد الجبار، القاضي، **شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبّار**، القاهرة، 1965.
بدوي، عبد الرحمن، **مذاهب الإسلاميين**، دار العلم للملايين، بيروت، 1971.
الفارابي، أبو نصر، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، تحقيق: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثامنة، 2002.

الفارابي، **رسالة في السياسة**، تقديم وتعليق علي محمد إسبر، دار التكوين، دمشق، 2006.

القالي، أبو علي، **كتاب النوادر**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

القالي، أبو علي، **ذيل الأمالي والنوادر**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

كرد علي، محمد، **أمراء البيان**، دار الأمانة، بيروت، 1969.

الكندي، رسائل الكندي، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، 1950.

مسلم، **صحيح مسلم**، بيروت، 1978.

المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1964.

المعري، أبو العلاء، **زجر النابح**، جمع وتحقيق: أمجد الطرابلسي، مجمع اللغة العربية، ط 2، دمشق، 1982.

المعري، أبو العلاء، **الفصول والغايات**، تحقيق: محمد حسن زناتي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1977.

المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، **الكامل**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، القاهرة، بدون تاريخ.

المقري، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، بيروت، 1986.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ابن ابراهيم، **مجمع الأمثال**، القاهرة، 1955.

الهمذاني، أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى، **مقامات الهمذاني**، شرح: محمد عبده، بيروت، 1989.

اليعقوبي، أحمد بن جعفر، **تاريخ اليعقوبي**، بيروت، بدون تاريخ.

ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية**، نسخة مصورة، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

❖ كيف أتكلّم والفؤاد سقيم،
أم كيف أترنّم والخاطر عقيم؟
أم كيف أثق بما نُمّق من الخبر،
وقد كذّبني، ما حُقّق بالعيان؟..
وماذا يجدي الرجاء الكذوبُ مع الخطب المتفاقم؟..
❖ الصديق آخرُ هو أنت.
❖ غامتْ سماءُ العلم، وأظلمَ جوُ البيان،
وانكسرَ فقار الدين، وتحطّم عمودُ الشباب،
وقلّ نصيرُ الأدب، وتقوّض بناء الخير،
وبليَ ثوبُ المروءة، وغارتْ عين الحياة.

(أبو حيّان التوحيدي)

❖ تخبو النار ولو هجَم لهبُها على النجوم.
❖ مَنْ أجالس وجُلساء الصدق قليل؟..
وبمن أثق، ونفسي الغادرة الخؤون!..
❖ ما أقلَّ العالم وأقلّني فيه.
❖ صرُوف الأيام تُريكَ الجدْيَ على الثدي!..

(أبو العلاء المعرّي)

بدايات